

كلمة أولى

(١)

العبارة التى كتبها الشاعر الإيطالى دانتى على باب جهنم تقول :

(أيها الداخلون اتركوا وراءكم كل أمل فى النجاة)

بل هناك أمل فى النجاة يا سيدى !

والعبارة التى قالها الفيلسوف الإغريقى هرقليطس :

(لولا الصراع ما كان التقدم)

فقد عرف الإنسان الحب والرحمة والسلام وإرادة الحياة والصبر على المرض والعذاب والظلم والقهر . .

والعبارة التى كان يكتبها الرومان على أبوابهم :

هنا تسكن السعادة !

لأنهم وضعوا إلى جانب هذه العبارة رمزا للجنس . أى إن السعادة جنسية فقط . .

والعبارة التى قالها عالم النفس الألمانى فريتس برلز ، وهو أحد فلاسفة (علم نفس الجشالت) . قال :

(إننى أعمل ما يخصنى وأنت تعمل ما يخصك . ولست فى هذه الدنيا لكى أعيش على هواك ، ولا أنت لتعيش على هواى . أنت ما أنت عليه . وأنا ما أنا عليه . فإذا التقينا أو تلاقينا أو توافقنا بالصدفة ، فهذا شىء جميل . وأما إذا لم يحدث ذلك فما حيلتى ؟ !)

فليس الإنسان وحده فى هذه الدنيا . وعلى الرغم من أن الإنسان قد استقام ظهره من مليون سنة . وله حياة عائلية من مائة ألف سنة . فلا تزال الأسرة هى (الخلايا / الضامة) فى نسيج التاريخ . .

وقال الشاعر الألماني برشت :

يقولون لى : تناول طعامك واشرب ، وكن سعيدا . . ولكن كيف أفعل ذلك وأنا قد خطفت طعامى من أفواه الجائعين ، وشرابى عن شفاة الظامئين ومع ذلك ما أزال أكل وأشرب ؟ !

فقد عاش الإنسان على جثث الإنسان وعلى استغلال الإنسان وابتزازه ومص دمه وهوائه أيضا . لكى يتمرد على كل ذلك . .

ولا يكتفى أن يتلاعب بالألفاظ فيقول إن مقلوب كلمة Live ومعناها الحياة هى كلمة Evil ومعناها الشر

فلا تزال الحياة تساوى أن يعيشها الإنسان . وقد عاشها . وجملها لنفسه . وخدع نفسه . وأرضاه ذلك . . وتمرد على ذلك ليعاود استئناف الحياة ضد الحياة ومعتمدا عليها . . تماما كالطائرة ترتفع بالهواء ضد الهواء وفوق الهواء . . وكالسفينة تقاوم الموج ، ولكنها تطفو عليه وضده وبه . .

وكان أجدادنا الفراعنة يضعون تواييت الموتى إلى جوارهم وهم يأكلون لعلهم يتذكرون أن الموت نهاية كل شىء . وأن الحقيقة المؤكدة فى

حياتنا هي موتنا . . وكما يقول الفيلسوف الوجودى سارتر . إذا وقفت إلى جوار طفل فلن تعرف هل سيعيش طويلا سلبيا ملكا خادما أو مجرما . . ولكن من المؤكد أنه سوف يموت . .

ولكن المؤكد أنه إذا عاش سوف يقاوم كل أشكال الموت الجسمي والنفسي والأخلاقي والروحي . .

صحيح أن الطبيعة البشرية لم تتغير كثيرا . ولكن أدوات الحياة هي التي تغيرت . .

فحواء تغطت بورقة توت . . وليست صناعة الأزياء إلا تطورا مستمرا للورق التوت طولها عرضها مكانها لونها شفافيتها . . أن تغطي به المرأة وتتعري في نفس الوقت . .

وكان الإنسان يقتل الحيوانات بالحجارة . . وتطورت الحجارة فصارت مدافع وصواريخ وقنابل كيميائية وتطورت الحجارة . . . وبقيت الرغبة في القتل والدفاع عن النفس والسيطرة والجشع كما هي . وكانت كليوباترا قد جربت سم الأفاعى فى خادمتها قبل أن تلف الأفعى حول عنقها . .

وجربت المخابرات فى أمريكا وروسيا وألمانيا الشرقية كل الأسلحة النووية والعلمية والصدمات الكهربائية وغسيل المخ فى المرضى والأسرى والمجانين والمواطنين لتعرف مدى خطورتها إذا استخدمتها ضد العدو . .

وقد سجد سكان هاواى عندما رأوا جيمس كوك . . فأساطيرهم تقول إنه إله طويل أبيض أزرق العينين سوف يبعث فوق جزيرة عائمة وجاء الرجل وسجدوا له . . ولكن عندما قتل منهم الكثير ، قتلوه . فلا يزال الإنسان رافضا للظلم والقهر والعدوان .

والإنسان هو هذا الكائن الغامض الذى ينقل حضارته من مكان إلى مكان ومن عصر إلى عصر ، وفى نفس الوقت قادر على أن يحتفظ بكل سلوكه الإنسانى الذى لا يتغير . . روبسون كروزو عاش فى جزيرة وحده . ولكن كانت معه كل صفات الحضارة القديمة . .

والجندي اليابانى الذى عاش فى جوام بعد الحرب العالمية الثانية . لم يضع السلاح ٢٥ عاما . ظل يأكل الحشرات والأسماك ويسرق الدجاج . لا يعلم أن الحرب قد انتهت . ولما قالوا له . لم يصدق . وانتظر أمرا من الإمبراطور . . وجاءوا له بالأمر فاستسلم . . فقد عاش وحده ، ولكن احتفظ فى أعماقه بكل التقاليد العسكرية اليابانية . .

ونيل ارمسترونج أول إنسان نزل على القمر ، تحرسه ألوف العيون والعقول الالكترونية ومحطات المتابعة فى القارات الخمس ، كان يلف حول عنقه إشاربا هدية من أمه . فهو ابنها الوحيد . وهو يعتقد ، وهى أيضا . أن هذا الإشارب هو الذى سينجيه من الموت !

(٢)

ولكن ما الذى أصاب الإنسان الآن ؟

من المؤكد أننا نريد الحياة لأنفسنا والموت لغيرنا . ولكن الحياة تنصرف مع إرادة البقاء والسيطرة على الإنسان وعلى البيئة . .

· وإذا كان الإنسان يريد الآن أن يهاجر إلى الكواكب الأخرى . . فقد فعل ذلك من قبل عندما هاجر من قارة إلى قارة . وبقي هو هو . فهذه الهجرة لم تغير طبيعة الإنسان . فمجرمو بريطانيا الذين سكنوا استراليا تحولوا إلى مجرمين أيضا .

والأمريكان والروس قد نقلوا حروبهم من الأرض إلى الفضاء . . فقد كانت هناك حرب النجوم . . وإذا كانت الحرب قد بردت والسلام

قد أصبح ساخنا ، فذلك لبعض الوقت . وسوف تقوى روسيا لتكون خطرا جديدا . فلديها كل عناصر القوة والسيطرة . . وسوف تستأنف الدول الصراع بأشكال وأساليب أخرى وفي أماكن أخرى . . ولكن سوف تنصر الحياة دائما . .

وكما عاشت الإنسانية عصور الإيمان الذهبية . فهي تعيش عصور عدم الإيمان وعدم اليقين أيضا . . وهي قادرة على ذلك . .

فبعض الحشرات تستطيع أن تعيش أياما من غير رؤوسها . . مثل الصرصار Cockroach وكذلك بعض الشعوب دون أن تكون لها نظرية وإذا نحن فتحنا المقبرة بعد يومين أو ثلاثة من دفن أى إنسان فسوف نجد شعر لحيته وشاربه وأظافره قد طالت . . لأن الشعر والأظافر ليست فى حاجة إلى عقل وجهاز عصبي لكى تنمو . . وإنما إلى طبقة رقيقة من الغذاء موجودة فى بشرة الإنسان . . فالشعر والأظافر قد نمت بعد أن مات صاحبها !

(٣)

هناك تقدم ولاشك فى أجهزة الحصول على المعلومات ونقلها فهي أكثر وأسرع . . وهي فى خدمة العلم والأدب والفن . ولكن الجهاز الذى نستخدمه فى تشخيص المرض ، هو نفسه الذى نستخدمه فى الجريمة . . فكما أن هناك مؤسسات علاجية ، هناك مؤسسات إجرامية تستخدم عددا كبيرا من العلماء والأطباء والمحامين والمجرمين أيضا . .

ولكن هناك تقدما . . فالملك سليمان كان يندهش جدا لهذه الظاهرة : وهي أن الأنهار تصب فى البحار ، لا الأنهار جفت ولا البحار امتلأت !

ولكن أى طفل صغير يعرف أنها ظاهرة تبخر الماء حين يتحول سحابا فيسقط على الجبال ويتدفق فى الأنهار إلى البحار . . وإلى الأبد !

والمؤرخ العظيم توينبى أعظم وأروع من هيرودوت . لأنه يعرف أكثر ولأنه رأى طويلا وتأمل أطول . .

والفيلسوف الفرنسى سارتر أعظم من الفيلسوف فولتير

وشكسبير أعظم من يوربيدس . .

ونبوتن أعظم من فيثاغورس .

والعقاد أعظم من أبى حيان التوحيدى وطه حسين أعظم من ابن العميد . .

وإن كان المستشرق الإنجليزى أدوارد لين عندما جاء إلى مصر فى القرن الماضى قال : إن الموسيقى المصرية الشعبية الصافية أروع من كل الموسيقى الغربية !

وأذكر أننى فى بداية حياتى الصحفية ذهبت أزور أحد علماء النفس المصريين وجلست إليه طويلا . . ولكن شيئا باهرا وقفت إلى جواره لكى أظهر فى صورة أنشرها مع مقال . وكانت الصورة لفرن بوتاجاز . . ونشرنا الصورة . ومعنى ذلك أنى ورئيس التحرير وكل المحررين لم نرمثل هذا الاختراع العظيم . . ولكن عندما ذهبت بعد ذلك إلى قاعدة إطلاق الصواريخ فى أمريكا لم ألتقط صورة . . فهى ليست شيئا جديدا فالملايين قد رأوها ولم تعد تلفت نظر أحد . . والفرق بين البوتاجاز وقاعدة الصواريخ لايزيد عن عشرين عاما !

(٤)

فما الذى حققه الإنسان فى العشرين سنة التى تلت ذلك فى المواصلات والمعلومات . فالإنسان كما يقول فيلسوف التاريخ اشبنجلر هو الحيوان الذى يصنع أدواته . . بفضل أصابعه القادرة على تطوير كل شىء !

وقد رايت في تايوان كيف استخدموا الهندسة الوراثية في تحويل ريش
الاوز الأسود إلى ريش أبيض . . وزيادة حجم وطول وعرض الأسماك . .
وتغيير سلوك الجمبرى الذى كان يخرج إلى المياه الدولية فيلتقطه الصيادون
اليابانيون - وهذا حقهم . فاستطاع علماء تايوان أن يجعلوا الجمبرى يلف
ويدور في داخل المياه الإقليمية ليدخل الشباك التى أعدوها له !

وعن طريق الهندسة الوراثية سوف يتغير سلوك الإنسان والحيوان
والنبات . . وسوف نكتشف الجينات genes التى تؤدى إلى ألوف الأمراض
الجسمية . . وإن ما فعله الفرنسيون أخيراً من رسم خريطة لهذه الجينات
وترتيبها داخل الخلية يعتبر من أعظم الإنجازات العلمية في هذا العام . .
وسوف يعيش الإنسان أطول وأصح وسوف يقاوم المرض ويقاوم
انعدام الوزن في المدن الفضائية الجديدة . . التى ستقام قبل نهاية القرن
حول الأرض . . وسوف يعيش الإنسان تحت قشرة القمر وقشرة المريخ . .
وسوف تبقى الطبيعة الإنسانية كما هى دون تغيير كبير . .

ومن منا لم يضحك عندما قرأ رحلة الرحالة النرويجي تورهايردال
(ع ٢) عندما التهت جلود البحارة بسبب الشمس والملح . فأمر
الطبيب الروسى بان يتبول الجميع بعضهم على بعض . فهذا هو العلاج
الوحيد . وكان العلاج . . وهى عادة ما تزال مستخدمة بين سكان
الصحراء حتى اليوم !

من يدري ربما استطاع الإنسان أن يتغلب على مشكلة الانتقال من
مكان إلى مكان . . فلا تزال سفن الفضاء لكى تتغلب على جاذبية
الأرض يجب أن تنطلق بسرعة ثمانية كيلو مترات في الثانية . . ولا تزال
السرعة المطلقة هى سرعة الضوء ١٨٦ ألف ميل في الثانية . .

ولو استطاع أى انسان وهو احتمال بعيد جداً - أن تكون له سرعة
الضوء إذن لاستطاع الإنسان أن يحقق المعجزة وهى أن تتحول الطاقة إلى

مادة . . فنحن لا نعرف الآن إلا أن المادة تتحول إلى طاقة حرارية أو ضوئية . . ونحن نجرب ذلك في كل لحظة . . عندما نشعل عود كبريت . . نحن نحول المادة إلى طاقة . . ولكن إذا حولنا نار الكبريت إلى عود كبريت ، فإننا نستطيع أن نحول جسم الإنسان إلى طاقة ننقلها في الفضاء ثم نعيدها مادة في مكان آخر من الكون ؟ !

وحتى لو نجحنا في ذلك فالكون ما يزال واسعاً شاسعاً عميقاً مجهولاً . . فأقرب الكواكب إلى مجموعتنا يحتاج الوصول إليها إلى ألوف السنين .

وعلى أيام نيوتن كنا نرى أن الكون هندسة صارمة . وأن الله هو أعظم مهندس . أو أنه هو الرياضى الأول . .

وفي عصر اينشتاين ظهرت النسبية وكاد الناس يكفرون أو كفروا مع أن هذه النظرية لها علاقة فقط بالكون الذى له بعد رابع هو الزمان . . وإن الزمان مثل الضوء ينكسر وينحني . . تماماً كما تلقى بتفاحة فوق مخدة . فترى التفاحة فوق تجويف ، هذا التجويف هو انحناء الزمان ! ومن الصعب أن نتصور ذلك ، ولكنها الحقيقة . .

وظهرت نظرية أخرى هى عدم اليقين للفيزيائى الألمانى هيزنبرج . . ومعناها أن في الكون قوانين أخرى لا نعرفها . وأن هناك قوانين ضد القوانين أو لا تخضع للقوانين . وأن هناك الكثير الذى لا نعلمه . فما الذى سوف يحققه الإنسان في مائة سنة أو ألف . .

فلوفرضنا أن عمر الكون سنة ، ٣٦٥ يوماً . . وأن الله خلق الكون في الثانية الأولى من الدقيقة الأولى في الساعة الأولى من اليوم الأول من يناير ، فإن ظهور الإنسان العاقل كان في الثانية الأخيرة من الدقيقة الأخيرة من ليلة ٣١ ديسمبر . . والإنسان في هذا الفترة القصيرة جداً قد

حقق الكثير الرائع في كل فروع المعرفة . . فالكون عمره ١٥ ألف مليون سنة . . والإنسان عمره أربعون ألف سنة . . وقد حقق المعجزات في الأربعين عاما الماضية . .

(٥)

وكان الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان يتمنى أن يولد عند نهاية العالم ليرى ما الذى حققته البشرية . . مع أنه لم يكن له إلا مشكلة واحدة هى : كيف يستطيع إنسان أن يحب زوجته عامين متواليين ؟ !

مع أن حلها بسيط هو ألا يتزوج . . أو يقتل نفسه أو زوجته من أول يوم أو أول عام . .

ثم إن فى الأدب والفن فى كل الشعوب ما يدل على عمق وصدق هذه المشاعر . .

ورغم أننا نعرف صعوبات العلاقات الإنسانية ، إلا أننا لانهرب منها ولا نهرب من أنفسنا . . تماما كما أننا أصبحنا نعرف أن القمر جسم بارد . ولكن من الذى لا يحب النظر إليه والتغنى به اليوم وغدا . .

ومهما كبر الإنسان واتسعت آلامه ؟ وزادت همومه ، فإن نظرة إلى زهرة وعيني طفلة قادرة على أن تعيده إلى صفاته وبقائه . . لحظة . . لحظتين . . هما كل ما فى الإنسان من عظمة . .

يقول الشاعر العظيم برتولت بريشت :

(٦)

وإن البحث الآن عن سفينة نوح فوق جبل أراتات لدليل على أن الإنسان يحلم بالنجاة . . بسفينة . . برسول عنده نظرية تنقذنا من أنفسنا على هذه الأرض أو على الكواكب الأخرى !

ولكن سوف تبقى مشكلة هامة : زيادة عدد السكان .
والهندسة الوراثية هي القادرة وحدها على الحل . ما دام الإنسان عاجزا عن ضبط نفسه . .
وكانت الأساطير الافريقية ترى أن الحل الوحيد : هو أن يعيش الرجال في جزيرة والنساء في جزيرة . .
أو أن يقطع النساء أنداءهن حتى إذا اضطرن إلى الحمل والولادة لم يجد الأطفال لبنا تعيش عليه . .
وكانت عند الإغريق جزيرة اسمها ديلوسى قد حُرمت فيها الموت والولادة . فلا يولد فيها طفل ولا يموت فيها أحد . . فالذين يولدون كالذين يموتون يذهبون إلى جزيرة بعيدة . والطريق إليها قاتل أيضا . .
أو تلجأ الهندسة الوراثية إلى نقل صفات بعض الحشرات إلى الإنسان فأنتى العنكبوت تأكل الذكر أثناء اللقاح . . . وتستطيع أن تفعل ذلك ٢٥ مرة من كل يوم ؟ !
وهكذا تقضى على معظم الذكور . .
ثم تنتقل هذه الصفات إلى الرجال ليأكلوا النساء . . وهكذا تختصر الإنسانية نفسها . . لبعض الوقت ليعاود التكاثر في كوكب والاختصار في كوكب . . وتستمر الحياة أفضل وأعلى وأسمى . . ولا بد أن تستمر .
ويزداد يقين الإنسان وإيمانه وتواضعه أمام عظمة هذا الكون الذى هو صورة متواضعة جداً جداً لعظمة الله !

(٧)

فلما كانت الليلة الخامسة عشرة من (ألف ليلة وليلة) رأينا صورة مفزعة لمطاردة الشر ومطاردة الموت . . وإصرار الحياة على أن تستمر .

وإصرار الانتقام على أن يمضى حتى النهاية . . ثم هذه الثورة الكيميائية الهائلة عندما تتحول الأشياء والناس والحيوانات بعضها إلى بعض . . وهى تلك القدرة التى يحلم بها الإنسان . . فتكون المادة طيعة بين أصابعه . . تماما كما صورتها أساطير الإغريق ، فقد كان الآلهة يتحولون إلى حيوانات ونباتات كما يشاءون وكان آلهة الإغريق يفعلون ذلك بسبب الملل : الحياة الأبدية الهادئة المستمرة التى ليس فيها تغيير ، لأن التغير من صفات الذين يولدون ويموتون . . أى من صفات البشر . . وكانوا يحسدون البشر على هذه النعمة : نعمة أن يولدوا وأن يموتوا . .

ففى هذه الليلة الخامسة عشرة من (ألف ليلة وليلة) نجد العفريت وقد اتخذ شكل الأسد يحاول أن يلتهم بنت الملك . . ولكن هذه الأميرة التى لها قدرات العفريت وأكثر ، تنزع شعرة من رأسها فتكون الشعرة سيفا وضربت به الأسد فانقسم نصفين . وانقلب أحد النصفين عقرباً . فتحولت الأميرة إلى أفعى تطارد العقرب . . فانقلب العقرب صقرا . فانقلبت الأميرة نسرا . . ثم صار الصقر قطا أسود ، فانقلب النسر ذئبا . وانقلب القط الأسود وصار رمانة حمراء فى بحيرة ماء ، فاقرب منها الذئب فطارت فى الهواء ووقعت على الأرض فانفردت ، وانقلب الذئب ديكاً يلتقط حب الرمان . . وراح الديك يصرخ ويقفز فى كل مكان حتى وجد الحبة فانقض عليها فسقطت الحبة فى الماء فتحول الديك حوتاً وانقض عليها وغابا تحت الماء ثم تحولت الحبة عفريتاً كما كان ثم شعلت من النار التى تخرج من فمه ومن عينيه ومن أنفه . . وتحولت الأميرة هى الأخرى إلى نار . . ثم صار العفريت كومة تراب ، وتحولت الفتاة هى الأخرى إلى كومة تراب !

ففى هذه القصة كل صور الدمار والخراب وأشكال الموت . . والنهاية الواحدة لهذه الحرب انه ليس هناك غالب ولا مغلوب . .

والقرآن الكريم أكد لنا أن العلماء أعظم قوة من العفاريات . . كما
جاء في حكاية الملك سليمان وبلقيس ملكة سبأ . عندما طلب الملك
سليمان من العفريت أن يأتي له بعرشها . قال تعالى :

(قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك)

وقال تعالى :

(وقال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إلى
طرفك)

فصاحب العلم أقوى من العفريت . والعلم الحديث والذى يزداد
قوة أصبح يتجاوز بقدراته كل خيال للإنسان في كل العصور . .

(ومؤلفو ألف ليلة) لم يدركوا روعة هذه القصة التى ألفوها ، وإنما
انشغلوا بتلفيق أبيات من الشعر لها دلالة أخلاقية . . فالشعر ركيك
المعنى والمبنى . . أما الحكاية فتحفة فلسفية . . أما الابيات التى حشروها
حشراً فتقول :

تخبرت والرحمن لاشك فى أمرى

وحلت بى الأحزان من حيث لا أدري

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى

وأصبر حتى يقضى الله من أمرى

سأصبر مغلوباً بغير توجع

كما يصبر الظمان فى السـزمن الحر

وما أحسن الصبر الجميل مع التقى

وما قدر المولى على خلقه يجرى

سراثر سرى ترجمان سريـرتى

إذا كان سر السر سر ك فى سري

ومن قال إن الدهر فيه حلاوة

فلا بد من يوم أمر من المر

ولكن المأساة أكبر من هذا التلاعب بالألفاظ ومن مجرد الحزن على ما كان والخوف مما سيكون . .

فالعلم هو وحده الذى يجدد أشكال الألم والمرض ، وهو وحده الذى يجدد أشكال العلاج والصحة . . والعلم هو الذى يجدد أسلحة الدمار وهو وحده الذى يجدد أسلحة الوقاية منها . . والذى يئذ الأرض بالألغام ، والذى يجعل الألغام تزهر وتثمر سلاما وحبا بين الناس . .

ولو خرج رفاة الطهطاوى اليوم من قبره وسار فى شوارع باريس مرة أخرى لبهره الذى يرى . . وربما بهره شىء آخر غير المرايا التى بهرته عندما كان طالباً فى باريس وغير فساتين السيدات . . فقد كان الطهطاوى يمر على المقاهى ويندهش كيف أن صور المشاة فى الشارع قد انعكست على المرايا . . فبدت المقاهى واسعة كأنها ميادين . . وكان الطهطاوى يضع يده إلى جوار المرايا فيجد أن صورة يده ولونها لا يختلفان عن شكلها ولونها الحقيقى . . وكان يقارن بينها وبين مرايا مصر التى تجعل الإنسان مرة مقعراً ومرة محدباً وتجعل لونه أصفر أخضر ! .

فماذا لو رأى التليفزيون وسفن الفضاء وأرض القمر وأجواء المريخ والهالات الغازية حول كوكب المشتري الذى هو أكبر من الأرض ١٥٠٠ مرة . . ثم رأى الإنسان يهبط على القمر ويصعد منه ليعود سالماً إلى الأرض ؟ ! .

إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يصنع أدواته . . إن الإنسان قد وجد لكل مشكلة حلاً ، كما أنه وجد لكل حل مشكلة ثم وجد لها

حلا . . وكل خطوة نخطوها لها ثمن من دمنا ومن راحتنا . . ولا يتردد الإنسان لحظة واحدة في أن يفعل ذلك . وسوف يفعل دائما حتى لو لم يكن هناك أمل في الذي يفعله . .

الرسول عليه الصلاة والسلام قال لنا ما معناه : حتى لو قامت القيامة يجب أن تزرع شجرة .

المهم أن تزرع الحياة في وجه الدمار . أن تزرع الحياة في وجه الموت . . أن تغرس الدنيا في يوم القيامة . . أن تزرع في أى أرض . . المهم ألا تتوقف عن العمل وعن الأمل وعن إضافة شيء إلى شيء آخر . .

والإغريق عباقرة العذاب حدثونا عن أسطورة الفتى سيزيف . . فقد كان محكوما عليه بأن يدفع أمامه حجرا إلى أعلى جبل ، ويتدحرج الحجر إلى السفح فيعود سيزيف يدفعه إلى الأبد . . وكان يفعل ذلك بمتهى الهمة والحماس . . كأن لهذا العذاب نهاية . . والحقيقة أنه عذاب بلا نهاية . .

وإذا كان آلهة الإغريق يريدون أن يعذبوا سيزيف بالتعب المستمر والملل الأبدى والياس المطلق فإنه يعمل كأنه لا يمل وكأن هناك نهاية . . ويعدها يحىء الخلاص من هذا العذاب . .

ولكن سيزيف كان يغيظ الآلهة ، فلا هو قد تعب كما أرادوا ، ولا هو قد مل كما شاءوا ، ولا هو قد أحس بالعبث والضياع واللامعنى الذى فرضوه عليه . . فهو لأنه كان يعمل كان لكل شيء معنى وقيمة وهدف ونهاية !

والفلاح المصرى كان يبنى الجسور التى يهدمها الفيضان ثم يعود يقيمها ليهدمها . . ويعود إلى ذلك ألوف السنين . .

وأهل بيروت رغم قنابل الحرب الأهلية والمدافع التى حطمت واجهات محلاتهم الزجاجية كانوا يصلحونها ويجعلونها من زجاج

أيضا . . إنهم أحفاد (سيزيف) لأنهم لم يعرفوا القرف والملل واليأس
الذى هو درجة من درجات الموت !

وكذلك الإنسانية لم يدفعها ما صنعت يداها من دمار إلى أن تقطع
يديها وذراعيها وساقها ولسانها وتنسف عقلها . . وإنما الإنسانية بكامل
قواها العقلية تحطم قواها العقلية . . تماما كالذى يدخل إحدى الحانات
بكامل قواه العقلية ويشرب ويشرب لينفد قواه العقلية ويعود ليفقدها
كل يوم وبمتهى الوعى والحرص على ذلك . .

فالإنسان المخمور بالحرب والدمار هو نفسه الذى يحرص على أن
يكون مخمورا بالسلام والحب . . فإذا كان الإنسان حريصا على
الانطلاق لكى تتسع الدنيا أمامه وتحت قدميه وفوق رأسه وتحت جلده
وفى خلاياه ، فإن هذا الإنسان سيظل دائما سجيناً فى جلده ، حبيسا
بقيود طبيعية . . وسوف يجلس دائما كالكانجرو على ذيله . . وذيل
الإنسان هو تاريخه . .

هات أعظم العلماء وأعظم الأبطال وحاول أن تغرس فى جلده دبوسا
سوف يصرخ كأنه طفل . . مع أنه هو الذى استوعب الدنيا فى دماغه . .
وهو الذى احتوى الكون . . ولكنه رغم هذه العظمة العقلية ، فإنه
ضعيف صغير . . محدود الأمل والأجل . . محدود الطاقة . . والإنسان
إذا ألقى طوبة بكل قوته فسوف تبعد عنه عشرات الأمتار . . ولكن
بعلمه بعث بسفن الفضاء إلى مئات الأميال . . وعن طريق مرصده ،
الفضائية رحل إلى ألوف ملايين السنين الضوئية . .

هذا هو الإنسان كان وسوف يبقى صغيرا بجسمه ، جبارا بخياله
وقدراته . .

وليس الأدوات التى صنعها الإنسان إلا تطويراً عبقريا لأطرافه
هو : لعينه ويديه وساقه وعقله وأذنيه . . فكل تطبيقات علوم
التكنولوجيا ليست إلا أطرافاً صناعية للإنسان . وتطورا لانهايا لها . .

ولا تزال حكاية المفكر الأمريكي امرسون درسا وموعظة ورمزا لكل ذلك . . فقد كانت له مزرعة . وفي المزرعة حظيرة للأبقار وحاول أن يرغم عجلا صغيرا على أن يخرج من الحظيرة وعاونوه أولاده ولم يستطيعوا . فطلبوا من خادمة لهم أن تحاول لعلها تفلح في الذي عجز عنه المفكر الكبير وأولاده . واستطاعت . . فقد دخلت الحظيرة ووضعت أصابعها في فم العجل الصغير . . فأحس كأنها أئداء أمه ، وخرج طائعا ذلولا ذليلا . .

ووقف امرسون مبهورا ونظر إلى مكتبته قائلا : لم تفلح كل هذه الكتب في أن تعلمنى كيف أخرج عجلا صغيرا من حظيرته . . إننى أعجب للذين يجدون حلا !

فالكتب هى العلم العظيم ، وعدم خروج العجل هو التحدى لقدرة الإنسان فما أصغر الإنسان أمام العجل ، وما أروع وأعظمه أمام الميكروب والذرة وتحويل المعادن بعضها إلى بعضها . . وتوليد وتخليق ما لانهاية له من الأدوات والمعلومات والطموحات من أجل الحياة . . الحياة الأصح والأقوى والأوسع والأعمق والأشمل على هذا الكوكب أو على الكواكب الأخرى . بين المجرات . .

وإذا كنا في خمسين عاما قد وصلنا إلى بلوتو أبعد كواكب المجموعة الشمسية . . فما الذى سوف نفعله عند نهاية القرن القادم وعشرة آلاف قرن آخر ؟ . .

ذلك ما لا يستطيع عقل أن يتخيله أو يستوعبه !

رغم أن الإنسانية لم تعرف السلام إلا سنوات قليلة والحروب معظم الوقت ، فإن الإنسان مازال حيا يتقدم ويتطور وينى الأرض ويهدمها ويصعد إلى الكواكب الأخرى بكل عيوبه على الأرض وبكل صفاته العبقريّة . .

والمؤرخ الأمريكى ول ديورانت قال لنا فى سنة ١٩٥٨ انه فى الـ
٣٤٢١ عاما التى مضت لم نعرف فيها السلام الا ٢٦٨ عاما فقط !!

ولكن عرفنا السلام ، وتذوقنا الحياة وحرصنا عليها . . وطورناها
وسوف نحرص على كل خطوة إلى الأمام

وسوف نمضى مهما كان الثمن للسيطرة على ما حولنا من القوى
الطبيعية . . لا السيطرة التامة ولكن بعض السيطرة التى نجعلنا قادرين
على أن نتقدم ونتوقف ثم نقفز مرة أخرى وهكذا . . فما أبعد الزمن
الذى اكتشف فيه الإنسان النار - وكان ذلك الاكتشاف انقلابا عظيما . .
لأنه خلق النار والنور معا . . خلق الطاقة وأطال الليل . . وتطورت
أشكال النار وحجمها وقدراتها الهائلة . وفى نفس الوقت تطورت
أدوات وأجهزة التحكم فى النار والنور .

وآخر أشكال النار هى التى اخترعها الروس العام الماضى حين
وضعوا مرايا فى سفن فضاء تدور حول الأرض وعكست ضوء الشمس
على مدن أوروبا فأضاءتها وكان ذلك حدثا جليلا مضى دون حفاوة من
أحد . .

فالروس الذين لا يجيدون ما يأكلونه الآن ، قفزوا بهذا الاختراع إلى
السماء . . إنها العقول العبقريّة رغم المعدات الخاوية . .

ربما كانت المسافة بين أول نار ونور اخترعها الإنسان ، وبين هذه
المرايا العاكسة من مدار حول الأرض أربعين ألف سنة . . أو حتى مائة
ألف . . ولكن هذه المسافة الزمنية ليست إلا لحظة صغيرة فى تاريخ
الإنسان على الأرض الذى عمره أربعة آلاف مليون سنة . . وفى الكون
الذى عمره ١٥ ألف مليون سنة . . والإنسان الذى ظهر متأخرا جدا
على سطح الأرض !

ولانهاية لما سوف يحلم به ويحققه الإنسان !

أنيس قنصلو

لماذا يكرهون اليابان؟

العالم كله يتفرج على عجائب الصناعات اليابانية ويريد أن يفهم . .
أو أن يعترف سر هذه العظمة العلمية والصناعية . . ولكن اليابانيين
يضحكون دائما ولا يقولون شيئا . ويكون هذا السكوت دافعا قويا لأن
يحاول العالم أن يفك طلاسم التقدم العلمى الباهر لشعب فى المائة سنة
الماضية . .

فما هى المعجزة اليابانية ؟

بالضبط ما هذا الذى حققته اليابان / ألمانيا الآسيوية ؟

كيف أن شعبا بدأ تطوره وحركة تنويره معنا ، نحن المصريين ، ثم هو
يتقدمنا وغيرنا من شعوب العالم مئات السنين . . كيف فعلها ؟ ولا يزال
يتقدم الشعوب الأوروبية والأمريكية . . إن اليابانيين لا يقولون شيئا . ولا
يعترضون على أى شىء يقال عنهم . .

يقال إن المعجزة اليابانية : هى الصبر . .

ويقال : إنه التماسك العائلى . . فالشركة أو المصنع هو عائلة يعيش
فيها كل واحد ويموت ولا يخرج منها ولا يخرج عنها . . فالعامل الذى
يعمل فى إحدى الشركات ، لم يحدث أن تركها أو فصلوه منها . . وإذا

حدث فإنه لا يذهب مطلقا إلى شركة منافسة . . ولم يحدث أيضا أن قبلت شركة منافسة عاملا أو مهندسا كان يعمل في شركة أخرى . . فهو - إذن - يولد ويعيش ويموت في شركة واحدة : هى التى تعلمه وتزوجه وتعالجه وتزوج أولاده وأحفاده . .

ولا يستطيع أى إنسان فى العالم أن يكون له مثل هذا السلوك اليابانى . . ولا يطبق أحد هذه (التبعية) المطلقة لشركة أو لمصنع . ولكنهم فى اليابان يقبلون ذلك ولا يرون غيره . فهل هذا هو سر العظمة اليابانية ؟ . . إذن فما سر العظمة الألمانية . . ماسر الشعب الذى مسح به الحلفاء الأرض وما تحت الأرض فقام جبارا قويا عتيفا . . أعظم وأروع من الروس والأمريكان والإنجليز والفرنسيين الذين احتلوه وأهانوه وأذلوه !

لقد احتج ١٤ ألف أستاذ فى علم النفس الاجتماعى والصناعى فى العام الماضى . والتفتوا إلى الدنيا من حولهم . واتخذوا قرارا . القرار : إن العالم كله يكره الشعب اليابانى . هذه حقيقة . يعجب به ولكن لا يحبه . السؤال : لماذا يكرهنا العالم كله ؟

هذه هى القضية التى التف حولها كل أساتذة علمى النفس والاجتماع وخبراء الصناعة والزراعة والتجارة والإعلان . .

والمطلوب هو معرفة : لماذا ؟ !

يتساءلون هل لهذه الكراهية ما يبررها ؟ وإذا كانت الكراهية لأسباب حقيقية ، فكيف نكسب العالم الذى خسرنه . . وهل يستطيع الشعب اليابانى الذى أكد عبقريته فى إيهار الناس وغزو الأسواق وخراب بيوت كثير من المصانع المنافسة لليابان . . هل هذا الشعب يستطيع أن يكون عبقريا فى محبة الناس - أى فى جعل الناس يحبونه . . هل تستطيع اليابان أن تخلق الحب لها فى العالم . . هل يمكن (تخليق) الحب . . هل يمكن تصنيع الحب لكل ما هو يابانى . . وكم يتكلف الحب ؟

أما الكراهية فقد كلفت الشعب اليابانى عرقا ودموعا ودماء وموتا مائة عام وزيادة . . فهل اليابان فى حاجة إلى مائة سنة أخرى لكى يكون حجبها عالميا كما أن الإعجاب بها عالمى أيضا ؟!

فاليابان أرض ضيقة وأناس كثيرون . . وليست فى بلاد اليابان موارد طبيعية . . ربما كان الماء المحيطات ، وقد استخرجوا منه السمك واللؤلؤ . . أما اللؤلؤ فقد اخترعوا له حلا سريعا لنموه . . فبدلا من أن ينتظروا قواقع اللؤلؤ تنمو فيها حبات اللؤلؤ سنة بعد سنة . . إلى خمس سنوات . . فإنهم وضعوا فى داخل محارة اللؤلؤ نوعا من الكرات الصغيرة المصنوعة من محارات أسماك أمريكية . هذه الحبات الصغيرة يحىء حيوان اللؤلؤ ويفرز حولها المادة الفضية فى سنة . . أو أقل . . وهذا هو اللؤلؤ المزروع . . وقد كنت أول عربى يرى مزارع ومصانع اللؤلؤ سنة ١٩٥٩ فى مدينة توبا . . وقد تطورت زراعة اللؤلؤ فهم الآن يتحكمون فى حجمه وفى لونه . . ودرجة شفافيته . . ولا يملك حيوان اللؤلؤ إلا أن يطيع . . وقد ابتكر هذه الطريقة البسيطة العبقريّة رجل اسمه ميكو موتو . . وهو اسم على أكبر محلات ومزارع اللؤلؤ فى العالم . .

أذكر أننى قابلت أحد أحفاده فى طوكيو وأبدت إعجاباً ساذجا بزراعة اللؤلؤ ، فكان الحفيد ينحنى ويتراجع ويشير بيده إلى الوراء . . ولم أفهم معنى الانحناء مع الإشارة . أما الانحناء فهو الأدب اليابانى التقليدى فى الشارع وفى البيت وأنت تتناول العشاء مع أى أحد . . أما الإشارة باليد فهى إلى تمثال مصنوع من حبات اللؤلؤ لجده السيد ميكوموتو . .

وقد برع اليابانيون فى كل شىء كما برعوا فى زراعة اللؤلؤ . . أخذوا من أوروبا وأمريكا وطوروا وأضافوا وأبدعوا . . ونافسوا كل الدول التى سبقت اليابان فى كل هذه الصناعات . .

فالأمريكان - مثلاً - اخترعوا الترانزستور واليابانيون طوروه وجعلوا سعره أرخص ولا نهاية لأشكاله وألوانه . . وقاموا بغزو شامل كاسح لكل أمريكا وأوروبا . . وكذلك التليفزيون والمسجلات والساعات والكاميرات والعدسات والسيارات . . والآن سفن الفضاء والصواريخ . . وأدوات التجميل والموضات وكل الأجهزة الطبية والألكترونية . . الخ .

ولايزال علماء النفس يبحثون ويتساءلون إن كان هذا هو السبب في كراهية الناس لهم . . أى كراهية الناس لمن يعيش معهم تحت نفس السماء وفي نفس المحيط وفجأة يسبق الجميع سرا ودون أن يدري أحد كيف حدث ذلك ؟

فكيف كانت البداية ؟

البداية كانت معنا . . فعندما كان رفاة الطهطاوى ومن بعده على مبارك يدرسان في فرنسا ويترجمان الدستور الفرنسى والنظريات الاجتماعية والسياسية ويقارنان بين حضارة الإسلام وحضارة المسيحية وينقلان كل ذلك إلى مصر وفي حالة انبهار أدبى وفكرى ، كان اليابانيون يرتادون أوروبا وأمريكا بحثاً عن سر تقدم الغرب لكى يتقدموا مثل الغرب ويتقدموا على الغرب أيضا . . لقد كانت ثورة !

والثورة اليابانية هى الثورة الوحيدة في تاريخ الإنسان في كل العصور التى قامت وتحققت دون إراقة دماء . . الثورة الفرنسية كان فيها إعدام وإحراق ودم . . والثورة الأمريكية عرفت الدماء والنار والدخان . . والثورة الروسية أعدمتم عشرات الملايين . إلا ثورة اليابان ، فلا قطرة دم واحدة . . ثم إنها ثورة بمعنى الكلمة : تغيير جذرى للنظر إلى الحياة . وأدوات الحياة . . وتعديل نهائى في مسار علاقات الإنتاج وشكل الإنتاج وقفرة بعيدة جداً باليابان إلى بداية خطط السباق مع الغرب وبمنتهى الجدية

والتركيز الشديد والتضحية اللانهائية . . كثير من العرق والدموع ولا نقطة دم واحدة !

وقد بدا كل شىء يتغير فى اليابان من حادثة واحدة . فوجىء أبناء طوكيو بسفينة حربية كبيرة . السفينة نزل منها رجل طويل أبيض أحمر . يرفع العلم العلم الأمريكى ويريد أن يتحدث مع أى أحد مسئول . فلم يتحدث إليه أحد . فهم لا يفهمون كيف جرؤ هذا الأجنبى على أن يلوث المياه المقدسة لليابان . ولما لم يجد القائد الأمريكى أحداً غادر المياه اليابانية ليعود إليها بعد عام - أى سنة ١٨٥٤ . ولم تكن سفينة واحدة وإنما أربع سفن وعلى ظهرها ٥٦٠ بحارا . يريد مسئولاً يتحدث إليه . . ويقدم إليه هذه الهدايا الكثيرة من فساتين السيدات والمجوهرات والأحذية والأطعمة الأمريكية . . ويريد أن تسمح اليابان للأسطول الأمريكى بأن يتزود بالماء . وإذا مرض أحد من البحارة ، فلتسمح له اليابان بالعلاج . . وهو فى نفس الوقت يطلب التبادل التجارى بين البلدين . . يبيع سلع أمريكية ويشتري سلع اليابان . . ومن حق الأسطول اليابانى - إن كان هناك - أن يذهب إلى الشواطئ الأمريكية ويتمتع بنفس المزايا . ووجد أحدا . واتفق معه . وغادر المياه المقدسة .

ولكن دهشة الشعب اليابانى لم تنته : السفينة وحجم السفينة . . وأجهزة السفينة وملابس الجنود والضباط وطعامهم . . وأدوات الأكل والشرب . . كل ذلك لم يكن قد رآه الشعب اليابانى . . ولا يعرف كيف الحصول عليه . . ولا كيف يصنعه لو تخيل لحظة أنه قادر على ذلك . . ولم تنته الدهشة . . ولم تنته الصدمة الحضارية . . كأن السفينة الأمريكية مليون لغم عائم انفجر فانفتحت رؤوس الناس وعيونهم وانطلق خيالهم إلى بعيد . ما هذا ؟ كيف هذا ؟ لماذا ؟ أين نحن وأين هم ؟ وكيف السبيل إلى هذه الحضارة الجديدة !

ولا يزال علماء النفس يتساءلون إن كان هذا الحادث العابر هو الذى جعل العالم كله يحقد على الشعب اليابانى وحسه المرهف وخياله اللانهائى الذى تأثر بحادث عارض فنار على القديم كله وابتدع الجديد ؟

ودخل الأمريكان والأوروبيون إلى بلاد اليابان وطلبوا معاملات ممتازة وذاق اليابانيون المر أشكالا ألوانا بسبب هذه الامتيازات — التى نجرعناها نحن أيضا فى مصر وفى نفس الوقت . .

وبسرعة أوفدت اليابان عدداً من المثقفين إلى أوروبا وأمريكا : ليروا ويفهموا ويعودوا لكى يعلموا الشعب اليابانى . . ذهبوا إلى أوروبا وعاشوا . ورأوا وكتبوا وفهموا وناقشوا وقرروا . . أما الذين ذهبوا إلى أمريكا فلم يبهرهم شيء هناك . فقط عندما حضروا إحدى الحفلات وجدوا الرجال يقفون أمام النساء . . ثم تنهض المرأة والرجل يلف يده حول خصرها وترقص هى وهو على أطراف الأصابع مع الموسيقى . . ساعة وراء ساعة . كان ذلك أعجب ما شاهدوا فى الدنيا . . كيف يتقارب الرجل والمرأة هكذا علنا ؟ كيف يعانقها علنا ويراقصها علنا ويتلامسان أثناء الرقص ؟ هذا ما لا يمكن أن يحدث فى اليابان . فالمسافة بين الرجل والمرأة كبيرة جدا . والكلفة لا يمكن أن تزول هكذا . . ولا المسافات . . أما كل الذى رآه فى أمريكا فيمكن تقليده وتنفيذه . . إلا هذا الرقص فيحتاج إلى عشرات السنين لتغيير سلوكيات وتقاليد اليابان . .

ولم يشغلهم الرقص كثيرا . .

ولكنهم عادوا ببرنامج عمل بسيط جدا . هو الثورة الحقيقية . . بل الثورة الوحيدة البيضاء الباهرة فى تاريخ الإنسان . لأنها غيرت كل شيء حتى وصلت باليابان إلى ماهى عليه الآن . . فماذا فعل هؤلاء المثقفون . .

أولا : استدعوا عددا من الإنجليز لكى يعلموهم صناعة السكك الحديدية والتليفونات .

ثانيا : وعددا من الفرنسيين ليصنعوا لهم دستورا جديدا .

ثالثا : طلبوا من الألمان أن يعلموهم بناء المستشفيات وصناعة الدواء .

رابعا : من الأمريكان أن يقيموا لهم المدارس ويضعوا لهم البرامج التعليمية . .

خامسا : طلبوا من الإيطاليين أن يعلموهم الرسم والنحت والموسيقى .

وجاء هؤلاء الخبراء إلى اليابان وأقاموا سنة وسنة أخرى . . وعلموا مئات اليابانيين . وودعهم اليابانيون بانحناء عميقة وامتنان عظيم . . ثم أقفلوا على أنفسهم المصانع والورش والمدارس . . وبدأت اليابان تغير حياتها وأسلوبها وموقعها على خريطة الدنيا . . وكفى أن نعلم أن اليابان هي أول دولة استخدمت اللاسلكى في الحرب سنة ١٩٠٤ - اللاسلكى الذى تعلمته من بريطانيا . . فقد رصدت اليابان حركات الأسطول الروسى الذى اتجه لضرب اليابان فى مياهها . . فرصدوا تحركات الأسطول الروسى والتقوا به حيث لم يكن يتوقع أحد . . وذلك بمتابعة الأسطول الروسى باللاسلكى . . أحرقوا ٢٧ سفينة روسية . وكان ذلك أعظم إعلان عن اليابان الجديدة . .

هذه هى كل أسرار النهضة اليابانية . . التنوير اليابانى . . لا أسرار ولا ألغاز . . وإنما هم أناس رأوا الغرب . ودرسوا وحلّلوا . وقرروا . وصمموا فكانت ثورتهم على أنفسهم فى كل شىء !

فهل هذا معقول ؟

نعم هذا هو المعقول فى الفكر اليابانى والثورة الجبارة الهادئة التى دفعت اليابان إلى الأمام فى كل المجالات . فى السلام وفى الحرب . . وفى الأرض

وفى الفضاء . . فغزوا كل الأسواق بلا منافس . . ولم ينافسها أحد إلا
تغلبت عليه . .

أليس من الطبيعى أن يكرهها العالم ؟ !

فكيف يكون طبيعياً أن يحبها العالم . هذا ما يبحثه منذ العام الماضى
ألف علماء النفس والصناعة والزراعة والطب فى كل الجامعات اليابانية
لعلهم يخرجون بوصفة جديدة للحب . . يمكن تطبيقها وتشريعها . . أى
المطلوب هو أن يضعوا (حجاب المحبة والقبول) للشعب اليابانى عند
العالم كله . فهل هذا ممكن ؟ اليابانيون يقولون إنه ممكن . ولا بد أن
نصدقهم . فالذى فعلوه فى كل المجالات يقنعنا بقدرتهم الفذة على صنع
المعجزات . . وإذا كانوا قد صنعوا المعجزات التى أوغرت عليهم قلوب
الدنيا ، فليس بعيداً أن يصنعوا ما يجعل القلوب تحبهم .

ممكن ؟ إنهم يؤكدون أن هذا ممكن !

كيف تتركه حفيدك وأنت لا تعرفه؟!

سألت توفيق الحكيم : ماهو الفرق بين إسماعيل ابنك وبينك ؟

فأجاب الحكيم : إسماعيل ابني عاش في زمن غير زمني . . لا هو أحسن ولا أنا أسوأ . . نحن مختلفان . . عندما كانوا يسألون الواحد منا : ماهو الشيء أو الحيوان إذا عبر البحر فإنه لا يبتل . . وكان جيلي يجيب : إنه العجل في بطن أمه . . ولكن جيل إسماعيل ابني يقول : إنها الطائرة ! والإجابتان صحيحتان . . فلا راكب الطائرة ولا الطائرة يبتلان إذا عبرا المحيط . . وكذلك العجل في بطن أمه لا يبتل إذا أمه خاضت إحدى الترع أو أحد المصارف . . ولا الحوت في بطن أمه وهى تعبر به المحيطات . .

المعنى واحد . . ولكن الأسلوب مختلف . . والاختلاف جاء من تطور الصورة أمام الإنسان . .

وقد حدث أن عقد لنا طه حسين اجتماعاً في مؤسسة فرانكلين عندما قرر طه حسين أن يصدر كتاباً عن الأدب الأمريكي فكان من نصيبى أن أكتب الفصل الخاص بالمسرح الأمريكي . . وأن يوزع بقية الفصول على

أدباء ومفكرين آخرين . فقد قرر طه حسين أن يترجم مسرحيات شكسبير إلى اللغة العربية الحديثة . ووزع علينا المسرحيات . وكان من نصيبى مسرحية (روميو وجوليت) وكان من نصيب ابنه د . مؤنس طه حسين أن يترجم مسرحية (هاملت) . . ولم يجرؤ أحد أن يسأل طه حسين إن كانت لغة ابنه مؤنس تساعد على الترجمة إلى العربية . . وأدرك طه حسين أن أحداً يريد أن يسأله عن ذلك . وكان لابد أن يجيب . . فقال طه حسين : مؤنس ابنى لن تكون لغته مثل لغة خليل مطران ولا لغة أنيس منصور . ولكن حساسيته الشديدة للغة الفرنسية والمسرح وحركات الأدب العالمى فى فرنسا تؤهله لأن يساعد من يتصدى للترجمة الحديثة لهذا الأدب القديم . . وأنا أرى فى مؤنس ما يراه الحكيم فى ولده إسماعيل . . إننا مختلفان متعايشان وأنا أقرب إلى الماضى فى لغتى ، وهو أقرب إلى الحاضر فى فكره . . فأنا أستطيع ما لا يستطيع وهو يقدر على ما لا أقدر عليه . . ولكننا نعيش معا تحت سقف واحد وفى زمن واحد ونتعاش مختلفين لمتعارضين ونقاسم كل شىء من استخدام السيف أو السكين . .

بالضبط ما قاله طه حسين هو ما يحدث فى كل جيل . . أو بين جيل وجيل . .

هناك فجوة . . مسافة . . ولكنها ليست هوة نزاع ولا هاوية صراع . . ويحدث دائما أن ينسى الآباء أنهم كانوا صغارا . . وينسى الصغار أنهم سوف يكونون كبارا يستنكرهم أبناؤهم . .

مثل موج البحر . . هذه الموجة تطفى وتكتسح الأمواج الصغيرة التى سبقتها إلى الشاطئ ، وفى نفس الوقت تطاردها موجة أكبر وهكذا إلى ما لا نهاية . . وهذا هو الزمن . . هو التاريخ . . موجات بعد موجات . . تضرب الشاطئ ولا ترحزحه . . فلا الشاطئ تحرك ولا الموج سكن . .

وإن كان هناك خلاف بين الأجيال . . فلأن كل جيل يرى أنه على صواب . . وما دام هو على صواب ، فهو وحده . . أما الجيل الآخر فهو خاطيء . . الصغار يقولون إن الكبار خاطئون . . وإنهم لا يفهمون . . والكبار يرون أن الصغار لم يدركوا ولم يفهموا بعد . .

وبدلاً من أن يقول الصغار إن تجاربهم أقل ومعارفهم لا ترقى إلى مستوى الباقين العلمى ، فهم يفسرون ذلك بشيء آخر . . وهو أن الكبار يكرهون الصغار . . ويحقدون على شبابهم وعلى أن المستقبل لهم . . أما الكبار فقد راحت عليهم . . وهم حريصون على ذلك ولا يطيعون أن يروا الذين لهم مستقبل . . الذين هم قادمون . . بينما هم ذاهبون . .

ولذلك يصبح التفاهم صعباً بين جيلين . . أى جيلين . . أى أب وابن وأية أم وابنة . . فى كل بيت وفى كل زمن . . وقصة نوح عليه السلام وولده . . هى قصة الأجيال الأزلية الأبدية . . الخلاف بين نوح وبين ابنه . . الأب يطلب منه أن يركب السفينة معه . . لأن نوحاً قد علم من الله لماذا صنع السفينة . . وإنها لنجاة نوح وأولاده . . ولأن الله يريد خلقاً جديداً . . وإن نوحاً هو (آدم الثانى) . . أى أبو البشرية الجديدة . . ولكن ابن نوح لا يعلم . . وإنما هو مخالف لوالده . . عنيد ولا يصدق . . لأن الأب أى الجيل القديم يكره الجيل الجديد . . فسوء الظن والشك والغرور دفع الابن إلى أن يلقي بنفسه فى الماء وأن يسبح إلى جبل يحميه من الطوفان . . ولم يصدق والده عندما قال له إنه لا توجد جبال . . ولن يعصمه شيء من الغرق إلا سفينة نوح . . ولكن الابن فضل أن يموت غرقاً باختياره على أن يعيش بفضل والده . . على أن يعيش ويمتن لوالده على ذلك . . فغرق ابن نوح . . ويغرق كل يوم ألوف الأبناء لأنهم لا يريدون اعتماداً على آبائهم ، ولا يريدون الامتنان لهم أيضاً . .

حتى الذين لا ينفصلون عن آبائهم ويعيشون على أموال آبائهم وفي بيوت آبائهم يؤكدون لأنفسهم : إنه رغم اعتمادهم ماديا على آبائهم ، فإن لهم أفكارا مستقلة . . ولهم حرية رأى . .

أى أنه يجلس فى حجر والديه وفى نفس الوقت يقول : وإيه يعنى ؟ فمن الواجب على والدى أن يقدم لى الطعام والشراب والمسكن . . وإلا مامعنى أن أتى بى إلى هذه الدنيا . . هل يكون سببا فى وجودى ثم يلقي بى فى الشارع . . إننى لم أطلب إلى أبى وأمى أن يأتيا بى إلى هذه الحياة . . ثم إنه ليس معنى ذلك أن يشترىانى بفلوسهما . . وأن يحكما ويتحكما . . فأنا حر . . وفى نفس الوقت فإننى على خلاف مع أبى وأمى . . لسبب لا دخل لى فيه . . فالألم لا تريد أن تكف عن (الأمومة) . . والأب لا يريد أن ينهى دوره كأب . . ولذلك فهما يتدخلان فى حياتى . . ويوصيان مالا أحب ولا أطيق . . وأنا لا أحب ذلك .

ومعنى ذلك أن الأبناء يرون أن الأب والأم مرغان على أن يقدم كل شىء . . بشرط ألا يتدخل فى حياة الابن . . يعنى يقدمان له الفلوس ويجب ألا يسأله أين ينفق هذه الأموال . . فهذا تدخل . وهذا التدخل اعتداء على الحرية . . ومعناه أن الطعام والشراب والمسكن والفلوس ليست إلا رشوة يقدمها الأب والأم لكى يتحكما فى الابن . . ولكى يسكت . .

والأب والأم يقولان : إن الأبناء يبتزونها . . فالأبناء يستغلون ضعف الأب والأم وجهما للأولاد أسوأ استغلال ويرون فى هذا الحب ضعفا وإذا أراد الأب والأم أن يمارسا الحب والعطف وأن يقبل الأبناء ذلك ، فليدفعوا الثمن . .

كان الشاعر كامل الشناوى يقول :

اشترى الحب بالعذاب

اشتره فمن يبيع ١٩

فالأبناء والأمهات على استعداد دائم أن يشتروا الحب بالعذاب وبالطعام والشراب والمسكن والاستسلام لعناد الأبناء . .

ثم يستغل الأبناء الخلاف بين الأب والأم . .

والمثل يقول : إن الأم تعشش والأب يطفش . .

أى أن الأم تحتضن الأطفال معها فعلوا لكى يبقوا فى البيت أو فى حضانة الأم . . أما الأب فلا صبر له وليس ضعيفا كالأم . . إنه قوى باطش . . ولذلك فالأبناء يهربون منه . . والأم هى التى تجمعهم . .

ولكن هذا الرأى ليس صحيحا . ربما كان الأب منطقيا ويريد أن يربى أولاده بشدة وصلابة . . ولكن الأم لأنها رقيقة القلب ، ولأنها لا تقوى على غياب الأبناء أو على مجرد زعلهم ، فإن الذى يرفضه الآباء علنا ، تنفذه الأمهات سرا . . فالأب إذا أعطى قرشا علنا ، فإن الأم تعطى قرشين سرا . . وهكذا تبدو الأم أرحم ، بينما يبدو الأب أعنف . .

ويختلف الأب والأم على تربية الأولاد . . وعلى المبادئ التى يجب التمسك بها . .

وتوفيق الحكيم له حكاية . . فقد طلب منه ابنه إسماعيل أن يشتري له جيتارا بدلا من الذى تحطم . . وكان ثمن الجيتار فى ذلك الوقت خمسة آلاف جنيه . . دفعها توفيق الحكيم . وكانت له شروط وهو أن يدفعها إسماعيل على شهور ، كل شهر مائتى جنيه . . واشترط الحكيم أن يأخذ على ابنه كمبيالات . . إذا دفع المبلغ أعطاه الكميالة . وكان يجلس فى مقعد عند أول كل شهر أمام غرفة إسماعيل . . ولا يذهب الحكيم إلى مكتبه ، إلا إذا دفع إسماعيل المبلغ وتسلم الكميالة . كل شهر . وفى يوم

سألت الحكيم فقال : إن إسماعيل يدفع بانتظام . ولا بد أن يفعل ذلك . . أن يعتمد على نفسه . . يأخذ ويعطى . ولم يحدث أن تهرب من ذلك .

وكان الحكيم سعيدا بهذا الانضباط والحق والواجب . وكان يروى ذلك على أن هذه هي التربية وإلا فلا . .

وسألت إسماعيل فقال ضاحكا : إن والدى ينتظرنى حتى أدفع . . ولكن لو نظر والدى إلى الفلوس التى أعيدها إليه بشيء من العناية لوجد أن هذه الفلوس هى لم تتغير من شهور . . فأنا أعطى الفلوس لأبى . وهو يعطيها لأمى ، وأمى تضعها فى جيبى . . إنه نفس المبلغ . . هاها . . هاها . . ومات إسماعيل يرحمه الله . . وفى جنازته سألت توفيق الحكيم : كيف حالك ؟

- حالى . . إننى كواحد أصيب بعاهة لا علاج لها ، وسوف أعيش بها ١١

ولكن توفيق الحكيم أراد أن يرسى قواعد الواجب والحق . . الابن له حقوق وعليه واجبات . . ولكن المسافة بين ضعف الأم وقوة الأب ينفذ منها الأبناء ويوسعونها حتى تكون فجوة . . وجفوة . . وقد يؤدى كل ذلك إلى طلاق . . إلى انهيار الأسرة فوق رؤوس الأبناء . . وتتفرق بهم الطرق إلى الحاضر والمستقبل . .

وإذا كانت الأم لا تعمل فهى وحدها التى تنفرد بالأولاد وتأمر وتنهى : فهى المدرس والطبيب ورجل الدين . . وهؤلاء الثلاثة ليست لهم شعبية عند الأطفال صغارا وكبارا . . وهؤلاء الثلاثة تقوم الأم بوظيفتهم ليلا ونهارا . وهكذا تصبح الأم مكروهة . . بعبء عند معظم الأطفال . .

اما الأب الذى يعمل فهو يحىء إلى البيت بعد العمل . وكلها ساعة أو ساعتان يأكل فيها ويشرب ويتحدث إلى أولاده خفيفا لطيفا . . لا يأمر ولا ينهى ولا يعاقب . . فيحب الأبناء الأب ولا يجبون الأم . . لأن الأب ليس عنده وقت . . والأم لا تتوقف عن النصائح والتحذير والسعيد . . فهم يرون في الأم كل السلطات التى تمسك العصا . . بينما الأب هو رسول السلام والرحمة يعطى ولا يعاقب ولا يهدد ولا يحذر ولا ينذر . .

حتى جاء دور المرأة فعملت . . فأصبحت هى والأب بعيدين عن الأولاد . . لا وقت عند احدهما للأبناء . . مع زيادة فى إرهاق الأم العاملة . . فهى تعمل كرجل خارج البيت . فإذا جاءت إلى البيت استأنفت كل العمل : تطبخ وتغسل وتكنس وتربى وتعلم وتعالج وتنصح . . بينما الأب يتمدد فى فراشه . . وإلى جواره وحوله الأبناء الذين لا يساهمون فى أى عمل . . تماما كالأب . .

وعندما دخلت المرأة دنيا العمل إلى جوار الرجل أصبح الأبناء أبناء شوارع أو سلام . . أو أبناء الخدم . . أو أبناء الحتة . . فلا وقت عند الأب ولا وقت عند الأم . . ولن تعود المرأة إلى البيت . . ولذلك سوف يبقى الابن بلا رعاية ولا حماية ولا وقاية . . إنه يعيش على هامش حب الأم ورعاية الأب . . وكل الأطفال كذلك . .

قال لى طفل فى إحدى دور الحضانة : إن الأطفال معى فى الفصل كل أمهاتهم مطلقات . . وكل واحد يقول لى : إنه لا يرى أباه إلا نادرا ؟ !
وأصبح مألوفنا جدا أن تعيش الأم مع أطفالها أو بعض أطفالها وبقية الأطفال مع الأب . .

ورأينا شيئا جديدا الآن وهو أن الأم لا تريد جميع أطفالها وتتركهم للأب عقابا له . . وفي نفس الوقت لأن الأم قررت أن تتزوج رجلا آخر ولا معنى لأن تعاقب الرجل الثانى بأولاد الرجل الأول . . وهى دوخة للأب الذى لا يفهم فى التربية . . والعقوبة لا تصيب الأب وحده ، وإنما الأولاد . .

ولم يعد قلب الأم يفتت على غياب أولادها . . ولم يعد قلب الأب حديدا ، وإنما هو قلب يتمزق ويلذوب دما على أولاده الذين هجرتهم الأم من أجل رجل آخر وأولاد آخرين . .

والضحية : الأطفال . . الذين سوف يكونون آباء جددا . . والذين سوف يحلمون بحياة عائلية أفضل . . ولذلك يتعجلون الزواج . ثم يجدون أنفسهم غير قادرين على الحياة الزوجية والأبوة . . وهى مشكلة جديدة تصيب الأطفال بسبب عذاب آبائهم عندما كانوا أطفالا . . فالأجيال تصب عذابها على نفسها . . جيلا بعد جيل بعد جيل !

فأنت لا تكره ابنك . . وابنك لا يكره ابنه . .

وأنت لا تكره حفيدك الذى لا تعرفه . .

وإنما هى أجيال تضغط على بعضها البعض . . وكل جيل له ظروفه الضاغطة والقاهرة أيضا . .

وكما يحدث فى سباق التتابع . . أن تعطى الشعلة للذى بعده . . والذى بعده يعطيها للذى بعده . . فإذا تعثرت أنت فى البداية ، وأدى ذلك إلى أن تأخر ابنك ، وفشل حفيدك . فأنت لا تقصد ذلك . . وإذا قال حفيدك إنك إنسان فاشل وأنت الذى فرضت عليه العذاب والهوان . فهو معذور إذا قال . . ولكنه ليس محقاً . وهو ليس على استعداد لأن يجد لك عذرا . . إنه يرى الذى بين يديه . . والذى بين يديه . . إنه لم

يصل . . بيننا وصل الآخرون . . ولذلك فهو غاضب على حظه الأسود . .
وأنت الأسود في هذا الحظ . .

ولكن الأجيال يجب أن تعرف العدل . وإذا عرفت العدل أن تعرف
الرحمة . وإذا عرفت الرحمة ، عرفت الامتنان . . امتنان جيل إلى جيل . .
وهذا مالا يحدث عادة . ومن هنا كانت كلمة الكراهية هي أكثر الكلمات
شعبية . . والكراهية تولد الحقد . . والحقد أبو الحرب والحرب أم الخراب
والدمار في هذه الدنيا . . والحرب أم لحروب أخرى وبأشكال أخرى
وبأسلحة أخرى !

لهم مجانين دائما ولا نحن عقلاء أبدا !

الإنسان يحاول دائما أن يتوافق مع الدنيا حوله . . مع الكون . . مع نفسه وغيره من الناس . . بين القديم والجديد . . بين الأمل واليأس . . الصحة والمرض . .

يحاول الإنسان أن يواجه العواطف والزلازل والمحيطات ويحاول أن يتوافق وأن يتغلب . . وأن يسيطر

أن يسيطر على البيئة وعلى الكواكب الأخرى . . وقد هبط الإنسان إلى القمر وهبطت الأقمار الصناعية على كل كواكب المجموعة الشمسية . . وأطلق سفناً إلى ما وراء المجموعة الشمسية . هذه السفن تحمل رسائل إلى كائنات أخرى عاقلة سوف تبلغها بعد ألوف السنين لعل أحداً أن يدري بنا وأن يحدثنا وأن يساعدنا على معرفة الكون وحل مشاكلنا . . أى أننا نريد أن نستفيد من تجاربه هو . .

وعلى الرغم من أن الإنسان هو الذى اخترع العقول الألكترونية ونقل إليها كل المعلومات والعمليات الحسابية المعقدة ، فإن العقل الإنسانى

يعتمد تماما على هذه العقول . . فهو أسير لها مربوط بها . . مع أنه هو الذى أبدعها . . ولا يوجد مكان ليس به عقل إلكترونى . . ولا سفينة ولا مكوك ليس به عشرات العقول الألكترونية . . وكل هذه العقول تعتمد على مئات العقول التى يتابعها وتوجهها من سطح الأرض . .

وهذه الحيرة التى تصيب الإنسان سببها الصعوبات الجديدة فى مواجهة الدنيا . . والمجتمع والكون . . وهذا القلق وهذا الخوف من الموت النووى . . قد أصابا الناس جميعا . .

والشبان أكثر الناس إحساسا بالحاضر وقلقا على المستقبل . . كل الشباب فى كل الدنيا . . والعالم لأنه أصبح قريبا بعضه من بعض . . فالذى يحدث فى أمريكا يخيف الذين فى الصين والذين فى الصين يزلزلون الذين فى أوروبا . . وأوروبا تزعزع الشرق .
وقد عايشت الشباب طوال عمرى . .

فعندما كنت مدرسا فى الجامعة كان الطلبة فى مثل سننى . . وبعضهم كان أكبر . . بل تصادف أن كان من تلامذتى واحد من أقاربى هو الذى علمنى حروف الهجاء وأنا طفل . .

وعندما اشتغلت بالصحافة كنت شابا . . وعندما رأست تحرير مجلة (الجيل) كان المحررون صغارا فى مثل سننى . . فكانوا مادتى العلمية .
فمنهم وعنهم أكتب وإليهم أيضا . .

وكنت دائما وسط الشباب . . وما زلت . . فهم مداد قلمى وألوان فرشائى . . وهم رؤيتى الفلسفية وهم عناصرى السياسية وجذورى الأدبية . . وعندما كنت رئيسا لتحرير (آخر ساعة) سنة ١٩٧٠ كان من بين المحررين تلامذتى فى الجامعة . . وكانوا شبابا أيضا . . وعندما أنشأت مجلة (أكتوبر) كان أكثر المحررين شبابا لم يعملوا بالصحافة من

قبل . . فكانوا زهورا يانعة لامعة شبابا يريد ويحاول ويصر على أن يصل
وأن ينجح . . ونجحت مجلة (أكتوبر) بحيوية شبابها وطموحهم
وأحلامهم وعنادهم . .

وأصدرت عددا كبيرا من الكتب عن الشباب وإليه . .

ولحسن حظ مصر فإن أكثر من نصف أبنائها من الشباب الكبار
والصغار . . تصور أن بلدنا بها ثلاثون مليوناً من الشباب . . أعظم ثروة
بشرية . . أروع قوة دافعة . .

والشباب من أهم صفاته : النزاهة والطموح . . فهو على خلق . .
ويريد أن ينجح . . وأن تنجح به بلاده . . وليس شباب مصر وحدها
الذى يريد أن يفعل شيئا وأن يحقق الكثير وأن يلحق بالدول الأخرى . .
وإنما هذه هى أحلام الشباب فى كل الدنيا . . ولأنه شباب فهو يتعجل .
ولأنه يتعجل فهو يغلط . . ولأنه يغلط فإنه يقع تحت ظلم الكبار . . فهم
يرون أنه مادام قد أخطأ فى الحساب ، فهو لا يعرف الصواب . . فالخطأ
احتكار للشباب ، والصواب احتكار للكبار . وهذا ظلم . فالذى يعمل
لا بد أن يخطئ وأن يصيب . وأن يتعلم من خطئه . والتاريخ الإنسانى كله
أخطاء الشعوب وهى تحاول أن تكون ثابتة الخطوات . . وإذا لم يقع الطفل
وهو يحاول أن ينتقل من مرحلة الزحف على أربع إلى السير على ساقين .
فلن يتعلم المشى والجري والرقص . لن تقوى عضلاته لن ينضج جهازه
العصبى . . لن ينتقل من مرحلة إلى مرحلة . . من الطفولة إلى الشباب إلى
الرجولة . وهذا حال الأطفال والرجال فى كل الدنيا . .

سواء كانوا يعيشون فى مجتمع زراعى أو صناعى . . أو مجتمع زراعى
يتحول إلى مجتمع صناعى . . فالطفل ينمو وفقا لبرنامج فى داخله ويتحرك
وفقا لبرنامج فى خارجه . . ينمو من الداخل لكى يواجه النمو فى
الخارج . . ويتوافق أو يتفوق عليه . . وهذا هو التاريخ الإنسانى كله . .

فمن أجل أى شىء يعيش الإنسان ، الإنسان الشباب والإنسان
الرجل؟

إن هناك أهدافا كثيرة تختلف من شخص إلى شخص . . وفقا لثقافته
وتقاليد بلاده وقدرته وسيطرة دولته عليه . .

ولكن من الممكن أن تقول إن هناك ثلاثة عوامل تتحكم في حياة
الإنسان . . أى إنسان هى :
الحب والفهم والإبداع . .

ومن أجل هذه الأهداف أو بسببها يعمل الإنسان من مولده حتى
مماته . . بهذا الترتيب أو أى ترتيب آخر . . ولكنها لا تنفصل بعضها عن
بعض . .

فكل شىء له قيمة يستحق من الإنسان أن يعيش من أجله وأن
يضحي في سبيله . وتاريخ الإنسان طريق وهدف وتضحية من أجل
الذى يجب كثيرا أو من أجل الذى يقدس . . وتكون التضحية بأعلى ما
عند الإنسان ، أو بحياة الإنسان نفسه . .

والحب هو الذى يجعل حياة الإنسان قيمة . حتى حبه للحيوان
والنبات .

والحب يأتى بالحب أيضا . .

فأنت تحب فتاة وحبك لها يجعلها هى أيضا تحبك . . فالحب
استثمار . . أنت تستثمره عندها ويكون لهذا الحب مردود . . حب آخر .
أو حب أكثر . أو علاقة قوية تربط بينكما . وقد يؤدى حبك للفتاة أو
حبها لك . أن تتولد عداوة لك . . أو فقد عليك . . وهذا هو الذى
يجعلك تتمسك وتصر وتضحي . .

والحب هو القوة الوحيدة التى تتغلب على أنانية الإنسان . . أى
تتغلب على انشغالك بنفسك والعمل من أجل كل ما يجعلك أكبر وأغنى
وأقوى . . لأن الأنانى هو الذى امتلأ بنفسه حتى لم يعد فى نفسه مكان
لشيء آخر . أو لإنسان آخر . . ولكن الحب هو القوة الوحيدة التى تفتح
قلبك أكثر ، وعقلك أوسع ، وتفسح مكانا فى قلبك لإنسان آخر ، وفى
عقلك لهموم أخرى وفى حياتك مكانا لإنسان آخر . . وتنظر إلى
مستقبلك بأربع عيون .

إن الحب قد حطم أنانيتك . . وهزم غرورك وانغلاقك على طموحك
وعداثك للآخرين . .

والحب : رغبة . .

وهناك نوعان من الرغبات : رغبة أن تعطى للآخرين .

ورغبة أن تأخذ من الآخرين . .

أما أن تعطى للآخرين ، أو تبذل من أجلهم فهى أن تشعر أنك
أسمى . . أنبل . . وأن العطاء واجب . وأن تعطى بلا مقابل . . لأنك
لواحد من الناس . . أو لكل الناس . هذا هو الحب الحقيقى لأنه يجردك
من أن تكون أنت وحدك مركز الدنيا . . .

الحب الحقيقى هو الذى يدفعك إلى معانقة الآخرين والانشغال بهم .
وأن تجد فى ذلك سعادة غامرة . .

وأن تضحى أيضا من أجل الآخرين . .

وهذه الصفة الكبرى عند الأنبياء والمصلحين . . وأساس التضحية هو
الارتباط بالآخرين لصالح الآخرين مهما كان العذاب بهم والشقاء معهم . .

فالحب هكذا علاقة شاملة . . حب الناس جميعا . . حب الدنيا . .
حب كل ما خلق الله . . حب الكون . . حب الله . .

أما الرغبة الأخرى فهي أن يكون كل شيء من أجل أنا . . وفي سبيل
أنا . . وفي مصلحتي وفي خدمتي . . فأنا أحب نفسي . وأرى أن حب
النفس هو أهم ألوان الحب . . وأن كل شيء يجب أن يكون مسخرا
لمتعتي . . وراحتي . . وأن الناس جميعا أدوات . . أدواتي . . كأنهم
أصابعي . . كأنهم أسناني . . أتناول بهم الأشياء . .

فهذا الحب يجعل من الإنسان أداة للإنسان . .

وهو أدنى درجات الحب . . بل إنه أقرب إلى الكراهية . . كراهية
الناس إلا إذا كانوا في خدمتي . . في مصلحتي . . إلا إذا كانوا متعتي .

وهذه الرغبة تجعل كل شيء طعاما وشرابا أتناوله . . فإذا أحب الواحد
منا فتاة هذه الفتاة ، (شيء) . . أداة . . وسيلة وليست بشرا مثله . .
وإنها هي (شيء) يجب أن يكون جميلا . . ومهما كان تقديره لجمالها ، فإنه
يقدرها كشيء جميل . . تمثال . . لوحة ولكن ليست بشرا !

وهناك حب جنسى بين الحبيبين . وهذا طبيعي . ولكن هناك فارقا
كبيرا جدا بين أن يكون جنسا فقط . . وأن يكون حبا يكمله الجنس . . أو
حب الجنس لأنه حب للشخص الآخر . .

وهناك حب بلا جنس أيضا . . كحب جمال الطبيعة والأعمال الفنية
من شعر وموسيقى . . وحب لجمال الكون . .

ولكن الحب المتبادل بين رجل وامرأة يلهم الإنسان القوة والشجاعة
والتضحية والتقدم والبناء والإبداع . .

بل إن الإنسان من الممكن أن يعمل ويعيش ويموت من أجل أناس لا
وجود لهم . . كالذى يعمل من أجل أن يكون أطفال المستقبل سعداء . .
إنه يكذب ويدرس ويتعب من أجل أناس لا وجود لهم ولا يعرفهم . ولكنه
يعمل ويحى عمله كأنه يراهم . .

وهذا النوع من الحب هو : فائض الحب . . أى أنه حب كثير . .
أكثر من احتياجه . . فهو أحب ثم فاض الحب من أعماقه فشمّل الآخرين
الذين لانهية لعددهم . .

ومن الممكن أن يحب الإنسان شخصا ليس موجودا . . كأن يحب أحد
العلماء القدماء . . والشعراء . . أو رجال الدين . . أو الخلفاء أو
القديسين . . فقد رأينا عددا كبيرا من الباحثين يفنون أعمارهم بحثا ودراسة
لشخصيات ماتت منذ مئات السنين . . لقد أضاع هؤلاء الباحثون
أعمارهم وأفنوها حبا لأناس لا وجود لهم . . ووجد هؤلاء الباحثون أنهم
حققوا دواتهم بهذا الحب . وأن حبهم قد تحقق بالبحث عن حياة وأفكار
أناس عشقوهم ، كأنهم ما يزالون أحياء . .

فما أكثر القصائد واللوحات الفنية التي بقيت لنا بسبب أن رجلا أحبوا
وماتت المحبوبة . . إنها ماتت لكل الناس ، ولكنها لم تمت للمحب
العاشق فكتبوا وبكوا ونظموا ورسّموا دموعا بالألوان والنغمات . . وماتت
المحبوبة ، وعاش حب العاشق الفنان . .

الشاعر العظيم الإيطالى دانتي أحب اثنتين : الفتاة بياترينشه . .
وأحب مدينة فلورنسة التى طرده منها . . ومن أجل بياترينشه ؟ وفى
سبيلها كتب الشاعر (الكوميديا المقدسة) وجعل الفتاة بياترينشه هى التى
تقوده من النار إلى الجنة . .

وعندما كان يبعث بخطاباته إلى أصدقائه كان يوقع خطاباته بهذه
العبارة : دانتي ابن مدينة فلورنسة . .

وما الذى قاله قيس ليلي فى ليل وكذلك جميل وبثينة والشاعر كثير
وعزة . . وما قاله الشاعر الألمانى نوفلتس فى محبوبته صوفيا . .
وما قاله الشاعر الألمانى ريلكه ومحبوبته نعمت علوى . .

وما قاله الفيلسوف الدانمركى كيه كحور فى محبته رجبنا .
وما قاله الفيلسوف الألمانى نيتشه وعالم النفس فرويد والشاعر رلكه
عندما أحب الثلاثة واحدة هى سالومى .
وماذا قال العقاد فى ساره . .

ومصطفى صادق الرافعى فى مى . .
ومحمود حسن إسماعيل فى نانا . .
إنهم الأنبياء والقديسون هم الذين يحبون الناس ويعتزلون الحياة
ويتأملون ويتعذبون من أجل الجميع . . كذلك فعل بوذا وفعل المسيح
عليه السلام . .

ومن أروع النصور الإنسانية للحب الشامل لكل ما خلق الله حب
القديس الإيطالى فرانثيسكو ابن مدينة أسيزى . . إنه أحب الحيوان
ورسمه على جدران الكنيسة . . ودخلت الطيور والحيوانات الكنيسة
أيضا . . لأنها مخلوقات الله . . وأحب الشمس والقمر والهواء والماء لأنه
يشعر بأخوة نحوها . . ومعها . . يشعر بأنه عضو فى أسرة لانهاية .
والقديس فرانثيسكو من أعظم وأروع مخلوقات الله .

والفيلسوف الصوفى محى الدين بن عربى يتحدث عن (وحدة
الوجود) . . إن الوجود واحد . . إن الله فى كل شىء . . وإن كل شىء
هو مظهر من مظاهر الله . . فالكون بكل ما فيه هو صورة الله وقد رايناها
ولمسنها . .

ولكن فلسفة ابن عربى لاتجعل للإنسان دوراً عظيماً هاما . وإنها هو
كالأحجار والأنهار والأزهار لافرق . . فكلها تفيض من الله لتكون بهذه
الأشكال والألوان . . ولكن القديس فرانثيسكو ، يرى أن الإنسان هو
كل شىء . . وأنه بحسه وذوبانه فى كل شىء . . قد أصبح الإنسان هو

كل الكون . . فالكون عيناه ويداه وقلبه وعقله . . فالإنسان عن طريق الحب قد اتسع قلبه لكل الكون . . فهو الذى يحب وهو الذى يذوب . . وهو الذى باختياره لا يكون شيئاً لأنه قد ذاب فى المحبوب . . والكون كله هو المحبوب . .

ومن الممكن أن أنشغل كثيراً جداً بهذا القديس . . كأن عمرى من عمره . . مع أنه مات من ٧٥٠ عاماً . . فهذا الحب منزّه عن الغرض . . وهو فائض حبى . . أى ما فاض من حبى عن احتياجى . . بل إن هذا الحب من الممكن أن يطعم على كل حب فى حياتى . . فتصبح الحياة كلها من أجل شخص لا وجود له . . ولكنى أنا الذى أحبيته فى حياتى . . فكان حياتى !

ومن أمنياتى - فليساعدنى الله عليها - أن أؤلف كتاباً عن الرسول عليه الصلاة والسلام . . ولكنى فى حالة من الخوف والفرع . . فالشخص عظيم جداً . . والإحاطة به صعبة جداً . . وما أكثر الذين كتبوا وأبدعوا . . فما الذى من الممكن أن أضيفه . . أو أهتدى إليه ولم يقله أحد من قبل . . ولكنى مصمم . . والرغبة قوية جداً . . وأنا أحاول أن أوضح ما أحسست به وما فهمته . . ولن يكون أحسن من كل ماكتبه الآخرون . . ولكنه سوف يكون أحسن ما كتبت وأعظم ما درست وأصدق ما عايشته ، وأحب من عرفت . . فقد هزنتى حياته . . وهزنتى صفاته . . والله يعلم كم أرتعد وأرتجف عندما أفترّب من مسجده ومن قبره . . ومن مجرد الحديث عنه . . وتخيل جالساً أحيط به أو أحاول . . أن ألمس شخصه الكريم ، وأن أحاول . .

وقد سألت الاستاذ العقاد مرة هل حدث له ذلك ؟

فكان جوابه : إننى جربت قدرتى العقلية فألفت كتاباً عن الله . وعرفت قدراتى الفلسفية . . وبعد ذلك كان من السهل أن أؤلف كتاباً

عن (عبقرية محمد) أى عبقريته كإنسان . . وعن غيره من العباقرة وعن (عبقرية المسيح) الإنسان أيضا .

فقلت له ولم يكن قد خطر على بالى أن أولف كتابا عن محمد عليه الصلاة والسلام فقد كنت مشغولا بنفسى وبالفلسفة الوجودية التى كنت أدعو إليها : إذن لابد أن يؤلف الإنسان عن الله أولا . . وبعد ذلك عن الرسول . . وهل ترى أن الكتابة عن الله أسهل من الكتابة عن الرسول .

فأجاب العقاد بسرعة : نعم . فأنت عندما تكتب عن الله تكتب عن الخلق والخلود وأمامك الكون من أوله لآخره . . فأنت ترسم شكلا هندسيا . . ولكن عندما تكتب عن الرسول فأنت تصنع تمثالا لإنسان . . ولكنه إنسان رفيع المستوى . . فالجوانب التى مستحدث عنها فى شخصية الرسول متعددة . . والذى قاله والذى قيل عنه كثير جدا . . فأنت ترسم الهرم بقلم رصاص ويكون رفيعا جدا . . ولكن لا تستطيع أن تصنع تمثالا للملك خوفا بقلم رصاص . .

فقلت : لم أفهم يا أستاذ .

فأجاب : إن الكون فكر هندسى . . تحكمه قوانين صارمة والله وراء كل ذلك اليوم والأمس وغدا . . ولكن عندما تتحدث عن الرسول . . فأنت أمام شخص كان طفلا وكان شابا وكان رجلا . . زوجا وأبا ورسولا وقائدا ومشرعا وكان هدفا لأعدائه . . وهاجر من بلده إلى بلد آخر . . وعاد وكل ما فعله وما قاله هو تشريع للآخرين . . ففى حياته وبعد حياته الكثير جدا من الفوارق اللونية المصادفة والصارمة . . وكل ذلك مادة لا أول لها ولا آخر . . وهى دراسة صعبة . ولكن تستأهل ما تبذله فيها من جهد . .

ولم أستوعب بعض الذى قاله العقاد ، ولكن بعد ذلك بعشرات السنين بدات أستوعب وأفكر وأقلق وأخاف وأرهب وأتعب . . وأترب أيضا . .

ونحن في الشرق أكثر إحساسا بالحب الصافي أو فائض الحب بين الناس من إحساس الغرب بذلك . . ففي الشرق شعوب لا تقتل الحيوان . . أى حيوان حتى لو كان ضارا ففي الهند لا يقتلون الأفاعي ولا الفئران ولا النمل . . بل إن بعض الديانات الهندية تدعو إلى وضع السكر للنمل في أركان البيت . . بل إنهم يضعون الكمادات على أنوفهم وأفواههم حتى لا يؤدي التنفس إلى قتل الميكروبات . .

ولأن حب الاستطلاع عند الإنسان غريزة وهذا هو الهدف الثاني . . فهو يريد أن يعرف . وأن يفهم وأن يحلل وأن ينظر - أى يضع نظرية لما لاحظ وفكر . .

فالعلم هو أداة في يد الإنسان يغير به ما حوله ويطوره . .

فالعلم قال لنا إن الشمس هي مصدر النور والنار . . ولذلك يجب أن يتقيها الإنسان بالهروب إلى الكهف . . ثم بناء البيت . . ثم بصناعة التهوية . . وعندما تغيب الشمس يكون ظلام ، فاخترع الإنسان المصباح المضئ لكي يصبح النهار أطول . .

ولما كانت الأرض واسعة ووعرة والمسافات بعيدة اخترع الإنسان وسائل المواصلات برا وبحرا وجوا . . والاتصالات السلكية واللاسلكية . .

وبدلا من أن يعيش الإنسان على الحيوانات والنباتات . . عاش على بعض الحيوانات وبعض النباتات وراح يصنع الطعام أشكالا وألوانا . .

فهذا هو الإبداع وهو الهدف الثالث . . أى أنه من أشياء موجودة صنع لنفسه أشياء لم تكن موجودة . . أى من المواد الموجودة حوله صنع أشكالا وأحجاما وألوانا من أدوات الحياة . . أما المادة كلها فموجودة . وأما الشكل فهو الذى لم يكن موجودا . . ومن أجل أن تكون هناك طائرة ،

كان لابد أن يبدع ما لا نهاية له من المعادن والزجاج والجلد والخشب والأسلاك والعقول الألكترونية .

والعقل هو سيد حياة الإنسان . . ولابد أن يكون العقل يقظا لتكون عندنا قدرة على الاختيار . . اختيار النافع وترك الضار . . اختيار الجميل وترك القبيح . . اختيار السهل وترك الوعر . .

ومهما كان العقل مسيطرا ، فليست كل سلوكيات الإنسان عاقلة أو واعية . . فهناك الغرائز . . هناك اللاشعور الذى يدفعنا دون تفكير . . هذا اللاشعور هو الذى يجعلنا أقرب إلى الحيوان . .

والإنسان فى حالة صراع دائم بين شعوره ولاشعوره . . بين عقله وغرائزه . . بين المنطق والأهواء .

والأكبر سنا وثقافة وتجربة أكثر قدرة على التحكم فى غرائزهم . .

فالخضارة الإنسانية هى عبارة عن وضع (فرامل) على كل هذه القوى اللاشعورية . . فالطفل الصغير يضع كل شىء فى فمه . . ونحن نتركه أول الأمر . . وبعد ذلك نحذره ونعلمه خوفا عليه . . فهو لا يعرف إلا الطعام . . وإلا الرضاعة . . وإلا البكاء وإلا التبول لاشعوريا . . ونظل نضع له الضوابط على سلوكياته . . حتى ينتقل من المرحلة الحيوانية إلى المرحلة الإنسانية . . والإنسان هو صاحب أطول طفولة بين كل الحيوانات . . وفى عالم الحيوان نجد الصغير لا يكاد يولد حتى يقف على أرجله . . ويبدأ فى الجرى . . وفى الرضاعة . . بينما الإنسان يعتمد طويلا وكثيرا على والديه . .

ولايزال الشباب أكثر إحساسا وحساسية بكل هذه الفوارق . . والمتناقضات فى حياتنا . . وأكثر تعرضا للصراع . . وأكثر استجابة لها . .

ولذلك كانت ردود الفعل سريعة . . والقبول والرفض سريعين . .
والوقوف مع أو ضد أى شىء أو أى أو نظرية سريعاً . .

ولذلك كانت الفوارق بين الأجيال أكثر حدة وشدة . .

وهذا يقربنا من أن نقرب وأن نفهم وأن نتفاهم وأن نحاور ونعلم
ونستمع في نفس الوقت . . وألا نعرف الملل ، فمستقبل بلادنا وأبنائها
يستأهل الكثير من الصبر والعناء والتضحية والتسديد والتصويب وتعديل
المسار . .

شىء واحد يهون علينا كل شىء : الحب . . حب الحياة . . حب
السلام بين الأجيال . . حب الرخاء والرفاهية للأجيال القادمة التي
لا نعرفها ولم نرها . . ولكن هذا هو الهدف الأسمى من أجل الانسجام
الاجتماعى والتوافق النفسى والأهبة الطبقية . . وكلها شروط الانطلاق إلى
المستقبل . .

وليس بين شبابنا عموماً ما يجعلنا نشعر لحظة واحدة ، أنهم شواذ
أخلاقياً وعقلياً . . فكل ما عندنا موجود في كل المجتمعات الأخرى في
العالم الأول والثانى والثالث . . والرابع إن كان موجوداً . .

فلا الشبان مرضى دائماً .

ولانحن العقلاء أبداً . .

وإنما نحن الكبار كنا شباباً ونسينا ، وهؤلاء الشبان سوف يكونون
شيوخاً وسخريه لشباب آخر ، . . وهم ينسون أيضاً !

أطول مسافة أتى بيني وبينك ! في (الغيرة والقلوب والخوف يولد الإنسان !

وفي داخله رغبة قوية في أن يعرف لماذا هذا الذي حدث ؟ لماذا هو على الأرض ؟ لماذا هو لا يعرف هذا الكون ؟ وكيف يعرفه . . إن أحدا لم يسأله إن كان يجب أن يعيش على هذه الأرض . .

إنه وقع . . سقط . . ألقى به من مكان إلى هذه الأرض . .

كأنه ألقى بمظلة واقية دون أن تكون لديه خريطة لمعرفة أين هو . . وكيف الخروج والدخول والحياة . .

ومعنى ذلك أنه سجن في هذا الكون . . وأنه محاط بها لا يفهم وما لا يقدر على زحزحته . . فلا كان قادرا على أن يسبح كالسمك في الماء . . وأن ينطلق كالصقور في انقواء . . إنه على الأرض مشدود لها . .

إن خمسة آلاف سنة قد مرت في حياة الإنسان لم يتطور تطورا كبيرا . . فلم يستطيع الإنسان أن يجعل الحياة أسهل والحركة أقل . . تكلفة للطاقة . . ولكنه في عشرات السنين الماضية استطاع أن يحقق المعجزات في كل المجالات . . في المواصلات بين القارات وبين الكواكب وأن يحقق المعجزات في الطب . . وفي الجراحة . . واستطاع أن يحقق المعجزات في

المعلومات وكيف ننقلها بالأفهار الصناعية وبالعقول الألكترونية . . وكيف أصبح العالم كله جزيرة صغيرة . . أو سفينة فضاء . . أو سفينة نوح الفضائية . . أو أصبح العالم كله طبقاً طائراً . . فكل شئ أصبح قريباً في متناول كل الناس . .

تتفرج على مباريات كرة القدم في البرازيل وترى أعشاب الملعب واحدة واحدة والشعر في سيقان اللاعبين . . والدموع في عيونهم . .

وأحس الإنسان بشئ كثير من الغرور . . فالعلم أعطانا شيئين : القوة والوفرة . . فبدلاً من أن تمشى فإنك تركب طائرة ، وبدلاً من أن تصرخ تهمس بالتليفون المتحرك . . وبدلاً من أن تفرقش الطعام بأسنانك ومخالبك ، جعله مسحوقاً غنياً بالفيتامينات . .

وكان الإنسان يعتقد أن الأرض مركز الكون . وأنه سيد الأرض إذن هو سيد الكون . .

وظهرت النظريات تقول إن الإنسان لا مركز الكون ولا حاجة . . وإنما الأرض تدور حول الشمس . . وكذلك كل الكواكب . . فالشمس هي مركز الكون . .

أى أن المجموعة الشمسية التى نعيش فى جانب منها هي مركز الكون . .

وجاءت نظريات تقول إن المجموعة الشمسية ليست مركز الكون . . وإنما هي مجموعة ضئيلة جداً ضمن مجموعة بها ألف مليون نجم مثل الشمس . . هذه المجموعة اسمها (الطريق اللبنى) . .

وجاءت نظرية تقول إن هذه المجموعة ليست إلا واحدة من ألف مليون مجموعة أخرى .

وجاءت نظرية تقول إن هذا الكون كله ليس هو الكون الوحيد . .
فهناك أكوان أخرى بألوف الملايين ولا نعرفها . .

وجاءت نظرية تقول : بل إن هذا الكون كله لم يكن موجودا قبل ١٥
ألف مليون سنة . . وإنه ليس إلا واحدا مما لانهاية له من الأكوان التي
ظهرت ثم اختفت . .

يعنى أن الإنسان ولأحاجة في هذا الكون . . ولا شيء !

أو هو شيء متواضع جدا

ولكن جاءت نظرية تقول صح إن الإنسان ليس شيئا ماديا هاما . .
ولكنه الشيء المادى الوحيد الذى يعرف نفسه ويعرف هذا الكون . . إن
الشمس لاتعرف . . وكل النجوم لاتعرف أن لها بداية وأن لها نهاية . .
ولكن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يعرف وأنه ولد ليموت . . وأنه
شديد القلق والحزن على ذلك . . وأنه فى نفس الوقت يحاول أن يسخر
البيئة والظروف لصالحه . . أى أنه يحاول أن يجعل نفسه مركزا للاهتمام فى
هذا الكون .

ورغم أن الإنسان قد حقق الكثير جدا ، فإنه لايزال يشعر أن أكثر من
ذلك هو الذى يحلم به . .

ورغم أن أمامه الكثير من الوقت لكى يحل مشاكل الحياة ومشاكل
العلوم فإنه فى نفس الوقت يشعر بالاعتزاز بنفسه فقد استطاع فى نصف
القرن الماضى أن يحقق المعجزات التى لم يستطعها فى ألوف السنين قبل
ذلك . .

فالإنسان كائن غير متوازن . .

الذى حققه كثير جدا . .

والذى يحلم به كثير جدا . .

وهو غير متوازن لأن العلم لم يحقق له صلحا مع نفسه . . لم يحقق له علاقة قوية مع جاره . . مع زملائه في البيت في الدولة في الكرة الأرضية . . إن المواصلات ربطت بينه وبين الكواكب الأخرى . . ولكن هذا العلم لم يحقق له الأمان والوثام مع غيره من البشر . .

إن الأجهزة الحديثة لم تمكن الإنسان من أن يقضى على الحقد والكراهية والحسد والانتقام . . والحرب التى يموت فيها الملايين . والملايين تموت بأسلحة فتاكة اخترعها الإنسان بعقله العبقري .

ومعنى ذلك أن العقل الإنسانى يعمل في القضاء على الإنسان نفسه . . والعلم يقوم بتطوير أسلحة الموت . .

ثم إنه يرتفع بمستوى المعارك . . فبدلا من أن كانت المعارك في البر والبحر والجو . . أصبحت الآن (حرب النجوم) . . أى الحرب التى تستخدم فيها سفن الفضاء على أعلى المستويات فالإنسان قد ارتفع بأسلحته ومعاركه وميادين القتلى ، ولكنه انحط بأسباب هذه الحرب . . فأسباب الحرب هى الطمع والجشع والسيطرة والقهر . . وهذا هو موقف أخلاقي . . أو موقف روحي . .

وهناك فجوة هائلة بين ماحققة العلم ، وما عجزت القيم الروحية عن تحقيقه . . العلم ساعدنا على قتل الملايين في كل العصور . . ولم يساعدنا على حب الآخرين . .

وفي الخمسة آلاف سنة الماضية ، لم تعرف الإنسانية السلام إلا ١٢٣ سنة . . فمن الذى نلوم ؟

لأنلوم التقدم العلمى . فهادام هناك عدد كبير جدا من العلماء يعملون معا ، وكل واحد منهم يكمل ما قام به الآخرون ، فلا نهاية لتقدم العلم والأدوات المتطورة التى يبتدعها . .

ولو حدث أن عكف ألوف المصلحين - تماما كالعلماء في كل مكان - على تطور القيم الروحية والحب والرحمة بين الناس لتغيرت الدنيا . . . ولكن (القوة) لاهى خير ولا هى شر . . . إنها محايدة . ولكن الإنسان هو الذى يجعلها للخير ويجعلها للشر . . . فالسكين مثلا ، لاهى خير ولا هى شر . . . ولكن الإنسان هو الذى يقشر بها خيارة وهو الذى يقتل بها بريثا .

والإنسان في الخمسة عشر قرنا (من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن السابع بعد الميلاد) حاول كل أشكال التنظير الأخلاقي والروحي والدينى والفلسفى . . . ففى القرن السادس قبل الميلاد كان المصلحون الهندى بوذا والصينى كونفوشيوس واليابانى لاوتسى والفارسى زرادشت . . . وكان الفيلسوف سقراط وكان الفيلسوف زينون . .

وكان النبى محمد عليه الصلاة والسلام في القرن السابع الميلادى . . . وهم جميعا قد دعوا لسيطرة الروح على المادة ، لسيطرة القيم الأخلاقية والروحية على الرغبات المادية الفانية .
ومهما اختلفت الأديان في مبادئها فإن بينها شيئا واحدا مشتركا هو :
الدعوة إلى الحب . .

ولاشيء يجعل الإنسان يخرج من أنانيته الشديدة إلا الحب . . أن تحب غيرك من الناس . وأن تضحى من أجله . . فالحب هو العاطفة الوحيدة العظيمة التى تشغلك عن نفسك وعن أن تكون مركز الكون . . وأن تحب شخصا وأن تحب فكرة وأن تحب رمزا . . وأن يكون هذا الحب بلا مقابل . .

ولاشئىء قد أدى إلى ظهور الدين وحاجة الإنسان إليه : إلا الحب
والاحترام والخوف . . والإنسان بطبعه كائن روحانى . . كائن مؤمن . .
فى كل العصور كان الإنسان مؤمنا بشئ ما . . بقوة ما . . ولايزال .
فأنت تنحنى لإجلال أمام قطعة قماش ، هى علم الدولة . .
وتقف احتراما لعلامات المرور لأنها رمز القانون . .
واللاعبون يتحركون بين العلامات البيضاء . . التى هى القواعد
والأصول . .

والإنسان كائن يكن احتراما وتوقيرا وتقديسا لما هو أكبر ولمن هو
أعظم . . ومن ألوف السنين ونحن من الواجب أن نذكر دائما أستاذنا
العظيم سقراط . . إنه لم يشغل باله بالبحث فى الطبيعة ولا فى الفلك .
وإنما شغل نفسه بالإنسان . . والذى شغله فى الإنسان هو أن هذا الإنسان
يعرف الخير ومع ذلك لايفعل إلا الشر . كيف ؟ ولماذا ؟
وكان هدف سقراط هو إيقاظ الإنسان ليفعل الخير ما دام يعرفه . .
وهو بذلك يصلح الإنسانية كلها . . وهذا ما نحتاج إليه اليوم . .
وكلما تقدم العلم زادت الفجوة بين الدين والعلم أو بين القيم الروحية
والفوائد المادية للتطور العلمى . .

فالإنسان اخترع الآلة ، ثم صار عبدا لها . . اخترع الآلة وراح
يقلدها . . فيكون منضبطا مثلها . . ويكون لا إنسانيا . . فالناس جميعا
مسامير فى جهاز واحد . . ويجب أن يكونوا . . والإنسان ما دام مسامرا فى
جهاز فيبقى فى الجهاز ما بقى صالحا ، فإذا انكسر كان لابد من الإتيان
بقطعة غير أخرى . . لا أكثر ولا أقل !

فالإنسان يطور المادة التى فى يديه . . ويجعل منها أشياء جديدة .
والحياة المادية هى التى صنعها الإنسان وطورها وانحنى ساجدا لها . .

واستطاع العلم أن يجيب عن تساؤلات كثيرة للإنسان . وكانت إجابات الأديان القديمة عنها غير دقيقة . وهناك خطأ وقعنا فيه . وهو أننا نطلب من العلم ما نطلبه من الدين . . فنطلب من الدين أن يقول لنا كم طول الكون وكم عرضه والعلم يقول بالتقريب والدين لا يقول لأن الدين ليس كتابا علميا . والعلوم يغير بعضها البعض فهي لا تثبت على حال . بينما القيم الأخلاقية قد اكتسبت طابع الخلود لأن أساسها الصدق . والحب والرحمة والسلام . .

وإذا أحس الإنسان بكارثة رفع رأسه إلى السماء وقال : يارب !

وقد يضحك أحد العلماء لهذا المنظر ويقول : ولماذا ينظر إلى فوق . . يمكنك أن تنظر إلى تحت فالأرض معلقة في الفضاء . . فلا فوق ولا تحت ! علميا صحيح . ولكن هذا الإحساس الذى نحس به هو العجز . . ونتطلع إلى فوق ويرجحنا ذلك . وليس له تفسير علمي . . إنه شيء في القلب . لانعرف ما هو . ولا ما طوله ولا عرضه ولا وزنه . . يارب . . ولا يهمننا كثيرا أن يضحك العلماء على هذا المنظر . .

وكان يقال إن بين آدم وموسى عليهما السلام ٤٠٠٤ سنوات . . وقيل بل خمسة آلاف . . وقيل بين آدم ومحمد صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف سنة . .

وجاء البحث التاريخي يؤكد غير ذلك . فالإنسان على هذه الأرض من مليون سنة . . أى الإنسان الذى يمشى على قدميه مستقيما الظهر . . ولكن مرت على الإنسان ملايين أخرى لم يكن مستقيما الظهر . .

وقد كانت على الأرض حياة بأشكال مختلفة قبل ظهور الإنسان بمائة مليون سنة . الديناصور كان يعيش على هذه الأرض حوالى أربعين مليون سنة . . ولكنه انقرض من خمسين مليون سنة لان أحد الأجرام السماوية قد

سقط على الأرض أو مر بالقرب منها فارتفعت درجة الحرارة وانعدمت
الحياتان الحيوانية والنباتية - وفي مقدمتها الديناصور . .

بعبارة أخرى نحن تطورنا على هذه الأرض علميا ولم نتطور اجتماعيا .
فإذا كان الإنسان حيوانا اجتماعيا ، لابد أن يعيش في أسرة وأن يكون له
أولاد وأقارب وقبائل وعائلات فليس الإنسان هو الحيوان الوحيد
الاجتماعي . . هناك الذئاب حيوانات اجتماعية . . تغزو وتصيد معا وتأكل
معا وتتأثر لبعضها البعض . فالإنسان تطور علميا ماديا ، ولم يتطور كثيرا
اجتماعيا أو روحيا . .

والإنسان لا يستطيع أن يحقق المعاني الروحية إلا عن طريق المادة -
فالإنسان يجب أن يكون حيا يأكل ويشرب لكي يكون قادرا على أن يحقق
القيم الروحية وأن ينشرها وأن يتمسك بها ويدعو إليها . . ونحن نلمس
عالم الروح بأصابع مادية . . فلا قيم روحية إلا أننا موجودون . . وإذا لم
يكن هناك إنسان فلا قيم روحية . .

والشمس والقمر والكواكب الأخرى - لا فيها حياة ولا إنسانية . .
ولاموت !

فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يعرف أنه سوف يموت . . وكان
آلهة الإغريق يحسدون الإنسان على أنه يولد ويموت . . أما هم فقد ملوا
حياة الخلود . . روتين الأبدية . .

ولو استطاع الطب أن يجعل الإنسان يعيش إلى مائتي سنة ، لكان من
أهم آمال الإنسان أن يموت أى لأصبح الموت أملا . . لأن الشيخوخة
وكثرة الأمراض واليأس من العلاج تجعل الحياة عذابا . . ويكون الموت هو
الأمل . أما الانتحار فقد حرّمته كل الأديان لأن معنى الانتحار أن الإنسان

يرفض الحياة التي وهبها الله له . فאלله وحده هو الذى يعطى وهو الذى يأخذ . .

وإذا كان قد حدث فى عصور الرومانسية والوجدانية والمثالية أن انتحر كثيرون ، فذلك حالة نفسية مرضية . . فلسفة أزمة . . وقد اتخذ العصر الرومانسى عبارة لمؤلف إغريقى كتبها على باب بيته :

إذا كنا لم نستطع أن نرفض الحياة ونحن صغار ، فلنرفضها ونحن كبارا ولكن أحدا لم يفعل ذلك كثيرا . وإن كانت الحروب هى الموت الجماعى الذى تفرضه الشعوب على نفسها وعلى الشعوب الأخرى . . وتسمى الانتحار الجماعى بطولية . وتسمى الأهداف المعلنة القائمة على السيطرة والجشع مبادئ مقدسة !

ومن علامات هذا الزمان ما قاله أول إنسان صعد إلى سفينة الفضاء ودار بها حول الأرض . ففى سنة ١٩٦١ أطلق الروس الرائد جاجارين ليرتفع عن الأرض مائتى كيلو متر ولينطلق بسرعة ٢٨ ألف كيلو متر فى الساعة ليدور حول الأرض كل ٨٩ دقيقة . . هذا السائق البسيط لسفينة فضاء كل أجهزة إدارتها على الأرض . . ليس إلا سائق تاكسى بلا دركسيون . . هذا السائق البسيط قال ثم منعه بعد ذلك أن يردد هذه العبارة : إنه صعد إلى السماء فلم يجد الله !

الغرور والجهل هما معنى هذه العبارة . فى الذى حققه حتى ينطق بمثل هذه العبارة الكبيرة جدا . . إنه ارتفع فى سيارة صغيرة إلى مسافة صغيرة . . تماما مثل ذبابة تدور حول كوب . . إنه إنجاز علمى كبير . . ولكن هذا الإنجاز لا يجعل أحدا يقول مثل هذه العبارة إلا إذا كان جاهلا جدا . .

ولذلك فى مثل هذه الذروة من الغرور والجهل يتدخل الدين . . ويقول
لنا : قليلا من التواضع فما أوتيتم من العلم إلا قليلا . . والذى صنعتموه
مهما بلغ من عظمتة فهو أقل فى الإعجاز عن جناح ذبابة . . بل إن جناح
ذبابة شىء كثير جدا جدا . . بل إنه أقل إعجازا من شكل خلية تحت
الميكروسكوب . . ففى هذه الخلية ما لانهاية له من الجسيمات البسيطة
كهربياً ومغناطيسياً

فقط الدين هو الذى يستطيع أن يسد هذه (الفجوة الروحية) التى
يقفز منها الغرور كما تقفز الضفادع من أحد المستنقعات وهى تحلم بأن
تصدم برأسها النجوم !

الفضاء : مشكلة (فوق) الفراغ : مشكلة (تحت) !

الذين يريدون أن يذهبوا إلى الجنة ، يجب أن يكون عندهم وقت
لدراسة الطريق إليها !

إذا كان الدين لا يغير أسلوبك في الحياة ، أفضل أن تبحث لك عن
دين آخر !

كثير من الناس يقومون (بتفصيل) القيم الروحية على قدر
احتياجاتهم !

أسهل للناس أن يدافعوا عن الدين وأن يموتوا في سبيله ، من أن
يعيشوا وفقا لمبادئه !

كيف تطلب من الناس أن يتفقوا على قيم أخلاقية واحدة ، وأنت
تعلم أنهم لا يتفقون على أى شىء آخر !

الدين كالموسيقى : أنت لا تدافع عنها ، وإنما أنت تعزفها وتسبح
سعيدا في معانيها !

إن القيم الروحية التي لا تستحق أن تصدرها إلى الخارج ، لا تستحق
أيضا أن تعيش بها في الداخل !

بعض الناس ينظرون إلى الدين على أنه (مظلة وإقية) يلجأ إليها عند الهبوط الاضطرارى !

أعظم حركة انتقال : هى أن تنقل الدين من لسانك إلى يديك !
الدين ليس مصباحاً تحمله فى يدك ، وإنما هو نور فى قلبك !
الفرفشة تجعلك تنسى الهموم ، الدين هو الذى يجعلك تغلب عليها !
الدين كالبونك : لا تحصل منها على فوائد إلا إذا كانت لك أموال مودعة فيها !

فما الذى نعلمه للصغار والشباب ؟

نعلمهم دينهم . . نعلمهم تجارب الشعوب حرصها على أن تكون أفضل . . على أن تتمسك بما هو أبقى وأقوى وأسمى . فالدين يجب أن يكون تاريخ المؤمنين . . وبطولاتهم . . وليس الدين وحده هو المادة الأولى والأخيرة فى كل برامج التربية والتعليم . . فلم يكن تاريخ الشعوب أن نصلى ونصوم . . وإنما أن نصلى ونصوم ونعمل ونبدع ونغير ونكافح ونجعل للحياة معنى وطعماً . .

وقد تطور الإنسان فى الماديات أضعاف أضعاف تطوره فى الروحانيات . . وفى الأخلاقيات . .

شئ غريب حدث فى أعقاب الهزات الكبرى أو الصدمات الثقافية . . فبعد الصدمات الثقافية . . تفيق الشعوب على شئ جديد . . هذا الشئ هو أن تشعر فجأة ومرة واحدة أن هناك مسافة . . أن هناك فجوة . . وأن هذه الفجوة لم تكن نشعر بها . . وهذه الفجوة يجب أن نعرفها . . أن نملاها . .

فعندما أطلق الروس أول قمر صناعى إلى الفضاء وأول كلبة وأول إنسان أحس العالم الغربى كله بأن هناك خطأ خطيراً فى التربية والتعليم

وأن روسيا سبقت الغرب وسوف تسبقه لأنها تنبّهت إلى هذا الخطأ وعالجته سرا . وكانت نتائج هذا الإصلاح تفوقها في عالم الفضاء . .

فذهب العلماء الأمريكيان يدرسون برامج التعليم في روسيا . وكل واحد اهتمدى إلى سبب . ولكن أهم ما اهتمدى إليه الأمريكيان هو أن الروس تقدموا جدا في الرياضيات . . وأن الطفل الصغير يدرس الهندسة والجبر وحساب المثلثات وبعد ذلك بسنة واحدة يدرس حساب التفاضل والتكامل . هذا كل ما هناك . فغير الأمريكيان برامجهم . .

ولكن عرفنا فيما بعد أن السبب الحقيقى غير ذلك . . فالعلماء الألمان الذين استولى عليهم الأمريكيان وشحنوهم إلى امريكا . . قد اخترعوا صواريخ لنقل الأقمار الصناعية من سنوات . . وأن هذه المشاريع جاهزة . ولكن الكونجرس الأمريكى لم يعتمد الأموال الضرورية لذلك . . فلقد رأوا في سفن الفضاء لعب أطفال يتسلى بها العلماء . . لعبة دقيقة معقدة لافائدة لها . .

ثم إتهم الألمان الذين اخترعوها وليسوا أمريكيانا . .

والحقيقة أن الألمان في روسيا والألمان في أمريكا قد وصلوا إلى هذه الاختراعات في وقت واحد . وكان الروس أسبق في إطلاقها إلى الفضاء حول الأرض وبعد ذلك حول القمر وفوق الكواكب الأخرى . .

ولكن الأمريكيان أعادوا النظر إلى برامجهم في التربية والتعليم . .

وقد أيقظتهم هذه الصدمة العنيفة . . وانطلق الأمريكيان إلى الفضاء بسفن أكثر تطورا وأسرع من الروس . .

والصدمة الثانية : عندما اكتشف الأمريكيان أنه ليس الروس وحدهم الأسبق في مجال الفضاء . . ولكن اليابانيين والألمان أسبق في تطور كل

وسائل الحياة . . فاليابان دولة ضربها الأمريكان بالقنابل الذرية وألمانيا احتلها الحلفاء ومسحوا بها الأرض . . وفجأة وبصر واستمرار تقدمت وتفوقت على كل الدول التي احتلتها وفي مقدمتها أمريكا . .

والصدمة الثالثة أن أمريكا ذهبت تحارب في فيتنام ولم تخرج منها إلا مهزومة لأول مرة في تاريخها . . ويكون ضحاياها سبعين أو ثمانين ألفا . . وأثر هذه الهزيمة كان عميقا على الشباب الأمريكي الذي وقف ضد حكومته وقرارها المزيّف حين ادعت أنها ذهبت تحارب من أجل الديمقراطية والحرية . . فأهلك الإنسان والحيوان ولم تحقق الديمقراطية وإنما الكراهية لكل ما هو أمريكي . . وأحس الشباب الأمريكي أنه غريب في بلاده . . وأن حكومته كاذبة وماضية في الكذب . .

حتى أن الرئيس كليتون عندما كان طالبا في بريطانيا فإنه اشترك في تظاهرة ضد الحرب في فيتنام . . وحاول خصومه السياسيون أن يصوروا أنه هرب من الجندية . . وأنه تظاهر ضد الاشتراك في الحرب . . ولكن ثبت أنه لم يكن ضد بلاده . . ولكن ضد قرار الحرب في فيتنام . . وأنه لم يشترك في الحرب لأنه كان يدرس في الخارج والدستور يعفيه من الخدمة العسكرية لهذا السبب . .

ولكن الشباب الأمريكي تمزق وتزلزل بسبب حرب فيتنام . وهرب من الحياة الاجتماعية ومن البيت ومن المدرسة . وأدمن المخدرات والخمور . وتكسب في الاصطبلات وفي الخرائب ، ووجد أنها خير من البيوت والمؤسسات . . بل إن ألوف الشبان آمنوا بديانات مزيفة هربا من دينهم . . ثم إن عددا منهم سار وراء نبي كاذب . . وانتحروا جماعيا حتى لا يعيشوا في أمريكا المناقفة الكاذبة . .

إن أثر فيتنام على معنويات الشباب في أمريكا شيء فظيع !
وظهرت اتجاهات منحرفة في الأدب والفن وسلوكيات الشباب . .

ولذلك قرر عدد من رؤساء أمريكا الواحد بعد الآخر أن يواجهوا الكارثة . والكارثة هي التمزق الأخلاقي والانهار الروحي والتخلف العلمي . .

وعكف عدد من العلماء على دراسة التربية والتعليم في أمريكا .

وظهر بحث عظيم رائع اسمه (أمة في خطر) . . ولقد حملت هذا التقرير البديع إلى الرئيس حسنى مبارك في بيته . وسمعت من الرئيس أنه قرأه . وأنه كلف د . مصطفى كمال حلمى وزير التعليم في ذلك الوقت بالدراسة والبحث والاستفادة منه . وكتب د . مصطفى كمال حلمى عن التقرير عدة مقالات نشرت بمجلة (أكتوبر) . . والمقالات جميلة . . والاستفادة من التقرير ضرورية . وعندما تقدم د . د . فتحى سرور بمشروع لإصلاح التعليم أشار إلى أنه قرأ هذا التقرير الأمريكى واستفاد منه . .

ولكن أهم من التقرير وقراءته هو : لماذا صدر ؟

صدر في أمريكا بعد دراسة دقيقة عميقة لحال الشباب هناك . .

وقد لاحظ الباحثون الأمريكان أن الشباب في أمريكا يرون (السندوتش) هو المثل الأعلى لكل غذاء . . فالأكل يجب أن يكون مختصرا في رغيف . وإن هذا الرغيف من الممكن أن يأكله الإنسان جالسا وواقفا ونائما وفي الزحام فى الأتوبيس أو المترو . والشاب يريد أن يكون كل شىء مثل السندوتش . . فالكتب يجب أن تكون مختصرة . . معلومات من هنا ومن هناك . . وبسرعة تقرأ وبسرعة يلقي بها . .

ومثل هذه المعلومات السريعة ليست هي التى تؤدى إلى التفكير والتأمل والمعايشة والإبداع بعد ذلك . . فكما أن الشاب يأكل وهو يتفرج على التلفزيون أو على مباريات كرة القدم . . فالكتب السندوتش يجب أن تكون كذلك . . يمكن تناولها فى أى وقت . . وفى أى وضع !

ولاحظ الباحثون الأمريكيان أن (الكافتريا) قد غلبت على سلوك الشبان . . فهم يفضلونها على قاعات البحث والمعامل . . فهم طوال الوقت يضحكون ويغنون ويشربون الكوكا أو القهوة . . ساعات وساعات ولا يلاحظوا أيضا أن الرياضة تستولى على وقت كثير فى حياتهم . .

وسيطرة الجنس عليهم جعلتهم يهربون من الرياضة ومن القراءة ومن الدراسة . . ولاحظ الباحثون أن المدرس لا يلقى احتراماً عظيماً فى أمريكا . . فلا هو قد درس وتدرّب ، ولا هو يتقاضى أجراً يجعله يعيش حياة كريمة . . فكيف يحمل المدرس مشاعل النور للطلبة وهو كاره لما يقوم به . . حاقده على الطلبة الذين هم أحسن حظاً منه . . فالمدرس وعلمه وتجاربه وحياته يجب أن يتناولها البحث بالتعديل والتصحيح . . وكذلك فعلت ألمانيا وبريطانيا وفرنسا . . كلها اتجهت إلى إصلاح التعليم . . أى وضع البرامج التى تشجع الطالب على أن يتفرغ للدراسة والبحث أملاً فى إصلاح كل الناس ، وإتاحة لظهور المواهب الفريدة بين الشبان . .

فما الذى يجب أن يتعلمه أو يدرسه الطفل والشاب !

يجب ندرس لهم تجارب الشعوب . . والأمم فى أن تكون هذه المعلومات أو هذه التجارب مفيدة . . أو تكون عبء لنا . . فليس المهم حشر المعلومات . . وإنما المعلومات مهمة ، والعبء مهمة أكثر . .

والشعوب النامية تعتمد على الصورة أكثر من اعتمادها على الحروف . . أى على التليفزيون أكثر من اعتمادها على الإذاعة والكتب . . ولذلك فالصورة أقوى وأعمق . .

ولكن التليفزيون خطير وإن كان ضرورة لا مفر منها . . لأنه لغة العصر . . إننا فى الريف المصرى نجد الفلاح يسكن بيتاً من الطين ومن

شبابيك هذا البيت تطل أبقاره وجواميسه . ولكن أمام الباب يوجد تليفزيون ملون قد استقر فوق ثلاثة !

فمن الممكن أن يبيع الفلاح جاموسة ليشتري بثمنها تليفزيونا وثلاثة وغسالة ومروحة . . وقد يستدين وترتّبك حياته . ولكن لابد من التليفزيون الذى هو مصدر معلوماته وإطلاله على الدنيا . . ورمز للحضارة أو المعاشة لها وعدم التخلف عن مسايرتها . .

والتليفزيون خطير لأن المتفرج عليه لا يستطيع أن يفرق بين أفلام عن الحرب وأفلام حربية . . ففى الخاليتين ضرب وقتل ودماء . . والخطورة هى أن الطفل إذا نظر إلى الحرب ، فهو لايعرف أيها التمثيل وأيها الحقيقى . . فإما إن يرى أن كل الذى يراه تمثيل فى تمثيل فلا حرب ولا ضرب . . وكل ما يقال عن الدماء والوحشية تمثيل فى تمثيل . . وإما إن يرى أن الحروب حقيقة ودماء . . وأن الدنيا متوحشة شرسة . . وأن هذا هو القدر وأن هذا هو أسلوب الحياة . . وأن أحدا لا يستنكر ذلك . . وإنما تعرض كل يوم مع عظيم الاحترام لقتل الأبرياء وإراقة دمائهم فى كل مكان !

ومشاهدة التليفزيون عمل سلبى . . فأنت جالس والمعلومات تدخل دماغك بلا مقاومة منك . بل إن التليفزيون ساحر بالألوان والموسيقى ولذلك فأنت لاتستطيع أن تقاومه . . إنه (شهر زاد) التى تحكى فى اليوم الواحد ألف ليلة وليلة وأنت (شهر يار) النائم على السرير يأكل ويقزقز والتليفزيون يأتى لك بالدنيا كلها عند قدميك . .

أما الكتب فشىء آخر . . فأنت تذهب إلى حيث تباع الكتب . . وترى وتقلب وتقرأ وتختار . . فالقراءة عمل إيجابى . لأنه عمل إرادى . . وإبرادتك تشتري أو لاتشتري وتقلب وتختار وتعود لتكمل ما بدأت . . ثم إن القراءة فى حاجة إلى جهد . وأنت على استعداد لهذا الجهد وسعيد

به . . والمعلومات التي تدخل دماغك بسهولة تذهب وتتلاشى . . أما الذي تحصل عليه من الكتب بمجهود ، فإنها تبقى طويلا . . ولا شيء يضيع من الذاكرة قد اكتسبته بجهد وإرادة ولذة .

وربما نكون قد ورثنا من الإغريق أن يقف واحد من الناس يحاضرهم ويناقشهم ويناقشونه . . فهذا النوع من التعليم نموذجي . . فليس الطلبة في حالة سلبية يتتلعون العلم دون تفكير أو دون مناقشة . . وهذا هو المثل الأعلى للتربية الصحيحة . .

ومادمنا نعلم الناس أن يستفيدوا من تجاربهم ، فهل الإنسان فعلا يستفيد ؟ هل الشعوب أيضا ؟

وهل التاريخ يعيد نفسه . . أى هل نحن نقع في نفس الأخطاء . . وكأننا لم نعيشها . . وهل التاريخ يعيد نفسه بالضبط . . أو إن هناك تحويرا وتغيرا في الظروف وفي حجم التجربة ووقوعها وإيقاعها ؟

ففى مصر بسبب فشل (تجربة الوحدة) مع سوريا . . لم يوافق السادات وحسنى مبارك على أى نوع من أنواع الوحدة مع ليبيا أو السودان . . فتجربة الوحدة كانت مفروضة على الشعبين المصرى والسورى وقررت سوريا الانفصال . . ومضت الأيام وإذا بالشعب المصرى يرى أن الوحدة لاعمى لها . . والسوريون كانوا أول من كفر بها وبرئاسة مصر ووجودها فى سوريا . . والحكايات كثيرة والفضائح أكثر . .

وغير ذلك من التجارب الأليمة فى تاريخ مصر وتاريخ كل دولة . . والإنجليز - مثلا - عندهم ثلاثة دروس مؤلمة لا يمكن نسيانها . .

١ - فقد استطاعت الفتاة الفرنسية القديسة جان دارك عذراء اللورين أن تشفى بريطانيا من مرضها . . فقد كانت منطقة نورماندى الفرنسية تابعة لاندجلترا وغيرها من المدن . . ولكن الفتاة جان

دارك استجابات لنداء السماء وقادت جيوشا ضد الإنجليز . .
فأفلحت في تحرير مدن كثيرة . . واستطاع الإنجليز أن يستردوها
وأن يدفعوا بالفتنة إلى الإعدام حرقا . .

ومنذ ذلك الحين لم تعد بريطانيا تحاول القيام بأى غزو عسكري
لأوروبا!

٢ - بريطانيا كانت أول دولة غربية فى العصر الحديث تقوم بثورة ضد
النظام الملكى . ففى القرن السابع عشر اشعلت حربا أهلية
وقطعوا رأس الملك . وأدى ذلك إلى قيام دكتاتورية عسكرية
بزعامة كرومويل . وبعد وفاة كرومويل عادت الملكية . ولكن
بسلطات قليلة للملك ولما حاول الملك جيمس الثانى أن يعيد
الملكية المطلقة أسقطه الإنجليز . وهرب . وقد استطاع أحد
الصيادين إلقاء القبض على الملك وانتظر أن يمنحوه مكافأة على
ذلك . . ولكنهم وبخوه وتركوا الملك يهرب فى هدوء . واستوعب
الإنجليز هذا الدرس .

٣ - فقد الإنجليز مستعمراتهم فى أمريكا الشمالية لانهم رفضوا أن
يمنحوا شعوبها الحكم الذاتى . بينما أعطوا الاستقلال لدول
أخرى فى الإمبراطورية البريطانية : كندا وأستراليا والهند
وباكستان والملايو . وذلك قبل حصولهم على الاستقلال بالقوة .

وطرد الإنجليز من قبرص وعدن يدل على أنهم استوعبوا الدرس تماما .
ولما لم تستوعب بريطانيا الدرس بوضوح فقد منيت بهزيمة شنيعة فى أمريكا
الشمالية فى القرن الثامن عشر . .

أما فرنسا فقد استوعبت درسا ألبيا فى سنوات ١٨١٣ ، ١٨١٤ ،
١٨١٥ وفى سنة ١٨٧١ . هذه النكبات العسكرية جعلت فرنسا لا تفكر
مطلقا فى السيطرة العسكرية على أوروبا . .

وكذلك هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ والحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ ، جعلت ألمانيا تخاف من الحرب . . وتخاف من أن يتصور أحد جيرانها أنها تستعد لذلك . . وعندما استعادت ألمانيا نصفها الشيوعي ، شعر الناس بالفرح والرعب من عودة ألمانيا إلى قوتها . فأكدت ألمانيا أنها لا تريد أية قوة عسكرية !

أما اليابان فقد كانت مصيبتها أكبر وأفدح . . فقد ضربتها أمريكا بالقنابل الذرية . ولكن أفدح من ذلك أن أمريكا قد احتلت اليابان . وهذا ما لم يحدث لها في كل تاريخها . . حتى الإمبراطورية المغولية ، أكبر إمبراطورية في التاريخ ، لم تفلح في أن تضع قدما واحدة على الأرض المقدسة لليابان .

وهزيمة اليابان قد جاءت بعد انتصارات ساحقة في آسيا وجنوبها . بدأت بانتصارها على الصين سنة ١٨٩٤ وعلى روسيا سنة ١٩٠٤ . . وسلسلة من الانتصارات الساحقة في جنوب شرقى آسيا . . وبعد ذلك توالى هزائمها . وكان لهذه الهزائم أعمق الأثر في الشعب اليابانى . .

وهزيمة مصر سنة ١٩٦٧ قد هدمت معنويات الجيش والشعب . وأسباب الهزيمة قد استوعبتها مصر فانتصرت سنة ١٩٧٣ . . أما انتصار إسرائيل علينا سنة ١٩٦٧ جعلها تستهين بقدره مصر وجيشها وقيادتها على خوض أية حرب . . لدرجة أن موسى ديان وزير الدفاع عندما سمع أن مصر سوف تهاجم إسرائيل أو هاجمتها ، أمر ببضعة آلاف من الجنود . . لأن مصر الضعيفة الهزيلة يمكن مقاتلتها بأى عدد ضئيل . . فغرور إسرائيل في سنة ١٩٦٧ هزمها في سنة ١٩٧٣ وهزيمة مصر في سنة ١٩٦٧ دفعتهما إلى النصر في ١٩٧٣ . .

ومن الصدمات العميقة في العصر الحديث ما أصاب تركيا . ففي القرنين ١٨ و ١٩ استقبلت تركيا الحضارة الغربية . . التى زلزلت تكوينها

وثقافتها وعاداتها الراسخة حتى جاء الزعيم أتانورك وفرض التطور والعلمانية على الشعب التركي بمتهى القوة والقسوة . .

وآسيا قد صدمتها القوات الإغريقية بقيادة الإسكندر الأكبر . . فترك الإغريق آثارا عميقة في آسيا غربا وجنوبا . . كما أن الإغريق تركوا آثارهم في مصر الفرعونية أيضا بعد فتوحات الإسكندر الأكبر . .

وإن كانت الدويلات الإغريقية قد تفككت وتآكلت حتى ذابت في إمبراطورية جديدة هى الإمبراطورة الرومانية . . ودفعت الاستقلال والحرية ثمنها لأمنها واستقرارها . .

في هذا الوقت ظهرت (المدن الفاضلة) أو الجمهوريات المثالية . . التى تعيش فيها الناس فى أمان وسلام . .

وكانت (جمهورية أفلاطون) أولى هذه الدول النموذجية المثالية . وهى جمهورية دكتاتورية رجعية صارمة . وعندما أعطيت لأفلاطون فرصة أن ينشئ هذه الدولة كما يريد فشل . . وبذلك ثبت لدينا : أن الافكار الجميلة ليست دائمة هى السهلة التنفيذ . . فهناك مسافة كبيرة جدا بين الجمال والواقع .

فصاحب النظرية ليس دائما هو أصلح الناس لتطبيقها .

وظهرت جمهورية توماس مور . . وقد أقام هذه الجمهورية فى القرن السادس عشر فى أمريكا التى اكتشفت أخيرا . .

وكذلك ظهرت دولة مثالية لجورج اورديل أسسها سنة ١٩٨٤

وكذلك هكسلى أقام دولة جديدة اسمها (عالم جديد شجاع)

والمعنى هو أن الواقع لايرضى المفكرين ولا يرضى الناس . ولذلك حاولوا تحطيمه واجتيازه إلى ما وراءه . . أو أنهم حاولوا إعادة العصور

الذهبية للشعوب . . ولكن المحاولات كلها فشلت ! ولذلك ازداد الشك عند الناس . . الشك في صحة النظريات الإصلاحية ، والخوف من التطور العلمى الذى يزيد الإنسان تعاسة وفي نفس الوقت يجعله يعيش في قنبلة موقوتة . . القنبلة من صنعته . . وعندما تتكدر الأسلحة في كل مكان يكون الخوف من الدمار هو الذى يدعو إلى السلام . .

أى توازن قوى الرعب في العالم ، هو الذى جعل الحرب أمرا صعبا . . فكانت الحرب الباردة . . أى الخوف والشك دون إطلاق رصاصة واحدة !

ونحن الآن نعيش في عصر ما بعد الحرب الباردة . . ولكن ما يزال في العالم كله مساحات من النار والدخان بين الشعوب . . شىء جديد قد ظهر في دنيا التربية والتعليم . هذا الشىء هو : فجوة التخصص . . فالمعلومات والمعارف الإنسانية زادت زيادة هائلة ، حتى أصبح من الصعب على أى واحد أن يلم بكل شىء في علم من العلوم . . ولذلك كان لابد من التخصص . . وتقسيم التخصص إلى أجزاء كثيرة لئلا من التخصص في جزء منها . .
ففى الطب ألف فرع . .

وكان الناس قديما يطلقون على الطبيب والفيلسوف معا : الحكيم . أى الرجل الذى يتسع عقله وخياله لمعرفة كل شىء . . فهو طبيب وهو أديب وهو فيلسوف وهو فلكى وهو قائد عسكري ؟ !

وعندما كنت مدرسا للفلسفة في الجامعة كان لابد أن أستعين بالأدب والشعر والرسم وقصص التاريخ ومعالم الجغرافيا لكي أشرح الأفكار المجردة الصعبة . . فلو عرضتها كما جاءت في الكتب الفلسفية لكان الأمر صعبا ولظلت غامضة . . فالتخصص الفلسفى الضيق يجعل الطالب والمدرس في عزلة عن بقية المعلومات الأخرى . .

وكننت أختار النكت والنوادر والأغاني . لماذا ؟ إننى أريد أن أكون
مفهوما . وأريد ألا أبعث على الملل . وألا يهرب الطالب من الأفكار
الفلسفية الغامضة المجردة . .

وفى الفلسفة الوجودية اثنان من الفلاسفة هما نموذجان لذلك :

الفيلسوف الألماني ماريين هيدجر . جاف . منطقى . غامض .
صعب جدا أن تفهمه . وإذا فهمته أن ترجمه إلى أية لغة أخرى .

والفيلسوف الفرنسي سارتر . . فهو أديب وفنان وعبارته جميلة وصوره
الأدبية والأمثلة من الحياة اليومية تسعفه وبسهولة . . ثم كانت له قصص
قصيرة وروايات ومسرحيات . . ولذلك كان بارعا بليغا ممتعا ومقنعا
أيضا . مع أنه لم يفعل أكثر من أن ترجم الفلسفة الوجودية الألمانية إلى
لغة فرنسية أدبية سائغة !

وعندى تجربة أخرى . .

فقد عكفت أدرس كيف نشأ الكون . لا أعرف . وتمنيت أن أعرف .
ومعلوماتى مهما كانت فهى ليست مؤكدة . ولا أحد عنده معلومات
نهائية . وإنما العقل والخيال والتكنولوجيا تحاول أن تشهد لحظة خلق
الكون .

هناك نظرية تقول : إن الكون نشأ من ١٥ ألف مليون سنة — أرضنا
هذه من أربعة آلاف مليون سنة .

ولكن لاتعرف إن كان قبل هذا الكون كون آخر . . واحد أو ألف
مليون كون .

ونظرية تقول : إن الكون بدأ بانفجار كبير . . أى أن مادة شديدة
الكثافة كانت موجودة . وفجأة انفجرت فتطايرت أجزاء الكون على شكل

تراب وغازات . . واندفعت ساخنة تبرد . . وباردة تتجمد وتتعلق بعضها ببعض وتتكون فيها كتل جبارة تدور حول نفسها وحول بعضها البعض فتكونت الأجسام السماوية . . ملايين ملايين ملايين النجوم . . مجموعات على شكل مجرات . . والمجرة الواحدة بألوف ملايين النجوم في حجم الشمس . . ومعظم هذه النجوم تدور حولها كواكب كالقمر حول الشمس . . وفي المجموعة الشمسية وحدها أكثر من خمسين قمرا . .

ومن هذه الغازات واتحادها مع التراب ومع المعادن والشحنات الكهربائية والمغناطيسية تكونت كل هذه الكتل الجبارة تدور حول نفسها . وتدور حول مركزها . . فالأرض تدور حول الشمس . . والشمس تدور حول نفسها أيضا . . وفي نفس الوقت حول مركز في داخل المجرة التي نحن جزء منها . . والمجرة كلها تدور حول نفسها ، وحول مركز في المجرات الأخرى وبين كل هذه الكتل الهائلة غازات خفيفة . . وتراب . . فمن التراب جاء كل شيء ، وليس الإنسان إلا مرحلة من مراحل تطور التراب إلى خلايا عضوية . . وخلايا أحادية وخلايا مركبة . . معقدة متطورة . . وإلى حياة النبات والحيوان والإنسان . .

فوجدت أنني عندما قررت أن أدرس كيف نشأت الحياة من التراب . لابد أن أقرأ في الجولوجيا والفلك والفيزياء والكيمياء والأحياء والرياضيات . . وتاريخ كل هذه العلوم لأن تاريخ أى علم هو جزء منه . . كما أن تاريخك أنت جزء منك . . بل هو أنت في مرحلة من مراحل العمر . .

ويسبب هذه المجالات الهائلة الواسعة من ماثات النظريات كان لابد من التخصص . . وفي علم الفلك أناس متخصصون في المذنبات وتكوينها وسقوطها على الأرض . . وأناس يتخصصون في البقع السوداء وهي النجوم الهائلة التي تقلصت وتداخلت بقوة عظيمة وراحت تبتلع

النجوم الأخرى . . وفي الكون ما لانهاية له من هذه (البالوعات) الفلكية التي تملأ كل شيء وتكثفه وتجرب حتى الأشعة فلا تخرج منها ولذلك تبقى مظلمة . . فإذا كان الكون مايزال يتمدد بسبب الانفجار الهائل من أول انفجار ، فإن هذه البقع السوداء توقف التمدد وتسحب الكون إلى داخلها . . وهي بداية انفجار إلى الداخل . . أو انكماش جبار . . ليعود الكون كما بدا . . كتلة صغيرة لانهاية لكشافتها وقدرتها على الانكماش والانضغاط . .

ولا يوجد في الكون فراغ . . ولا فضاء . . وإنما الكون مليء . . امتلاء . . وفي الكون مادة سوداء . . هذه المادة السوداء مكونة من جزيئات أصغر من الذرة ألف المرات . . هذه المادة السوداء هي اللحاف الذي يغطي به الكون . . وهي في نفس الوقت الحائط اللانهائي الذي يصد الكون عن الامتداد والتطويع بعيدا . .

تماما كما ترى النيل يصب في البحر الأبيض . . النيل يدفع مياه البحر بعيدا . . ولكن البحر بقوة يوقف زحف النيل . . ويوقف تدفقه . . وكذلك المادة السوداء تستسلم لاندفاع المجرات والسدم . . ولكنها في نفس الوقت توقف اندفاعها . . وسوف يحدث ذلك بعد ألف ملايين السنين . . حتى تهدأ اندفاعات الكون أو تسكن وحيث تقع فريسة للجاذبية أكبر . . فينكفي الكون ويتقلص ويتكيف ويصبح بقعا سوداء لانهاية لها . .

فكم مرة ياترى انطلق الكون ممزقا . . وكم مرة التام الكون مجمدا . . وكيف ؟

العلماء يستعدون كلمة (الله) ويرون أن الله كلمة غير علمية . . لأنهم ما داموا لا يرونه ولا يجرون حوارا معه . . فلا مكان له في هذا الكون ؟

ولكن كيف بدأ الكون ؟ ومن الذى بدأ البداية ؟ ومن الذى أصدر القرار بالبداية . . ومن الذى أودع فى الاشياء قوانينها . . من الذى جعله مادة وغازا وخلية . . ومن الذى أعطى الخلية حياتها . ومن الذى نقل الخلية الواحدة إلى ألوف ملايين ملايين الخلايا فى ذبابة . . من الذى جعل للكون كله قوانين ونظريات . .

لابد أن نقول : الله . .

لامفر . فلا يمكن للتراب أن يتحول من تلقاء نفسه إلى إنسان . . فنحن جميعا من تراب النجوم . . ونحن التراب الوحيد الذى يعرف هذه الحقيقة . . يعرف أنه من تراب وأنه إلى التراب يعود . . وأن الكون لكى يعرف نفسه كان لابد أن يخرج من بين ذراته كائن عاقل هو الإنسان . . وهكذا أجد نفسى مضطرا لأن أقرأ كثيرا جدا لكى أتحدث عن التراب فقط . .

ولكن هذه معلومات عامة . أما العلماء فلا بد أن يتخصصوا فى أضيق نطاق . وهذا المكان الضيق ملئ بالنظريات والاجتهادات . .

ومن التخصص الضيق عزل العلماء بعضهم عن بعض . . وأصبح لدى الناس فراغ . .

وأصبح من مشاكلنا أن نتعلم ما الذى نفعله فى هذا الفراغ . .

الإنسان قبل عصر الزراعة كان عنده وقت طويل . . لأنه يعتمد على ثمار الغابات . . وعلى الطيور . . فكان لابد أن ينتظر ظهور الثمار وعودة الطيور . .

ولكن عندما وصلنا إلى عصر الزراعة امتلأ وقت الإنسان بالعمل . . ولم يعد لديه وقت لأى شىء آخر . .

وعندما ظهرت الآلات الحديثة ، احتلت مكان الإنسان . . فأصبح هناك فراغ كثير . . وعاطلون أكثر . .

وفي عهد التطور الصناعى الهائل الآن سوف يحل الإنسان الآلى محل الإنسان ولا بد أن يواجه البطالة بسبب ما اخترع الإنسان من أجهزة يقوم الواحد منها بما يقوم به ألوف الناس معا . . فالعقول الألكترونية تقوم بمعظم أعمال الإنسان وفي لحظات . . فالإنسان اخترعها لكى تختصره هو!

ولم يعد الإنسان ينتظر انطباق قوانين الطبيعة على الأشياء ، إنه يتعجلها . . وقد ظهر ذلك عندما اخترع الرجل اليابانى ميكوموتو طريقة للتعجيل بنمو حبات اللؤلؤ . . فحيوان اللؤلؤ يحتاج ثلاث سنوات لكى يقدم لنا حبة كاملة . ومن لون واحد .

وقام هذا الرجل باختصار هذه العملية . . فحيوان اللؤلؤ عندما يأكل فإنه يفتح المحارة التى يعيش فيها ليدخل القليل من الغذاء ومن الماء . . ويحدث أن تدخل ذرة صغيرة إلى جسمه الناعم الرقيق جدا فتؤلمه . . ويظل يفرز مادة فضية لكى تعزل هذا الجسم الغريب عن جسمه . . سنة وثلاثا . فما كان من هذا الرجل إلا أن وضع كرة صغيرة من الصدف فى جسم هذا الحيوان وتركه معلقا فى المياه الهادئة الدافئة - التى أعدها خصيصا لذلك . . ولمئات الألوف من حيوانات اللؤلؤ . .

وكان ذلك نقطة تحول فى الصناعة - عندما تدخل الإنسان فى وظيفة الحيوان . .

وجاءت الهندسة الوراثية فتدخل الإنسان فى تركيبات الخلايا النباتية والحيوانية أيضا . . وقد رأيت فى جزيرة تايوان أنهم نجحوا فى تعظيم تضخيم (السمك البلطى المصرى) . . فجعلوه أطول وأعرض وأكثر وزنا

وشحما ولحما . . ورأيتهم كيف حلوا مشكلة الجمبرى الذى يرزعونه
وعندما يكبر ينطلق إلى المياه الدولية فيجد الصيادين من جميع أنحاء العالم
في انتظاره لأنه انتقل إلى المياه الدولية . . فتدخل علماء تايوان عن طريق
الهندسة الوراثية وجعلوا الجمبرى عندما يكبر بدلا من أن يتجه إلى المياه
الدولية يرجع إلى شواطئ تايوان ويدخل في بحيرة صناعية كبرى !

ومنذ الثورة الصناعية والإنسان عنده متسع من الوقت . .

وجاءت ثورات العمال تحتم الإجازة الأسبوعية . . يوما أو يومين

ويقول عميد المؤرخين أرنولد توينبى إن أعظم حادث وقع في أمريكا في
نصف هذا القرن أن السكوتيرات في نيويورك رفضن العمل بأجر في الإجازة
الأسبوعية . وكان الرفض دليلا على أن الإجازة أهم من الفلوس . . وأن
الراحة ضرورة . . أو أنها حق قانونى وضرورة اجتماعية . . وأن الواحدة
منهن لا تبسيع حربتها بأى ثمن . . وكان معنى ذلك أيضا أن أصحاب
العمل يريدون شراء العامل بأى ثمن . !

وهناك فرق كبير بين أن تكون في إجازة فعندك فراغ . . وبين أن تكون
عاطلا وعندك فراغ . .

فالفراغ الأول مكافأة لك

والفراغ الثانى عقوبة لك . .

ومهمة التعليم والتربية الآن هى ما الذى يجب أن نفعله في الفراغ .
حتى لا نترك الفراغ يفعل ما يشاء . .

وإذا كان الفراغ طويلا فإن قوى أخرى تملأ الفراغ . . لأن العقل
لا يقوى على البطالة . ولا يقوى على البلادة . . فطبيعة العقل أن يفكر .
فإذا لم يجد ما يفكر فيه ، اخترع ما يفكر فيه ، أو يسلط عليه من يدفع
عقله للتفكير . . وبدلا من أن يكون هو الذى اختار مادة التفكير ، يختار

له آخرون . . والتمن أن يكون عبدا لهم - فقد أنقذوه من الضياع . . ولا بد
أن يدفع ثمنا لذلك !

فقد حدث حتى في أمريكا عندما هرب الشباب من الجيش أو من
الأسرة أو من المؤسسات أن يسقط هؤلاء الشباب ضحايا لأفكار سابقة
التجهيز لتخريب الشباب . أو تخريب الدولة . .

وهذا ما حدث بالضبط عندما ينجى الشباب من الريف إلى القاهرة .
العاصمة كبيرة مخيفة . فيشعرون بضآلتهم وضياعهم فيتلقفهم شبان
آخرون عندهم حلول سريعة وجاهزة لمشاكلهم . . وينحرف الريفيون
الوافدون إلى العاصمة . . وفي ذلك إهدار لحاضرهم ومستقبلهم .

لولا أنه حيوان جنسى ما حشّت هذه البشرية !

الإنسان حيوان اجتماعى . .

وليس هو الحيوان الوحيد الاجتماعى ، وإنما هناك حيوانات أخرى كثيرة تعيش معا . . وتأكل معا وتصيد معا . . فالأسود تعيش على شكل عائلات صغيرة . . الأب والأم والأشبال . . الأم هى التى تقوم بالصيد وإطعام أسرتها الصغيرة . . والأب هو الذى يحمى الصغار عندما تغيب الأم ساعات أو أياما لكى تأتى بالفريسة . . والأسد أول من يأكل والأم آخر من يأكل . .

وقد تكون الأم وحدها مع صغارها . . أما الأب فقد مات أو تقدمت به السن . . وقد يحدث أن تتولى الأم تربية صغارها وصغار أم أخرى . . قد تحبب عدد من الأمهات تربيّن الصغار معا . . وكذلك الذئاب . .

ولكن الإنسان لم يتطور اجتماعيا بدرجة كافية . . فمنذ عرف الإنسان تكوين الأسرة من مليون سنة أو أكثر فإنه ما يزال على صورة واحدة : الأب والأم والصغار . . ويوم بدأت الأسرة كان الإنسان يمسك حجرا يلقي به

على الحيوانات الأخرى . . وكان يمسك عصا يضرب بها الثمار فوق الأشجار ، لكي تسقط على الأرض . .

ولكن هذا الحجر الذى كان يمسكه قد تطور . . فأصبح الحجر هو المسدس وهو البندقية وهو الصاروخ ذو الرؤوس النووية . . لقد تطور سلاح الإنسان . ولم يتطور الإنسان نفسه فالتكنولوجيا وهى علم صناعة أدوات الإنسان قد قدم له مالا نهاية من أدوات الأكل والشرب والملابس

والانتقالات بين السماء والأرض وتحت الأرض وتحت الماء . . وكان الإنسان يصرخ ينادى زملاءه . . ولم يعد الإنسان يصرخ . إنه يهمس فى التليفون السلكى واللاسلكى . .

فهل الإنسان اجتماعى أولا ، وإنسان بعد ذلك ؟ أو هو إنسان أولا واجتماعى بعد ذلك !

إنه اجتماعى أولا . ولولا أنه كان اجتماعيا ما كان إنسانا . . فهذا الترابط بين الأب والأم والطفل . . وهذه العلاقات التى قامت على التماسك ومواجهة الأعداء بين الحيوانات وبين الآخرين . . ما اكتسبت هذه القدرة على البقاء ومواجهة الأخطار وابتكار أساليب الاتصال والترابط والتفاهم . . كاللغة أو تبادل المصالح أو التكيف مع الظروف أو مواجهة التغلب عليها . . لولا هذا ما كان الإنسان إنسانا . . ولو عاش وحده لا نقرض . . ولو رفض أن يكون أبا أو يكون زوجا أن يحمى الزوجة والولد . . وأن يكون له كهف . . بيت . . أرض . . مستقلة يدافع عنها ليعيش هو وتعيش ذريته ، ما كان قادرا على أن يظل إنسانا عاقلا ويزداد عقلا وقدرة على الفهم والإصرار على الحياة وابتكار أساليب الدفاع عن نفسه وعن الذى يملكه . . حتى عندما يثور الإنسان ضد الأسرة وضد القيود الاجتماعية ، فإنه يبنى أسرة من نوع آخر . . ولكن يظل

اجتماعيا . . فالشباب المعاصر الساخط الذى يرفض الأب والأم ماذا يفعل؟ انه يسارع بأن يكون أبا وأما من نوع آخر . . فتكون له أسرة صغيرة . . تعيش على الرصيف أو على أطراف الغسبات أو فى الاصطبلات ، كما يحدث فى أمريكا . . وقد يرفض قيود الزواج . . وتكون له حبة بلا وثيقة . . ولكنه يظل أبا ويظل زوجا . .

فحتى عندما يثور على الأسرة يختار لنفسه أسرة ، وحتى عندما يثور على البنوة والأبوة معا ، يكون أبا وله أبناء . .

ولايزال المجتمع أقوى من الأفراد . .

ولذلك فمن الصعب تغييره . .

ولكن من السهل تغيير الأدوات التى يعيش بها المجتمع . . فالسكين التى كانت مصنوعة من الحجر أصبحت صواريخ . .

وكان الإنسان يمشى على قدميه . . أو يركب حصانا . . وأصبح الحصان سيارة وطيارة وسفينة فضاء . . وبقي الإنسان كما هو . .

بل من العجيب أن تجد أن أول إنسان نزل على سطح القمر قد علق فى رقبته (خرزة زرقاء) خوفا من الحسد . . وأعطته أمه (إيشارب) يضعه تحت البدلة الفضائية المكيفة الهواء والضغط حتى يعود إليها سالما . . أما هذا الإيشارب فقد ذهبت به أمه إلى عدد من الكنائس وباركت الإيشارب . . بينما هذا الرائد قد تسلطت عليه ألوف العقول الألكترونية ترصد دقات قلبه . . وأية فطرة عرق على وجهه . . فكل العلم الحديث مسخر لحماية حياة هذا الإنسان ذهابا إلى القمر وعودة منه . . وقد تكلفت هذه الرحلة ألوف الملايين من الدولارات من أجل سلامته . . بل من أجل تراب جزمته . . تراب القمر . . ومع ذلك ، فاعتقد هو وأمه أن الإيشارب هو الذى سوف ينقذ حياته من الموت !

فهو قد ركب أحدث ما اخترع العقل الإنسانى ، ووضع فى رقبته أول ما عرف الإنسان . . من الإيمان بالخرافة . . والعلم والخرافة فى سفينة واحدة . . والخرافة تدل على أن الإنسان نفسه لم يتطور ، وعلى أن أدوات الحياة والانتقال والاتصال هى التى تطورت وسوف تتطور إلى ما لانهاية !

ونحن كيف ندير المجتمع . . وكيف نتحكم فى العلاقات الاجتماعية؟

إن السياسة هى علم وفن إدارة العلاقات بين الناس . .

وهناك إدارة مباشرة . . كما يحدث فى الريف . . إنها الديمقراطية البدائية . . يجمع العمدة ويجمع الناس ويتفاهم معهم . . ويناقش ويأخذ الرأى ويحكم . .

وهذا ما يحدث فى المجتمعات الصغيرة . . ولكن فى المجتمعات الكبرى . . فى الدول . . لايمكن للحاكم أن يجمع الملايين ويناقش ويستمع إلى الرأى والرأى الآخر . . وإنما لابد من أن ينيب الناس عنهم من يتحدث باسمهم فى البرلمان . . فالمئات ينوبون عن الملايين . .

وهناك ديموقراطيات متعددة . . ومذاهب سياسية كثيرة . . ولكن هذه الديمقراطية محدودة وكذلك فلسفات الحكم . . والدساتير أيضا محدودة . .

وهذا يدل على أن التطور الاجتماعى محدود الأفق ضيق الرقعة . . أما التطور العلمى فلا حدود له . . إنه كل يوم يضيف جديدا . . فلا يزال الإنسان اليوم ، كما كان من ألوف السنين . .

والعلم قد ساعد على قوة الإنسان وعلى وفرة الطعام والشراب والملابس والخدمات . .

ولكن لم تكن نتصور أن العلم سوف يجعل الإنسان متوحشا مدمرا . .
فقد كنا نحلم بالحب والرحمة والعدل والصداقة والمودة والسلام . . ولكن
أصبحت الحرب هي القاعدة والسلام هو الاستثناء . .

وأصبح السلاح المميت في كل بيت وفي كل سيارة . . وفي الليل
والنهار ينطلق الرصاص على الأبرياء . . ولم يعد القتلة رجالا فقط وإنما
الشبان والأطفال يقتلون أيضا .

بل إن الإنسان يرتضى الظلم ليشترى به الأمان والحياة . . فالتناس
يختارون من يحميهم مهما كان الثمن . . وقد رأينا في أمريكا وفي مصر نهاج
لذلك . . فرأينا في مصر من يخيف الناس ثم يفرض عليهم نفسه
لحمايتهم . . فهو الذى أخاف الناس وهو الذى روعهم ، ثم هو الذى
فرض الحماية عليهم . . حدث ذلك في مدينة امبابة . . عندما قام أحد
الإرهابيين وادعى لنفسه دورا دينيا وأخاف الناس بعيدا عن عيون الأمن . .
وكنتم أنفاسهم وفرض عليهم أن يدفعوا له فلوسا وإلا . .

وكثير من الجماعات الإرهابية التى اتخذت شعارا دينيا . . استولوا على
عقول الشبان السذج القادمين من الريف . . وأعطوهم المال والمسكن
والزوجة . . وفرضوا عليهم حكما طاغيا . شىء عجيب . . فهؤلاء الشبان
الصغار الذين رفضوا سيطرة الأب والأم والمدرس ، عندما جاءوا إلى القاهرة
ارتضوا ما هو أكثر تسلطا من الأب والأم والمدرس . . رفضوا السلطة
الأبوية ، وخضعوا للسلطة الإرهابية . .

وحدث في أمريكا أيضا : أن ظهر نصابون أذكاء . . اعتمدوا على
ضيق الشباب بسلطة الدولة والأسرة والمدرسة والكنيسة والمؤسسة ، وقدموا
لهم نموذجا من الحياة بلا قيود . . نموذجا للحياة بلا فلوس . . قدموا لهم
طعاما مسروقا وشجعوهم على السرقة . . وحتى لا يفكروا فى شىء قدموا

لهم المخدرات دخانا ومسحوقا وحقنا . . وغاب الشباب عن الوعي وعن الفهم . . ثم قدموا لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . . لافى مدن أمريكا ولكن فى غاباتها . . لافى غاباتها وإنها فى حاناتها . . وانتقلوا من أمريكا الشمالية إلى الجنوبية فى زوارق ودخلوا غابات الأمازون لالكى يبنوا دنيا جديدة . . إنما ليقيموا لأنفسهم قبورا تخفى انتحارهم الجماعى !

ولكى يظهر طاغية سياسى أو نصاب دينى - أى باسم الدين أى دين . لابد من نظرية . . هذه النظرية يؤمن بها كثيرون . . ثم يقفز هذا الطاغية لحماية النظرية والمؤمنين بها . . وحماية نفسه وتأكيد ذاته على جثث الآخرين . .

فالشيعوية أفرزت لينين وستالين .

والفاشية قدمت موسوليني . .

والنازية قدمت هتلر . .

والنظرية التى تقول إن المجتمع أقوى ، معناها أن المجتمع هو الذى يخلق تطور الإنسان أو يتحكم فى سرعة التطور . . وأن المجتمع هو القوة المحركة لكل ما هو إنسانى . . فهو سبب القوة وسبب المرض . . والإنسان يحاول أن يغير ظروفه ويتغير هو أيضا . . فالإنسان الذى اخترع السيارة قد رصف لها الشوارع ووضع لها علامات المرور وجعل لها الورش والمصانع . .

ولكن هناك نظرية أخرى تقول : ليس المجتمع قادرا على كل شىء . . فالإنسان يولد فيكتب بيده اليسرى . . وليس السبب اجتماعيا ولا عائليا ولا تربويا . . وإنما هى مسألة خلقية بكسر الخاء . . أى أن هناك شيئا فى المخ هو الذى يجعل الإنسان يكتب باليمنى أو باليسرى . .

والنظرية تقول أيضا إن الشذوذ الجنسي ليس سببه التربية الممزقة أو العلاقات الشاذة في الطفولة . . وإنما الإنسان يولد شاذاً أو يولد سوياً . . فالسبب موجود في المخ وليس خارج الإنسان . .

فالمجتمع ليس هو صانع الإنسان ، مزياه وعيوبه . .

والتعليم والتربية والثقافة ما فدنننها ؟ إنها تعطى الإنسان حرية الاختيار فالمتعلم هو الذى يختار والجاهل هو الذى لا يختار والمتعلم هو الذى يمارس إرادته الحرة فى الاختيار . .

والطغيان معناه أن شخصا واحدا يختار للمجتمع أيضا . . فهو قد استولى على إرادة الجميع ، وبالنيابة عنهم وعلى الرغم منهم هو الذى يقرر وهو الذى يختار . . وعندما يفعل ذلك يكون قد ألغى التعليم وألغى التربية . . فأصبح الناس جميعا وكأنهم جهلة عجائز لا يختارون . . أو أصبحوا آلات بلا عقل ولا إرادة !

ونحن لانقول عن الأم التى تفرض على صغيرها كل شىء ، إنها أم طاغية . لأن الطاغية هو الذى تقوم إرادته بدور عصا موسى تأكل الأفاعى التى أطلقها الآخرون . . تلتهم حريات الآخرين . . ولكن الطفل لا إرادة له ولا حرية . . ولذلك تتولى الأم كل شىء لصالح الطفل . . وعندما ينمو الطفل تكبر شخصيته وإرادته . . ويختار لنفسه . . ويؤكد ذاته فيرفض ما تختاره الأم والأب . . وتدفعه حرية الاختيار إلى المعارضة والرفض والعناد . ويقف ضد الأب والأم . لا لأنه على صواب والآباء على خطأ . . ولكن لأن الصواب عنده هو أن يختار وأن يتمسك بقراره حتى لو كان خاطئا . فالصواب هو ما يراه والخطأ هو ما يراه الآخرون !

والإنسان بتكوينه متمرّد . . رافض للقيود . .

ولكن لابد من الانضباط واحترام القانون . ولولا ذلك ما كانت حياة اجتماعية ، ولا كانت زراعة أو صناعة أو رخاء . وكل الحضارات القديمة التي ازدهرت كان السبب هو الانضباط وهو الاحترام الذى يبلغ درجة التقديس لكل ماهو قانون وكأن القانون هو الدين . .

حدث ذلك فى حضارة العراق وفى حضارة مصر الفرعونية . .

وهذا الحرص على النظام هو الذى حتم وجود رجال للأمن . هؤلاء الرجال قد دربناهم على مواجهة مواطنيهم وضربهم وقتلهم ، لا عن عداة شخصى . . ولكن باسم حماية الدستور والقانون . .

والإنسان إلى جانب أنه اجتماعى ، فهو حيوان جنسى أيضا . ومن غير جنس لا تكون حياة . فلا بد أن تكون هناك علاقات جنسية لينتكاثر الإنسان . . بينا (الامبيا) وهى أحادية الخلية تتكاثر تلقائيا دون جنس . وهى لاتموت وإنما تنقسم وتنقسم إلى ما لانهاية . . ولو قدر لهذه الخلية أن تفكر وأن تقارن بينها وبين الإنسان لظنت أنها أعظم من الإنسان لأنها خالدة والإنسان ولد ليموت . .

ولكى يتحقق الجنس لابد أن تكون هناك جاذبية جنسية - أى ما يجذب الرجل نحو المرأة والعكس . . أى لابد من (نداء) الجنس . . وفى عالم الحيوان أيضا : نجد الذكر أكثر فخامة وأبهة :

انظر إلى الأسد وإلى الديك . .

وهناك وسائل كثيرة لجذب الجنس : بالألوان والعضلات والعطور وبالاستعراضات الراقصة أو الغنائية . .

ولكى يصلح الإنسان من الأوضاع الاجتماعية ، فلا بد من تعديل دور المرأة . . أى المساواة بينها وبين الرجل ، فلا تظل مقهورة ولا تكون عبدا فى

خدمة سى السيد الرجل . . ولذلك فكل المشروعات الإصلاحية تبدأ
بالمرأة . . وتبدأ بتحقيق المساواة والعدل وتكافؤ الفرص . .

ولكن ظل الرجل هو الأقوى عضليا وهو الأقوى عقليا . . إما لأن
تكوين الرجل هو الذى جعله أقوى . . أو هى وظيفة الرجل فى الحياة
وحماية الأسرة والعمل . . وربما كان الحمل والولادة والرضاع كلها قد
جعلت المرأة أضعف . . ولأنه الأقوى كان الأكثر تفوقا وإبداعا وبقاء فى
القمة . .

ولكن العلم الحديث قد جرد الرجل من هذا السلطان فالعضلات لم
تعد ميزة من مزاياه . . فالأجهزة الحديثة أصبحت تقوم بكل العمل . .
وأصبحت فى خدمة المرأة فأعطتها القوة التى سلبها الرجل منها . .

وفى الأساطير الإغريقية نجد أن نوعا من النساء اسمهن : بنات
الأمازون . . أو الأمازونيات - أى اللاتى ليست لهن أئداء . . والمرأة لكى
تكون قوية وحتى لا تكون أما تحمل وترضع فقد قطعت ثدييها . . لتكون
لها قوة الرجل ولكى تجرد نفسها من ضعف الأم الحامل والأم الوالدة
والمرضعة . .

ومن عشر سنوات تظاهرت النساء فى نيويورك يطالبن بالمساواة بالرجل
فكشفن عن صدورهن . . والمعنى : إذا كان الرجل يرى أن المرأة ليست
إلا صدرا ناهدا . . فهى لاهتم بذلك . . وتكشف عنه . فإذا كانت هذه
هى نقطة ضعفها فهى فى غنى عنها . . ولايهما كثيرا إن كان ذلك يثير
الرجل يثير رغبته أو يثير احتقاره . . إن الأئداء ليست من اختياراتها وإنما
هى مفروضة عليها . . وهى ترفض ذلك . . وفى نفس الوقت تعرضها
مجانا لكل الناس . . فهى أولا وقبل كل شئ إنسان له حقوق الرجل . .
وليست إنسانا لمجرد متعة الرجل . . فقد وضعها الرجل فى هذا الإطار
ألوف السنين . . لقد جعلها (شيئا) لذيذا . . لمجرد أن لها نهدين بارزين

والأما زونيات كائنات أسطورية لا وجود لها . . ولكن المعنى الذى قصده الإغريق هو الذى بهم . . إن المرأة كانت مشكلتها دائما أنها أضعف من الرجل ، وأن الرجل يريد لها كذلك . . وهى ترفض هذا الذل والهوان . .

والمرأة هى التى اخترعت الزراعة وهى التى أقامت البيت . . فعندما كان الرجل يصيد الوحوش فى الغابات ، كان الوقت متسعا أمام المرأة . . فهى التى سوت الأرض وزرعتهما . . ولأنها الأم . . ولأنها تخاف على وليدها ، فهى التى أحاطت نفسها بالأحجار وفروع الشجر . . وكان ذلك أول بيت فى التاريخ . . وفى غفلة من المرأة صنع الرجل للباب تراسا وقفلا وجسها وراء الباب ألوف السنين . . فتأخرت أو توقفت وتقدم الرجل وانطلق إلى قمة كل علم وفن . . ولم يصل إلى القمة من النساء إلا القليلات . .

سؤال : هل سبب تخلف المرأة أنها أنثى . . أنها أم تحمل وتلد وترضع ؟ هل هذا هو السبب ؟ هل لو وجدنا وسيلة أخرى لأن تحمل المرأة صناعيا . دون حاجة إلى الرجل ، أو هل لو استطعنا أن نربى الأطفال فى الأنابيب دون حاجة إلى المرأة ، هل يؤدي ذلك إلى تقدم المرأة وتفوقها ؟

إن الرجل يرفض إلغاء دوره نهائيا . . يرفض أن يجد نفسه من الإنسانية . . من الحب والحنان والإعجاب . . والمرأة أيضا ترفض ألا تشعر بالأمومة . . وألا تشعر بالأنوثة . .

وإذا كانت علوم الهندسة الوراثية قد تمكنت عن طريق التعديل والتبديل فى تكوين الخلايا فنجحت فى تخليق نباتات وحيوانات جديدة ، فإن الإنسان يخاف من تخليق كائنات متوحشة . . أو تخليق سلوكيات لا إنسانية . . إن هذه المغامرات العلمية تجعل الإنسان يشعر بالعار . . بالخزي والخجل من نفسه . . بالخوف على إنسانيته التاريخية . .

لقد حاولت إسرائيل عن طريق بناء المستوطنات أن تجرد الأطفال الصغار من التعلق بالأم وذلك بأن يعتاد على وجود أطفال بلا أمهات وإن توجد مربيات . . وأن تراه الأم مرة كل أسبوع . . وألا تحمل له هدايا . حتى لا يمتاز عن غيره من الأطفال . . وحتى يتحرر الطفل تماما من الارتباط بالأم ، وتحرر الأم تماما من الارتباط بابنها . .

ولكن هذه التجربة فشلت . . فقد خلقت أطفالا في غاية التعاسة . . وآباء أيضا . فالذى يربط الطفل بأمه ، والأم بطفلها هو أعمق مشاعر الإنسانية . . هذه المشاعر العميقة هي التى أبقت على الأسرة نفسها . . أما تهفيف عواطف الطفل والأبوين ، فهو تجريد للإنسان من إنسانيته . . ومن أنبل وأروع مشاعره . .

وفى اليابان تجربة مريرة . فهم فى اليابان يدفعون بالطفل الصغير إلى الرجولة المبكرة . . فهم بسرعة يحولونه إلى رجل صغير يعمل . ولم تكن اليابان تعرف إلا أخيرا أن اختصار طفولة الطفل تضاعف حزنه وخشونته وتعاسته أيضا . . فالإيابان التى تسعد أطفال العالم بما لانهاية له من اللعب الالكترونية ليس عندها أطفال يلعبون . . أو إنها الدولة التى تضم أتعس أطفال العالم . . ولذلك استدركت اليابان بسرعة هذه الغلطة وأسعدت أطفالها حتى يكون نموهم طبيعيا . . من أطفال إلى شبان صغار إلى شبان إلى رجال ورجال ناضجين . . والذى لم يلعب صغيرا سوف يلعب كبيرا . .

ولايزال العلم الحديث المتطور يلغى المسافات بين القارات وبين الكواكب وبين الرجل والمرأة أيضا . . ويلاحق الجميع بتعديلات جديدة . . مثلا عندما أصبحت الكتابة على الآلة وعلى الكمبيوتر من احتكار المرأة . . كان لابد للمرأة أن تقص أطافرها . ولكنها تحب أن تكون

أظافرها طويلة فاخترعنا لها أظافر صناعية ورموشا صناعية وشعرا صناعيا ،
حتى تقوم بعملها دون خوف على ملامح المرأة التي تعجب الرجل . . ومن
المهم عندها أن يعجب بها الرجل ، وأن تعجب به هي أيضا . . وأن يكون
من نتيجة الإعجاب المتبادل حب عميق يسفر عن طفل واثنين وثلاثة . .
وهكذا يكون الحب شرط بناء الأسرة . . ويكون الاحترام المتبادل ، هو
سور وأبواب ونوافذ الأسرة التي عمرها مئات الألوف من السنين لتعيش
مئات الملايين . مادام الإنسان حيوانا جنسيا !

من آدم وحواء إلى صرب النجوم !

في البدء كانت الفضيحة . .

كان الشعور بالفضيحة . . فقد كانت في الجنة شجرة محرمة . ولكن الشيطان ضحك على حواء التي ضحكت على آدم ، فأكل الاثنان منها . . وفجأة اكتشفا أنها عاريان تماما . . فراح الاثنان يتغطيان بأوراق الشجر . .

وبسبب هذه المعصية نزلا إلى الأرض . . أى بعد أن افترض أمرهما . . وبعد أن ظهرا عاريين تماما كان لابد أن يخرجوا من الجنة ويكفروا عن هذه الغلطة . . هذه الخطيئة . . وكانت حياتها . . وحياتنا . . على هذه الأرض تكفيرا وتطهيرا واستمرارا في الخطايا والتكفير عنها . .

وعندما قتل قابيل أخاه هابيل . سئل : كيف حدث ذلك ؟

قال ما معناه : وهل أنا حارس لأخى ؟ . .

يعنى لا أعرف من الذى قتله . ولم يكن غيرهما في هذه الدنيا . فهو القاتل .

وترك جثمان أخيه مكشوفاً . . فجاء غراب ودفن غراباً قد مات . .
وعرف هذا الأخ القاتل أنه أقلّ فهما من الغراب . .

وقبل ذلك عندما طلب الله إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم . فسجدوا . .
إلا إبليس ، وكان كبير الملائكة ، رفض لأنه مصنوع من النور ، وآدم
مصنوع من التراب . والنور أشرف من التراب . ولكن فوجيء بأن آدم أهم
عند الله من إبليس . . وأن آدم له العقل والقلب وحب المعرفة والقدرة
على التطوير والإبداع . . وأهم من ذلك أنه ولد ليموت . . فالحياة بلا
موت قاسية . . فعندما يطول العمر وتكثر الأوجاع يتمنى الإنسان الموت
لأنه أرحم من الحياة . .

وكان آلهة الإغريق يحسدون الإنسان لأنه يموت . . أما هم فلا
يموتون . . فحياتهم عملة . . بل إن آلهة الإغريق كانوا يجعلون أنفسهم بشراً
ليتمتعوا باللذات البشرية . . فهم يحسدون الإنسان على أنه فان وليس
خالداً . والخلود حياة واحدة عملة .

وشعر إبليس بأنه مفضوح . . بأنه جاهل . . بأنه مغرور . . وأن آدم
قد مسح به التراب الذي خرج منه . . وأنه رغم التراب أشرف عند الله . .
وقد رأيت في فيلم (الكتاب المقدس) الذي كتبه الشاعر الإنجليزي
كريستوفر فراى وقامت ببطولته صوفيا لورين . . رأيت أن دم هابيل بن
آدم قد تسلسل إلى مياه الأنهار ليشر به كل أولاد آدم بعد ذلك . . فتكون
الخطيئة في دمهم . . فالإنسان مخطيء . . وحياته خطيئة . . ومحاولة هروبه
من الخطيئة التي لها أول وليس لها آخر . .

ولولا فضيحتك أنت شخصياً لكانت حياة جارك عملة . . فأنت متعته
التي لا تنتهى .

وقد تكون الفضيحة لحظة . . كأن يسقط منك بنطلونك في حفلة
عامة !

وقد تكون الفضيحة عشرات السنين كأن يسقط البطلون والحاكمة .
الشيوعية عن كل الدول التي كانت جزءا من الإمبراطورية السوفيتية . .
فقد جاء الزعيم جورباتشوف وفضح الانحلال والانتهازية والمخدرات
والفساد الشيوعي . . فسقطت الشيوعية بعد سبعين سنة من الممارسة
العنيفة . . وتمككت الدول التي كانت مربوطة بالحديد والنار والخوف . .
فكان الاتحاد السوفيتي مثل الطائر ايكاروس الذي ألصقوا الريش في
جناحيه بالشمع . . فلما اقترب من الشمس تساقط كل الريش . . وتحطم
ايكاروس كذلك كل الدول الشيوعية !

فهى أكبر فضيحة مذهبية سياسية اجتماعية في التاريخ . .

أذكر أنني عندما كنت في اندونيسيا سنة ١٩٥٩ قرأت في الصحف أن
الدولة قد أبطلت الأوراق المالية من فئة المائة والخمسين روبية . في تلك
اللحظة قفزت من المقعد إلى الجلسوس على الأرض ، فهذا هو المكان
المناسب لواحد خسر كل ماله من مال . . تماما مثل ايكاروس الذي
سقط . . فقد سقطت . . وأحسست أنني عريان وبلا غطاء . . ولا أمل
في غطاء . . واكتشفت أنني غلطان . فقد نصحوني أن احتفظ بأوراق
ذات فئات صغيرة . ولكن اخترت الفئات الكبيرة حتى لا يتكدم ويتكدس
الورق في جيبي . . ولكن ماذا كان يحدث لو تكدم الورق أو تكوم ؟ إنها
غلطة وفضيحة ذكاء فقد توهمت أنني أذكى وأنتى أقدر وأبعد نظرا من
الآخرين . فكانت هذه النتيجة . .

ومن الممكن أن تكون فضيحة دولية . . فوزير الدفاع البريطاني
بروفمو الذي يملك أسرار الحرب والسلاح والمخابرات . هذا الرجل كان
عشيقا لواحدة جميلة . . هذه العشيقة ، كانت عشيقة للملحق العسكرى
الروسى . . فكانت أسرار بريطانيا في جيب الملحق العسكرى . فضيحة
ما بعدها فضيحة . وانكشف ضعف الرجل أمام الجميع . . وضاعت
أسرار بريطانيا بسبب ذلك !

إنها ليست فضيحة رجل ولا فضيحة وزير ، ولكن عار دولة من أولها
لآخرها . . وكارثة شعب استسلم لأحد رجاله وأتمنه على سر وجوده !
وغير بروفومو كثيرون مثل الرئيس كيندى والرئيس نيكسون وولى
عهد بريطانيا . .

وهناك فضحية عصر . .

فشاعرنا العظيم المتنبي كان يعيش على مدح الخلفاء والأمراء . . إن
أعطوه مدحهم ، إن منعوه شتمهم . . ثم يذهب إلى آخرين يمدح
ويقدر . .

وكان المتنبي وهو أعظم شعراء العرب ، عاطلا . . صناعته الشعر . .
وسلخته المدح والهجاء . .

وحياة المتنبي فضحية لزمانه كله . . فالشعر لا ثمن له والشاعر
العظيم لا قدر له . . وإنما الشعر زينة الخلفاء والأمراء . . أما الشاعر
نفسه فلا شيء لا هو قادر على طبع ديوان له . . ولو فعل فإن الديوان
لا يساوى وزنه ترابا . . وهكذا عاش مئات الشعراء عاطلين . وليس
العيب فيهم . ولكن العيب فى زمانهم . . وليس نظم الشعر فى أى غرض
فضيحة لهم . . ولكنه فضحية العصر كله . .

والمقامات هى تأكيد لذلك . .

ففى مقامات بديع الزمان الهمزانى ومقامات الحريرى . . نجد البطل
رجلا يتظاهر بالفقر ويبهر الناس بعلمه ويضحكهم لكى يعطوه . . وهو
يرتزق بعد أن يجعل نفسه أراجوزا بليغا فصيحاً . . ثم يكشف الناس أنه
أبو زيد السروجى . . أو أبو الفتح السكندرى الذى يصف نفسه قائلاً :

تعارجت لا رغبة في العرج
ولكن لأفرغ باب الفرج
وأحمل حبل على غاربى
وأسلك مسلك من قد مرج
فإن لا منى القوم قلت اعذروا
فليس على أعرج من حرج
فالرجل ليس أعرج ، ولكنه يتعارج . . وليس بهلوانا ، ولكنه يفتعل
ذلك !

فليس الأدب ولا الشعر ولا البلاغة ولا الفصاحة ، ولكن إضحاك
الناس وإثارتهم ليكتشفوا أنه خدعهم وضحك عليهم . . وهم ينتظرون
ذلك . ويطلبون منه المزيد فى خداعهم . . وإلا فلن يعطوه مالا . .

ويسمى هذا الأسلوب فى التحايل على الرزق : الكدبة . .

وهذا شأن الظرفاء فى الأدب والشعر . . ليس الأدب وليس الشعر
ولكن (الكدبة) أى التكسب بالأدب وبالشعر . . أى بأن يبذل الشاعر
ماء وجهه من أجل الرغيف والكساء . .

ولم يعرف الأدب العربى رجلا تعيسا مثل (أبو حيان التوحيدى) فهو
دميم مثل الحريرى والجاحظ والبحترى وسقراط . . وهو كافر بالدنيا
وبالناس لأنه لا يجد لقمة إلا إذا بهر الناس بعلمه وحكاياته . . فإذا لم يفعل
مات على باب الخليفة أو الأمير - منتهى الهوان . وفى نفس الوقت فضيحة
لكل الناس ولكل العصر !

وقد مضى على الإنسان حين طويل من الدهر كان يشعر بأنه سيد
الأرض . والأرض مركز الكون ، إذن هو سيد الكون . . فالشمس تدور

حول الأرض . . والنجوم في السماء عبارة عن (تتر) في ثوب الفضاء . .
خلقها الله ليتفرج عليها الإنسان ويمتتع ناظره . . والفضاء أزرق لأن
هذا اللون يريح العين . .

فالكون كله من أجل الإنسان . .

وظهرت نظريات في الفلك تؤكد أن الأرض هي التي تدور حول
الشمس . . وأن الشمس تدور حول نفسها . .

وأن الشمس بها فتحات تتسع لخمسين كرة أرضية . . وأننا نعيش في
منظومة . . إنها المنظومة الشمسية التي هي عبارة عن تسعة كواكب تدور
حول نجم واحد هو الشمس . . وإن هناك أقماراً تدور حول هذه
الكواكب يبلغ عددها ٥٤ قمراً . . وإن الشمس ليست إلا نجماً واحداً
ضمن ثلاثة آلاف مليون نجم آخر في منظومة اسمها المجرة . . وإن في
الكون ألوف الملايين من المجرات . .

يعنى أن الأرض ليست مركز الكون . . وأن الإنسان ليس سيد
الكون . . وظهرت نظرية تقول : إن الكون لو كان في مساحة استاد القاهرة
فإن المجرة التي نعيش فيها ليست إلا كرة بنج بنج عند حافة الاستاد . .

وإن الإنسان ظهر على الأرض متأخراً جداً . . فالأرض عمرها
أربعة آلاف مليون سنة . .

فلو فرضنا أن عمر الكون سنة : . . أى أن الله خلق الكون في الدقيقة
الأولى من أول يناير ، فإن الإنسان يكون قد ظهر على سطح الأرض في
الدقيقة ١١ ، ٥٧ مساءً من ليلة ٣١ ديسمبر !

إنها فضيحة كونية فلكية للإنسان . . فليس هو المقصود من هذا
الكون . . وليس هو مركز الكون ولا هو سيد الأكوان . . وإنما واحد من

الحيوانات العاقلة التى سكنت الأرض . . ونحن لا نعرف إن كانت هناك حضارات قبلنا على الأرض . . ولا نعرف أيضا إن كان هذا الكون الذى عمره ١٦ ألف مليون سنة هو الكون الوحيد . . أو إن الله خلق أكوانا وأفنانا ثم أنشأ غيرها . . فلا أنا سيد الكون ولا الأرض مركز الكون . . لا هذا الكون هو الكون الوحيد الذى خلقه الله . . ثم إن هذا الإنسان الذى يولد ويموت ويخترع كل يوم شيئا جديدا ، لم يجد علاجا للانفلونزا . . ولم يعرف بعد سر الخلية الصغيرة التى يتكون منها النبات والحيوان والإنسان . . ولا هو قادر على أن يطيل عمره وأن يمنع عنه الموت . .

إلى هذه الدرجة قد تجرد الإنسان من كل أزيائه الكاذبة وعظمته الوهمية . . ووقف عاريا أمام نفسه : إنه عاقل عاجز ويقوم بتعويض هذا العجز بادعاء السعادة والأستاذية والخلود !

وظهرت نظريات تقول إن الإنسان أصله قرد . . لأنه شديد الشبه بالقرد . . ولكن هناك حلقة مفقودة - هذه الحلقة هى فترة تطور القرد إلى إنسان . . هذه الحلقة هى التى لا نعرف كيف نهتدى إليها . .

وجاءت نظريات تؤكد أن القرد وإن كان شبيها بالإنسان إلا أنها ليسا من أصل واحد . . أى أن النظرية تقول إن الإنسان ليس سيد الكائنات . . وإنما هو واحد من الحيوانات قد تطور . .

ثم إن الحياة ممكنة على كواكب أخرى فى هذه المجرة التى نعيش فيها . .

وفى هذه المجرة ألوف ملايين ملايين الكواكب مثل الأرض . . وليس بعيدا عن العقل أن تكون بها كائنات أعقل أو فى مثل عقلنا . . ولكننا لا نعرف . .

وظهرت الماركسية التى ترى الإنسان حيوانا عاملا . . حيوانا مثل كل الحيوانات الأخرى . . وعقله مثل أنياب وأظافر الحيوانات الأخرى . . وهو

يستخدم أظافره العقلية وأنياه في الحياة الاقتصادية والمسيطرة على أدوات الإنتاج والإنتاج . .

فليس هناك عقل ولا نفس . . وإنما الإنسان جهاز به عمليات كيميائية لا تتوقف . ومن هذه التفاعلات الكيميائية يكون النشاط الفكري والفنى . . ويجب أن نحشد الناس تماما كأنهم قطع . . وأن نضع لهم أنياباً وأظافر ليدافعوا عن الرغيف وعن مكانهم في المجتمع وفي الدنيا أيضاً . .

حيوانات نحن ؟ نعم . وأقل من ذلك . .

أما الدول غير الشيوعية فهي تنصب على الناس وتخدعهم بأن تقدم لهم المخدرات . . أى الدين . . فالدين أفيون الشعوب . والغرض من الدين هو حماية أموال وثروات الأغنياء . وفي نفس الوقت هناك وعد قاطع بتعويض الفقراء عن جوعهم يوم القيامة . . وكل ذلك أكاذيب - اخترعتها الرأسمالية والإقطاع معا لتسخير الناس وحشدهم للدفاع عن الأغنياء . .

ولذلك فالشيوعية تجرد الناس من هذا الأفيون وتأخذ من الأغنياء اللصوص - فكل الأغنياء لصوص - وتعطى أموالهم للفقراء . . بل وتلغى حق أى إنسان في أن يملك . . فالكل أمام القانون فقراء . . طبقة واحدة من الجوع الأذلاء العراة . .

وسقطت الشيوعية ، وأحس الناس أنهم مغفلون . .

وقبل أن تسقط الشيوعية شعرنا نحن في الدول الأخرى أن الإنسان هو مزيج من العظمة والمعرفة . . وأنه يموت جوعاً ولا يمد يده ، وأنه من أجل الكرامة يدفع أى ثمن . . وأهون ثمن يدفعه هو حياته - كنا نقول ذلك

لأنفسنا ولغيرنا . ولكن عندما جاءت الشيوعية شعر الغرب كله والعالم الغربى ، بأن الشيوعية فضحت الإنسان . . فقد هدمت مشاعره . . وإيوانه بكرامة الإنسان وعظمة الإنسان . . ففى الدول الشيوعية مئات الملايين يعيشون بلا كرامة ولا عظمة . .

فليس الإنسان دائما ومهما كانت الظروف مزيجاً من العبقريّة والكرامة والكبرياء ؟!

إنها فضيحة لنا جميعاً شرقاً وغرباً !!

ثم جاءت مدارس التحليل النفسى تؤكد لنا أننا حيوانات من الداخل والخارج . . والإنسان للإنسان ذئب وكلب وحمار . .

فالذى فعلته مدارس التحليل النفسى أنها كشفت أعماق الإنسان . . فإذا هى مظلمة . . وإذا الإنسان شرس متوحش لا رحمة معه ولا رحمة عنده . . وإن التعليم والثقافة والحضارة كلها ليست إلا نقلية وتهذيباً لأظافر ومخالب الإنسان . . وتركيباً للفرامل على كل مشاعره . .

وفى الدنيا يقتل الابن أباه ، والأم ابنها . . وتقوم المجازر دفاعاً عن المذهب وعن الدين . . وتقوم الحروب بين الشعوب التى تستخدم أعظم ما وصل إليه الإنسان من علم فى تحقيق أحط مشاعر الإنسان وأحقّر رغباته .

والناس فى الحروب كالسكير الذى يدخل البار . . إنه بكامل قواه العقلية ذهب لكى يفقدها ويقع فى الأرض ويتمرغ ويقول : أنا مبسوط كده !

وفى الحروب يستخدم الإنسان كل أدوات القتال . . أحدثها وأكثرها تطوراً وقدرة على التدمير . . ويتباهى بذلك . . ثم يحارب ويقتل الألوّف

ويموت منه الألوف . . وفي نفس الوقت تدق الطبول والموسيقى تغنيا
بالحرب المقدسة دفاعا عن الأرض المقدسة . . وإن هذه هي إرادة الشعوب
التي هي إرادة الله . . أى إن القتل كان باسم الله . . والموت هنا وهناك
دفاع عن شريعة الله . . وهكذا ترى أن القاتل شهيد والمقتل أيضا . .

وكلها تفضح وحشية الإنسان ، مهما كانت عقيدته ومهما كانت طوبوله
ومهما كان سلاحه . .

وفي حياتنا اليومية أحداث صغيرة . ولأنها صغيرة فإننا لانلتفت إليها .
وبذلك لانستخرج معانيها العميقة . أى التي في أعماقنا ثم خرجت ،
ليكون خروجها فاضحا لنا . .

تقول الأدبية الوجودية سيمون دى بوفوار إن الشعب الفرنسى قد فضح
نفسه عندما أحب برجيت باردو وجعلها ملكة للإغراء والفتنة . . فالذى
ينظر إلى هذه الفتاة يجدها طفلة . . عيناها وشفتاها ودلعها . . كلها
تؤكد طفولتها . ومعنى ذلك أن الشعب الفرنسى قد أحب طفلا . ولم
يجب أننى ناضجة . لقد أكد ذلك فساد ذوق الفرنسيين وشذوذهم أيضا !
لقد فضحوا أنفسهم . . أكدوا لنا دون أن يدروا بأنهم شواذ . . وأنهم
مرضى . !

وقالت أيضا : إن شباب فرنسا قد فضح نفسه مرة أخرى عندما وقف
طواير بالألوف يتفرج على تابوت توت - عنخ - آمون . ذلك الملك
الطفل . والذي لاقية له في تاريخ بلاده . وإنما هو صاحب المقبرة
الوحيدة التي اكتشفوها سليمة . فالمقبرة هي التي وهبت الشهرة والحياة . .
والشباب الفرنسى وقف مفتونا بما يرى . . لماذا ؟ لأن الشباب الفرنسى
يتفرج على نفسه ، فالملك توت طفل . . وهو صاحب التابوت الوحيد
الذى لم يجد فيه الباحثون عضو الذكر . . بينما كل التوابيت الفرعونية قد

بقى لأصحابها هذا العضو . . إلا توت عنخ آمون . . فهو نموذج للعجز
الذى عند الشباب الفرنسى . وكأن حب الشبان للملك توت ، هو حبهم
لأنفسهم . . وكشف لهم . . لحقيقتهم الجنسية والنفسية !

وأشهر فضيحتين فى الأديبن القديم والحديث فضيحة لوكريشيا والتى
اتخذها الأدباء والشعراء والرسامون موضوعا لهم . . ومن أحسن الذين
تناولوا فضيحة لوكريشيا الأديب الفرنسى جان جيرودو عميد المسرح
الفرنسى . فكتب مسرحية بعنوان (من أجل لوكرس) . وقد ترجمتها أنا إلى
العربية بعنوان : (من أجل سواد عينيها) . .

ثم فضيحة أفستاسيا فى مسرحية للأديب السويسرى ديرينات بعنوان
(زيارة السيدة العجوز) . . وقد ترجمتها أيضا إلى العربية وبفس الاسم .
وقد ظهرت على الشاشة بعنوان (الزيارة) . .

أما لوكريشيا فتقول الأساطير القديمة إنها كانت سيدة فاضلة . وإنها
كانت حديث المدينة كلها . . وكان زوجها كوتيلوس فى إحدى الحانات
يباهى أصدقاءه بجمال وفضيلة زوجته . . وفى نفس الوقت يتحدى
الأصدقاء أن يجد الواحد منهم زوجته الآن فى وضع محترم . . وتضايق
الأصدقاء . وذهب كل واحد إلى بيته ليجد امرأته فى حضن رجل آخر . .
إلا لوكريشيا فقد كانت ترتب فراشها وتطهر طعامها . . وقد تضايق أحد
الأمراء من ذلك . وقرر أن يمرغ لوكريشيا فى الوحل . . فهى
جميلة وهى فاضلة وهى مصدر غيظ وضيق لكل الزوجات . فذهب إليها
وفى يده خنجر . وهددها . وهدد حياتها إذا لم تستسلم له فسوف يقتل
خادمها الزنحى ويقتلها ويلقى به فوقها . . ويقول للناس إنها كانت تحون
زوجها ، وإنه لذلك قتلها . فاستسلمت له وذهبت لوكريشيا إلى زوجها
وطلبت إليه أن يدعو أربعة من أصدقائه . واعترفت لهم بما حدث . وإنها
لا تستطيع أن تعيش لحظة واحدة بعد هذا الاغتصاب . وإنها تريد أن يظل

اسمها رمزا للشرف . . ثم انتحرت . ونهض زوجها وأخرج السيف من
بطنها وقرر الانتقام . .

وفي مسرحية جان جيروودو تتفق جميع الزوجات على قضاء يوم خارج
المدينة . . وذهب كل الأزواج وكل الزوجات . . إلا لوكريشيا التي تترفع
عن مشاركة هذه الزوجات المنحلات ولكن الزوجات دبرن لها كارثة . .
فقد بعثن برجل إليها في البيت . . وأخبرن زوجها بأن يدرك زوجته التي
تخونه . . وذهب ووجد هذا الرجل . .

وكان الهدف أن تصبح لوكريشيا منحطة سافلة كبقية النساء . . ولم
تفلح المكيدة . . فلم تنحط امرأة ، وإنما انحطت مدينة كلها لم تستطع أن
ترقى إلى مستوى لوكريشيا . . الرجال عاجزون عن تقويم النساء . .
والنساء لم يفضحن واحدة منهن ، وإنما فضحن كل النساء وكل الرجال !

أما فضيحة انستاسيا بطلة (زيارة السيدة العجوز) . . فقد كانت
تحب رجلا . والرجل في إحدى القرى والقرية فقيرة جدا . وهي غنية
جدا . وجاءت تنتقم . . كانت اتويساتها محملة بالبضائع والطعام
وأشبعَت الشعب وأسعدته . . ثم تقدمت بمطالبها وهي إعدام الرجل
الذى خانها وهجرها وحطم قلبها . . وإلا منعت عنهم المال والطعام . .
وراحت القرية تحفر قبرا للرجل ، والناس ذهابا وإيابا يشاهدون القبر . .
بل إن الرجل الذى جاءت تنتقم منه قد شاهد أهل بلده يحفرون له قبرا . .

إنها امرأة جبارة جاءت تنتقم مستخدمة ضعف الناس وعجزهم
وحاجتهم إلى الطعام أكثر من تظاهريهم بالرحمة والشفقة والكبرياء . .

فالمرأة العجوز لم تنفضح شخصاً واحداً . . وإنما فضحت مدينة
كاملة . . فضحت ضعفها وعجزها . . وجعلت الناس يتوارون خجلا من
أنفسهم : إذ كيف يحفرون قبرا للرجل ما يزال حيا ، ولأن امرأة جاءت
تنصفي حسابها العاطفى معه . . كيف يفعلون ذلك دون خجل !؟

والجواب : الرغيف أقوى . .

إنها الفضيحة : إنه الشعور بالعار والعري . . في مرآتك أنت أو مرآة الشعب . . أو مرآة كل الشعوب . .

إنه شعور بالحجل والعجز لحظة . . أو ملايين اللحظات . .

ولكن الإنسان هو الحيوان الوحيد القادر على أن يقع في الفضيحة . . وأن يتجاوزها . . ليقع في واحدة أخرى ويتجاوزها بعد أن يكون قد عبر عنها واتخذها عبرة . . ولكن الإنسان ينسى . . ولا يثبت على حال .

قال الشاعر القديم :

وما سمى الإنسان إلا لنسيه

وما سمى القلب إلا أنه ينقلب !

فالإنسان ينسى . . وقلبه ينقلب وعقله يبحث عن الغطاء ، وكما صنع الغطاء فإنه يسقطه . . ليضع غيره وهكذا .

فمن فضيحة آدم وحواء في الجنة إلى فضيحة أمريكا وروسيا في حرب النجوم . .

فقد كنا نظن أن سفن الفضاء والكواكب الأخرى والتسابق عليها . . إنما هما من أجل البحث عن مكان أهدأ وكوكب أجهل . . سمووا بالإنسان وعلوا بمشاعره ، وحرصاً على الحياة الأهدأ والأجهل على أرض غير هذه الأرض . .

وفجأة اكتشفنا أننا فقط إنما نغير مواقع القتال وبنفس الأسلحة ولنفس الأهداف !

إنها فضيحة على أعلى المستويات الفلكية !

هل نعود إلى الوجودية؟! يجب أن أخفف من وقع كلمة «الوجودية»

فالوجودية هي النظرية الفلسفية والأدبية التي تهتم اهتماما بالغاً بمعنى وجود الإنسان . . أى بمعنى أن يكون الإنسان موجوداً . . أى يكون واعياً لوجوده . وأن يكون إنساناً .

ولكى يكون إنساناً يجب أن يكون حراً . وأن يكون حراً معناه أن يكون مسئولاً عن كل قرار ورأى يتخذهما لنفسه ولغيره من الناس .

وقد يبدو هذا كلاماً عادياً . .

ولكن عندما يؤكد الإنسان لنفسه أنه إنسان ، وأنه لذلك حر . . فلا بد أن يكون هناك سبب قوى يجعله يؤكد هذه المعانى

أما السبب القوي فهو أن هذه الفلسفة الوجودية قد ظهرت في أعقاب الانهيارات النفسية والقومية . . بعد الحرب السبعينية وبعد الحربين العالميتين الأولى والثانية وبعد الحروب العربية الإسرائيلية . .

ففي أعقاب هذه الحروب أحس الإنسان أن كرامته أهدرت أنه لم يعد حراً ، ولا قادراً على ذلك . . فقد انهارت كل المثل العليا للحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية والأخلاقية . . فعلى أنقاض هذه

الانهارات راح يقيم لنفسه بيوتا وأكواخا صغيرة . . وكهوبا أيضا مثل
البارات والحانات والنوادى الليلية . . أو إنه لم يعد قادرا على أن يبنى ما
انهدم . . ولذلك قرر أن يبقى أنقاضا تعيش على أنقاض . .

إذن هذه النظرية الوجودية جمعت خيوطها وألوانها وأحجامها وأوزانها
من أنقاض كل الأحلام الجميلة التى صنعها الإنسان لنفسه فى الفلسفة
وفى الأدب وفى الفن . .

فكانت هذه الفلسفة مثل قوس قزح الذى يلمع كلما ازداد السحاب
سوادا وقمامة . .

فهى أولا تعبر عن الحاضر الأليم . .

وهى ثانيا تحاول أن تتجاوز هذا الحاضر وذلك بوصف الحاضر وتحليله
وإعطائه الشرعية الواقعية . . أى تهوينه على الناس . . أو بأن تجعله
وترفه للناس . . كأنه شىء جديد . . لعل الناس يتقبلونه ويتقبلون
أنفسهم أيضا . . فهو نوع من زفاف الحاضر بملابسه وموسيقاه . . ثم
دفته بعد ذلك . . تماما كما كان الفراعنة يفعلون فى أعياد « وفاء النيل »
يجملون فتاة صغيرة ويزفونها للنيل . . بإلقائها فى أحضانها لعله يفيض
سعادة على الناس . . فقد أعطوه بعضهم ، ليعطيهم كله . . فهم إذن
يجملونها بقصد القضاء عليها . . وهذا هو جوهر المسرح . . فالمسرح
يعرض للناس حال الناس . . ويضحكهم على أنفسهم أو يبكيهم . .
ومن هذا التأثير القوى على الناس يتخلص الناس من عيوب الناس . .
وهذا هو الذى يسمى فى المسرح بالتطهير . . أى تطهير الناس من عيوبهم
بتصويرها لهم . . والمبالغة فيها . . فيشعر المتفرج بالتحلل أمامها . . وفى
نفس الوقت يشعر الناس بأنهم أقوى من الألم . . وبهذا الشعور يتجاوز
الناس عيوبهم ويتخطونها . . فكان الفن يحمل العيوب أملا فى القضاء
عليها . .

وكذلك فعلت الوجودية في أعقاب الكوارث الإنسانية : عبرت عنها
وعبرتها أيضا . . عبرت عن عذاب الإنسان وعبرت بالإنسان فوق الألم . .
وكان ذلك أقوى ما يكون بعد الحرب العالمية الثانية . .
في ألمانيا ظهرت أصول الفلسفات المعاصرة كلها . . المثالية والماركسية
والظاهريات والوجودية . .
وهى كلمات من الممكن أن أعود إلى توضيحها إذا شاء أحد من السادة
القراء . .

والفلسفة الوجودية ظهرت في ألمانيا . . التى أشعلت معظم الحروب
الأوروبية . فكان عليها أن توضح ماذا حدث . . وماذا أصاب الناس في
ألمانيا وفي فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وروسيا . . وفي مصر أيضا .
وانتقلت الوجودية إلينا في مصر . .

وعندما جاءت كنا طلبة صغارا . بهرتنا معانيها ومراحياها . . واختلفنا
حولها . فذهب بعضنا إلى أقصى اليسار ، وبعضنا إلى أقصى اليمين . .
وبعضنا آثر أن يتوقف في الوسط يعلق الحكم على كل شىء . . فلم تكن
معانيها واضحة لدينا تماما . وأشياء أخرى كثيرة لم تكن مفهومة ولا كنا
قادرين على الإحاطة بها . .

والفضل في الدعوة إلى الوجودية يرجع إلى د . عبد الرحمن بدوى
أستاذنا في ذلك الوقت . فهو الذى قدم الفلسفة الوجودية الألمانية وهو
الذى ترجم كل مفرداتها الصعبة . . وراح ينحت لها الكلمات ، أو يجد لها
مرادفات في الفلسفة الإسلامية القديمة . .

وهذه الفلسفة الوجودية التى درسناها في أواخر الأربعينات ودرسناها
في الجامعة في الخمسينات والستينات ، كانت أنسب النظريات المعاصرة

في التعبير عن الحيرة التي غشيتنا واستغرقتنا وأغرقتنا . وقد صورت هذه الحيرة والقلق حيرتى وقلقى وجيلى كله فى بعض كتبى : وداعا أيها الملل . . .
طلع البدر علينا . .
فى صالون العقاد . .

وإلا قليلا . . (فكتابى عن العقاد ، كان فى الحقيقة عنى وعن جيلى فى مواجهة العقاد وطه حسين والحكيم ولطفى السيد وسلامة موسى وغيرهم . . وأذكر أن الأستاذ الحكيم كان يكتب مذكراته فى مجلة « أكتوبر » التى أنشأها ورأست تحريرها . . وفى نفس الوقت بدأت أكتب فى حلقات صالون العقاد . وفوجئت به قد توقف عن نشر مذكراته . . ولما سألته قال : لقد أضحكتنى على نفسى . . فأنا أعبت وأداعب القراء . . وأنت تسجل أعماق العذاب والقلق فى جيلك . . أنت جاد وأنا هازل . . العقاد عملاق وأنا بهلوان !!

ولم أفلح فى إقناعه بأن يعود إلى الكتابة حتى مات !

وعلى الرغم من أن الأستاذ العقاد قد هاجم الفلسفة الوجودية ، وسخر كثيرا منى ومن غيرى من الأدباء الوجوديين . . فلم نغضب منه . فهو أستاذنا وله مدرسة فى النقد والأدب والفلسفة مختلفة . وليس من الضرورى أن نكون من مدرسة واحدة . . ولم نتفق .

وأصدرت أول كتاب لى عن الفلسفة الوجودية فى سنة ١٩٥٠ . . وقبل هذا الكتاب أصدرت عددا كاملاً من مجلة « الرسالة الجديدة » التى كان يرأس تحريرها الأستاذ يوسف السباعى . ونفذ هذا الكتاب فى ساعات . . أكثر من خمسين ألف نسخة . فقد جاء كتابى هذا ، تبسيطاً شديداً للنظرية الوجودية عند الفلاسفة الألمان والفرنسيين والاسبان والإيطاليين والروس .

وفي ذلك الوقت كان المثقفون ينظرون إلى الوجودية على أنها «موضة» أو تقليعة . .

ولما جاءت المطربة الفرنسية جوليت جريكو إلى القاهرة ، ورأى الناس أنها ترتدى الملابس السوداء وتنكش شعرها وتشرب وترقص وتدخن وصوتها غليظ ظنوا أن هذه هى الوجودية فأصبحت ملابسها وشعرها مرضه بنات الذوات . . وساعدهم على ذلك العديد من الشخصيات التى ظهرت فى روايات ومسرحيات الفلاسفة الوجوديين الفرنسيين : جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار والبيركامى وجبريل مارسيل والفيلسوف الاسباني أوناسونو . . والنماذج الأدبية التى اختارها عميد الفلسفة الوجودية الألمانية : مارتن هيدجر . . والتى ظهرت فى روايات الأديب البرتو مورافيا . .

ولكن النماذج التى ظهرت فى أعقاب الحرب . . فكما أن هناك بيوتا قد انهدمت فهناك عقول وقلوب أيضا . . وكما أن اللون الأسود هو الذى يعقب الغارات الجوية والحرائق ، فكذلك الظلم والظلام واليأس والرغبة فى الموت والخوف الذى يلازم كل المحاربين القدماء والمشوهين والأسرى والجرحى واليتامى والأبامى والأرامل . . فهى - إذن ليست دعوة لأن يكون الناس كذلك . . ولا أن تكون البيوت والقرى والمدن . . وإنما هو تصوير عميق لما حدث ، أملا فى ألا يحدث . . وأملا فى تعميق الشعور بالذنب والخطيئة ، فلا تشتعل حرب . . وحتى لا يموت عشرات الملايين وتشوه مئات الملايين جسيما ونفسيا . .

فنحن لانصف طبييا بأنه انهزامى لأنه لا يلتقى إلا بالمرضى والمتوجعين والباكين

ولا نقول للقمر وللنجوم فى السماء إنها تريد الليل أن يستمر حتى تظل لامعة متألقة .

يقول مصطفى صادق الرافعي :

يا من على البعد ينسانا ونذكره

لسوف تذكرنا يوما وننساكا

إن الظلام الذى يجلوك يا قمر

له صباح متى تدركه أخفاكا

وفى بريطانيا وأمريكا اتخذ التعبير عن الألم شكلا آخر - وإن كانت كل هذه الأشكال الأدبية « تسقى من ماء واحد » - هو كرامة الإنسان أو إهدار كرامة الإنسان . . فالإنسان كرامة . وإذا أهدر الإنسان فلا كرامة له . . ولكن لأنه إنسان فهو لن يقبل الظلم . وهو من أجل ذلك يقيد حريته من أجل أن يحصل على مزيد من الحرية كالذى يجرم نفسه من الطعام ليزداد رشاقة وقدرة على الحركة . . فهو يجوع ليصح . .

فالتاريخ الإنسانى كله ليس إلا مسرحا للحرية . . أى لنشيدان الحرية فالإنسان حريص على أن يضاعف نصيبه من التحرر . . التحرر من الخوف ومن الجوع والظلم والجهل والمرض . فالإنسان يجلس على تاريخه كما يجلس الكائنات على ذيله . . وتاريخه هو حريته . . ومزيد من حريته . .

ففى بريطانيا ظهرت مدرسة أدبية هى فرع على شجرة الوجودية اسمها مدرسة « الشبان الساخطون » . . وهذه المدرسة ترفع شعارا : إن الإنسان هو الحيوان الغاضب من نفسه ومن أجلها . . فهو يغضب من ضعفه ومن عزله ومن قهره ، حتى يكون أقوى وأكثر مسئولية وأسمى كرامة . . أما الوحش الذى يلتهم الإنسان فهو المؤسسات والهيئات والمنظمات والشركات . . إنها هذه المؤسسات هى « الحوت » الذى ابتلع يونس عليه

السلام . . ابتلعه ولم يقتله . . ولم يقض علي لحمه وشحمه ودمه . . فאלله سبحانه قد أنقذ يونس عليه السلام . . وقد أنقذه لأن يونس قد نادى ربه . . أى اختار القيم والمبادئ الرفيعة . . فهى طوق النجاة الذى انجاة من الموت ومن الماء إلى الشاطئ وهى المظلة الواقية التى هبطت به إلى الأرض سالما . . وفي القرآن الكريم « وإذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه » فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك تنجى المؤمنين .

ولكن الشبان الغاضبين طلبوا النجاة . ولكن لانجاة . . ولا عاصم اليوم من أمر ربى . . فطوفان المشاكل الإنسانية والسياسية والاقتصادية التى اجتاحت العالم كله ، من الصعب أن نتجو منها بطوق أو مظلة أو فى بطن الحوت . .

وفى أمريكا ظهر شبان آخرون اتخذوا لهم اسما آخر هو « الشبان الصاخيون » وكانت ثورة الأدباء الأمريكان أساسها : أن الفرد ضائع فى الدولة العظمى الغنية فهو ليس إلا مسمارا صغيرا فى آلة جبارة . . لابد أن ينضبط وأن يرتبط . . وأن يكون عضوا له رقم وخانة ودوسيه وملف فى هيئة ما . . وإذا لم يفعل مات جوعا وهوانا . . فهو وحده لاشيء ، وهو فى مؤسسة ما شىء ما . . فالمجتمع جهاز قوى والفرد ليس إلا قطعة غيار . . والحياة للجهاز وللشركة والمؤسسة . . أما الفرد - فهو يجرى ضمنا . . وكل إنسان قطعة غيار تظل فى موقعها ما دامت تؤدي دورا فإذا عجزت عن هذا الدور أتوا بقطعة غيار أخرى . . ولذلك كانت ثورة الأدباء على هذه الميكانيكية والآلية . وعلى أن يكون الإنسان لا إنسانا . . وأن يقبل ذلك وإلا مات جوعا . . فلكى يعيش لابد أن ينكر ذاته . . وألا يكون إنسانا . .

وعرفت أوروبا وآسيا وأمريكا أشكالا وألوانا من الاحتجاج على القديم المستمر فكانت الخنافس وغيرها من الأساء الأخرى . . التى احتجت على

السلوك والزى التقليدى . . وأنا أول من أطلق كلمة الخنافس هذه فى الستينات . وهى ترجمة خاطئة وقعت فيها . ولكن حاولت أن أصلحها بعد ذلك فلم أفلح . . وظهرت موسيقى وأغانى الخنافس التى كانت احتجاجا على سيطرة الموسيقى الأمريكية على أوروبا وظهرت الفساتين فوق الركبة وانتشرت من بريطانيا إلى العالم كله ، وكان ذلك احتجاجا على سيطرة فرنسا على الأناقة فى العالم . .

وكانت لى جلسات طويلة مع الأديب السويسرى دينيات . . والأديب الإيطالى مورافيا والفيلسوف الألمانى هيدجر . . فما وجدت أنا أيضا تفسيراً مريحا ، ولا حلا عاجلا لما كنا فيه فى مصر — إننى أتحدث عن شباب المفكرين والأدباء . . وكانت الردود كأنها تقول : احمدا ربنا على ما أنتم فيه . . يكفى انكم تشعرون وتقلقون وتعبرون . . عندكم أمل فى الحل . .

وتحيرنا بين المذاهب فى الفلسفة وفى الأدب وفى الدين . . وتحيرنا بحثا عن وجهة . . وعن طريق . . وطال البحث وتعددت الطرق ، وسرنا كل واحد فى طريق . .

وتعذبنا عذاب الملك الأسطورى تantalوس . . ذلك الملك الغنى العظيم الذى أحبته آلهة الإغريق . . غير أنه ضاق بالآلهة فقد وجدها سعيدة — بتعذيبها للإنسان — وهو إنسان . فراح يفشى أسرار الآلهة إلى الإنسان لعل الإنسان أن يقف فى وجهها وأن يكون كريها على نفسه . . وأن يكون قادرا على أن يتحرر من ربة القيود الجامدة لآلهة الإغريق أو من ضعفه وعجزه وعمره — المحدود . . فانتقم من الآلهة بأن نقل أسرارها وأخبارها إلى الإنسان . . أسرار قوتها وسيطرتها . . وانتقم من الآلهة . . وكان انتقام الآلهة أشنع وأبشع فقد وضعوه فى نهر من أنهار جهنم . . وكلما ارتفع الماء إلى شفثيه وحاول أن يبل ريقه ، انحسر الماء إلى قدميه . . فإذا رفع رأسه تدلى غصن شجرة تفاح ولا مست التفاحة شفثيه فإذا حاول أن

يأكلها ارتفعت التفاحة بعيدا . . فإذا أغمض عينيه جاء حجر كبير يهدر
من قمة الجبل وينحط بسرعة هائلة وسط دوى عظيم ويقف فجأة ملامسا
لشعر رأسه . . ويعود الماء والتفاح والأحجار . . وإلى الأبد . . وكذلك
حاول الإنسان أن يعرف سر ضعفه وسر قوته . . حاول . . وظهرت عشرات
الاجتهادات . . ومد يده ولم يجد شيئا يريح العين والأذن والعقل
والقلب . . فكل شيء عنده ، وكأن شيئا ليس عنده . . وسط الماء
ولا يشرب ، تحت الثمار ولا يأكل ، في مهب الصخور ولا يهدأ . .
ووقف الإنسان حائرا عاجزا . .

يقول الفيلسوف الوجودي هيدجر وهو يصف حيرته وصبره الطويل
أمام الحقيقة : لقد وقفت حائس الرأس أمام سيدتى ، وانتظرت أن تجود
على بشيء فلم تفعل !

فالناس أمام الحقيقة ثلاثة :

واحد ينتمى إليها . .

وواحد لا ينتمى . .

وواحد يدور حول نفسه . . حتى لا يرى ولا يسمع ولا يفكر . . أو
يهرب منها أو يغيب عنها . .

أو بعبارة أخرى : إن الانسان في مواجهة أية مشكلة :

إما أن يدخل فيها

وإما أن يخرج منها

وإما أن يتسلل إليها . .

والناس إما مع الجديد . . وإما ضد الجديد وإما يتسللون لصوفا
إليه . .

أو إما يتقدمون الحقيقة . . وإما يسرون إلى جوارها . . وإما يمشون وراءها . .

المهم أن تظل الحقيقة على مرأى ومسمع منهم ، لايتجاهلونها . وإنما يحاولون أن يروها من زوايا مختلفة . لعلهم أن يفهموا ويحللوا . فإذا عرفوا قالوا . . وإذا قالوا عرفناهم . .

وكان الفيلسوف العظيم سقراط إذا وجد واحدا من تلامذته لا يسأل ولا يتكلم قال له : تكلم حتى أراك !
فالذى له رأى له رؤية . .

فالرأى والرؤية والنظرة والنظرية بمعنى واحد . .
ويضيع من قدمى الطريق - قالها الشاعر كامل الشناوى . .
والشعراء أسبقنا إلى الحس العميق والمعنى الجميل . .
ووقد ضاعت من أقدامنا الطريق . . وضاعت أقدامنا أيضا . .

وسادنا شعور بأنه لا معنى لشيء ولا قيمة ولاهدف ولا أمل فى أحد أو شيء وهذه جميعا مفردات لمعنى كلمة فلسفية واحدة هى : العبث . .
فالعبث ليس هو اللعب . .

لأن اللعب له قواعد . . فكرة القدم لعب . . لها قواعد وأصول واجتهادات ولها قضاة والجمهور هو المحلفون . . ومباريات كرة القدم هى محاكمات علنية وهى لعب . . ولكنه لعب له قواعد ونظريات وتاريخ ككل الفنون الجادة . .

أما العبث فمعناه الفلسفى : ألا يكون هناك معنى لشيء . . ألا تكون قاعدة . . وألا تكون جدوى لشيء أو من شيء . .

وانتقل إلينا العبث من المسارح الفرنسية بصفة خاصة . .

فالمسرح الفرنسى عندما عرض عشرات من مسرحيات العبث . . كان يقصد أنهم فى فرنسا قد فقدوا الأمل فى أى شىء . . فالناس ينتظرون فى المحطات ولكن قطارا لايجىء . . ينتظرون الرحمة ، ولكن أحدا لايرحم . . والألفاظ فلا لغة . . ولا تعبير . . لأن التعبير معناه أن أجعل المعنى يعبر منى إليك فالتعبير والعبور بمعنى واحد . . وما دمنا لم نتفق على معنى كلمة واحدة ، فإننى لا أستطيع أن أنقلها إليك . . فلا لغة . . ولا حوار . . ولذلك جاءت مسرحيات العبث تضم أناسا يتكلمون ويسمعون بعضهم البعض . . ولكنهم يكلمون أنفسهم على مسمع من الآخرين . . وظهرت مسرحية « يا طالع الشجرة » لتوفيق الحكيم .

وكما سخر الأستاذ العقاد من الوجودية . . سخر طه حسين من مسرح العبث . فقال لى طه حسين : إن توفيق الحكيم لم يأت بجديد . . فالأدب الفرنسى عرف شعراء مثل فيرلين ولوتريامون ورامبو . . وهم جميعا كانوا يهذون بكلام له وزن وقافية وهو هذيان موسيقى . . وكذلك توفيق الحكيم !

وبقى العقاد وطه حسين فى أبراجهما العالية التقليدية . . أما توفيق الحكيم فكان معاصرا ، وكان أسرعهم تعبيرا عن الواقع المصرى بعد الهزيمة العسكرية التى عصفت بآمال وأحلام الناس . . وكأنها سحبت الغطاء الذهبى لكل عملاتهم ومعاملاتهم . . ففلوسهم ورق . . وثراؤهم إفلاس . . مادى وروحى !

وكان العبث المسرحى فى الستينات حزينا مؤلما قائما . . فالأشخاص على المسرح فى غاية الحزن والهم والغم . . يتحدثون أنفسهم ولا أحد يرد ولا أحد يسمع . .

فالذى يقولون لاعمى له . .

والذين يسمعون لايفعلون شيئا . فقط يرون حالهم ويزدادون حزنا على ما أصابهم . . مرة خارج المسرح . . مرة أخرى فى المسرح . .

ويشعرون كأنهم على باب جهنم التى وصفها لنا الشاعر الإيطالى دانتي . . فكتب على بابها هذه العبارة : أيها الداخلون اتركوا وراءكم أى أمل فى النجاة وكأن هذه العبارة كانت منقوشة على باب كل مسرح وكل بيت وكل ضمير !

ولكن انتقلنا فى السبعينات والثمانينات إلى نوع آخر من « العبث » . . إنه العبث الضاحك . . فكل المسارح تضحك على المتفرجين . . وهى فى نفس الوقت تضحك على نفسها . . عندما تفضح عيوبنا محكومين وحاكمين . . وتتسابق المسارح فى المبالغة فى عيوب المتفرجين . . والمتفرجون راضون عن كل ذلك . . فهم يسمعون ويضحكون . ولكنهم لا يذهبون إلى أبعد من ذلك . . أى أن الذى يسمعونه لاجدوى منه . . لافائدة . . وأنه كلام بلا معنى . . وكأنه ليس مطلوبا من أحد أن يعمل شيئا فكانه لاسمع ولا رأى . . أو كأنه عندما سمع ورأى لم يفهم . .

فكأننا فى العشرين عاما الماضية اتفقنا على أن نذهب إلى المسارح فى حالة إغماء شديد . . فالذى يبكيه كالذى يضحكنا . . كلاهما عاجز عن أن يجعلنا نفعل ما هو أكثر من ذلك فى إصلاح حالتنا . .

وفى العبث الحزين والعبث الضاحك يتعذب المتفرج بالبكاء على نفسه وبالسخرة منها . . فهو فى الحالتين قد بالغ فى إهانة الإنسان . . وكرامة الإنسان ، إغراق المشاهد فى دموعه ، باكيا أو ضاحكا . .

وقد طال بكاء الإنسان على نفسه ، وطال أيضا احتقاره لها . .

ولابد من أن يتوقف وأن يلتفت إلى نفسه وإلى الذين حوله . . وأن يتدارك نفسه . . وأن ينتشل نفسه من أساه ومن هوانه ومن بهلوانيته . . وإلا طال هذا الحال . . ونحمدنا . . وتقدمتنا الدنيا كلها . .

وعند الجرمان أسطورة تانهويسر الذى عاش فى أحضان الإلهة فينوس طويلا وانشغل عن أداء ما طلبته الآلهة منه . . وطال سهره وسكره ولهوه . وضاق بنفسه واستشرب فيه الملل . . فخرج إلى سطح الأرض يطلب العفو من البابا . . ولكن البابا قال له : لن أغفر لك إلا إذا أزهرت هذه العصا التى فى يدي !

ونظر تانهويسر إلى عصا البابا الذهبية المرصعة بالماس ورأى أن هذا هو المستحيل . . ولكن بعد يومين ظهرت الزهور فى عصا البابا . . معجزة فجعل البابا يبحث عنه . . ولكن اليأس كان قد أعاد تانهويسر إلى حيث كان . . إلى مبادئه فى أحضان فينوس تحت الأرض !

فلا بد أن نصدر عفوا عن أنفسنا وأن نتسامح وبسرعة حتى لا نعود إلى ما كنا فيه . . أو نبقى على ما نحن عليه . .

وهذا العفو هو رد اعتبار الإنسان لنفسه وبيده وبقلمه وبأغانيه ومسارحه وكان توفيق الحكيم ينظر وراءه فى غضب وأمامه فى يأس . . أما الغضب فنعم . وأما اليأس فلا . .

فى سنة ١٨١٨ ظهر فى ألمانيا كتاب للفيلسوف الألمانى شوبنهاور . الكتاب اسمه « العالم كإرادة وفكرة » . . والفيلسوف فى هذا الكتاب يحقر إيمان الإنسان بالتقدم . . أى إيمان الإنسان بالإنسان . . فهو يرى أن الإنسان حيوان يحاول أن ينسى أنه حيوان . . وأن غريزة الحياة قد سخرته من أجل أن تمتد الحياة . . فلا حب ولاكرامة . . وإنما جنس يدفع الذكور

لأن تخدع الإنانث من أجل أن يجيء الأطفال باسم الحب وتمتد الحياة . .
هذا كل ما هناك !

وعندما أعطى الفيلسوف كتابه هذا للأمير الشعراء الألمان جيته ، أعاده
في اليوم التالى قائلاً له : إذا أردت أن تجعل للدنيا قيمة ، فاجعل لنفسك
قيمة !

والشاعر يقول :

ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

فإن لم نسترد كرامتنا بأيدينا وبأحلامنا وأقلامنا ، سوف نظل هكذا . .
موتى بلا قبور . .

وقد كان المزاج العام فى أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر حزينا كثيرا
فانتحر أدباء وشعراء أو ماتوا وهم يحلمون بذلك :

شيل وبيرون وكينيس ونوفاليس وتيك ولرميتوف وليوبوردي
وبوشكين . . ولكن الحضارة الغربية بما فيها من حيوية وقوة إبداعية .
انتشلت نفسها بنفسها بأصابع العباقره من أبنائها : هيجو وهينه وايسن
ودكنز وتولستوى ودستويكى وداروين وغيرهم . .

فلم يطل عذاب الضمير الأوروبى . . ولكن بسرعة شخصوا الداء
ووجدوا الدواء استعدادا لمغامرات فكرية وسياسية وعسكرية وعلمية
جديدة . .

لكن داءنا نحن طال واستشرى واستقر . . والذي يبكينا بالأمس هو
نفسه الذى يضحكننا اليوم . .

وإذا كانت الوجودية قد أسرفت فى الكلام عن الفردية والحرية والقلق
والموت فلأن هذه المبالغه دليل على عمق هذه المعانى . . ودليل على

إحساسنا بخطورتها على مسيرتنا . . على افتقادنا لكل ما يضيء ويريح . .
افتقادنا إلى الحرية والفردية وإلى الحل وإلى الطريق . . وإلى أن نجد
أنفسنا . . وإلى أقدامنا وأن نجد الطريق تحتها والهدف في النهاية . .

فكلما أكثرنا من الحديث عن الحرية والفردية ، كان ذلك دليلاً على
حاجتنا إليهما وخوفنا على القليل منهما ألا يكون ، وأملنا في الكثير منهما أن
يحقق لنا وبنا وجودنا الإنساني . .

وعندما قيل للأديب الإنجليزي برنارد شو : إنك تتحدث كثيراً عن
المال بينما يتحدث صديقك هـ . ج ولز عن الأخلاق ، أجاب كل واحد منا
يتحدث عن الذى ينقصه !

فنحن نتحدث كثيراً وطويلاً وعميقاً عن الذى ينقصنا . .

وفى الأساطير الإغريقية أن الفتاة أريان قد أنقذت حبيبها من المتاهة
بأن أمسكت خيطاً وتبعها إلى خارج ألوف الحجرات . . إلى الحرية . .

ولم يعد ينقصنا أن نجد هذا الخيط . . وأن يصح العزم وتصديق الرغبة
فى النجاة من اليأس ومن فقدان الأمل فى الخروج . .

إننا فى مصر نحاول أن نملاً أيدي الشباب بتراب مصر . . بواقع مصر
فنعطى كل أسرة شابة مساحة من الأرض . . موقعاً على خريطة الوطن . .
قطعة من الواقع . . قطعة من الملكية . . قطعة من الكرامة . . قطعة من
الوجود . .

ولكن قبل هذه المساحة من الواقع يجب أن نؤكد لكل شاب أن
الأصابع التى يمسك بها أرضه ، هى أصابعه هو . . وأن ذراعه هى ذراعه
هو . . وأن الذى يملكه حق له . . فليست الأرض هى التى تملكه . .
ولكنه هو الذى يملك الأرض . . فهى أرضه وهى عرضه أيضاً . ونحن

بذلك نعالج مشكلة جوهريّة في مصر . . فقد جاء علينا حين من الدهر
كان فيه الذين لا يملكون هم الذين يدافعون ويحاربون ويموتون عن الذين
يملكون . . فنحن الآن نريد للكل أن يملك ، ولكل أن يدافع عن الذي
يملكه من أرضه ومن وطنه ومن شرفه الذي هو رأسه . . وفي نفس
الوقت مبرر هذا الوجود . .

فلننظر وراءنا في غضب ، فليكن . . فقد كان في ماضينا ما يستوجب
الغضب عليه وعلينا . . ولكن بعد أن عرفنا ماذا حدث وكيف . . يجب
أن نرفع الجلسة التاريخية . . ونغلق الملفات القديمة . . وأن نوقف الماضي
عند حده . . حتى لا يزحف على حاضرنّا كما تزحف الصحراء على الأرض
المزروعة .

وأن ننظر إلى الأمام في أمل . .

ففي أيدينا وفي عيوننا ما يستحق أن نسعد به . . وأن نحرص عليه . .
وفي هذه الدنيا دول أدمنت المستقبل : أمريكا وروسيا واليابان وكذلك
الغد . . وإلى الكواكب الأخرى . .

واتخذ الماضي صورا فنية واستقر في المتاحف . . أما المستقبل فله قلاع
أخرى هي المصانع والمعامل والحقول . . وهي البيوت الشابة وهي الأسواق
والمنافسة المتجددة . .

وكما ننظر إلى طفولتنا ونبتسم فكذلك يجب أن ننظر إلى ماضينا . . لقد
انتهى وتحوّلت ألوانه الصارحة إلى ألوان باهتة ، أو لا بد أن تكون . .

ويجب أن نتواصى بأن نترفق بأنفسنا وأن نحترمها وأن نقبل أنفسنا من
عشراتنا . . وألا ننظر وراءنا طويلا فيصينا ما أصاب زوجة لوط عليه
السلام . . حذروها ألا تنظر وراءها ولكنها نظرت فتحوّلت إلى تمثال من
الملح - كما تحدّثنا التوراة . .

أو ما حدث للبطل الأسطوري أورفيوس . . فقد ماتت زوجته بلدغة
ثعبان فراح يتوسل إلى الآلهة أن يراها . . فوعده وكان لهم شرط ألا ينظر
وراءه حتى يخرجها من تحت الأرض . ولكنه لم يستطع . فنظر وراءه
فاختفت الزوجة . .

إنها دعوة للأدب والفلسفة والدين أن تقدم العون فتتقد جيلا من جيل
وتستخرج الحياة من هذا الموت . . والمستقبل من براثن الماضي . .
وليتوقف عن التهام شبابنا وقودا لماضيها . . وقد آن الأوان . . اليوم وليس
غدا . .

في انتظار نوح !

قرأنا وحفظنا أن نوحا عليه السلام ظل يدعو قومه ٩٥٠ عاما . تعب تعذب . كفر بهم لأنهم كفروا به . فطلب من الله أن يهلكهم جميعا فهم لا يستحقون هذه الحياة . فألهمه الله أن قومه لا يستحقون إلا الموت . وأن الله سوف يقضى عليهم . وألهم نوحا بأنه سوف يغرق الأرض ومن عليها . ولن ينجو من عذاب الله إلا المؤمنون به . وكانوا من أهله . . ويقال كان عددهم ثمانية . . نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم . ويقال كان عددهم ثمانين .

واستراح نوح إلى هذا العقاب الذي يستحقه أهله . وطلب إليه الله أن يزرع شجرة . وزرع الشجرة ونمت وأزهرت وطالت فروعها . وعاش أربعين عاما . وأمره الله أن يقطعها وأن يصنع منها السفينة . . لكي يكون مادة للسخرية . فقد كانت السفينة على الأرض بعيدا عن البحر . كيف يجرها إليه أو كيف يجر البحر ليأتى إليها . . وأحسن الناس أنهم كانوا على حق في الكفر به . . لأنه رجل ينسى سفينة على الأرض وليس على شاطئ البحر . وسقطت الأمطار غزيرة . وهربت الحيوانات إلى نوح . وأمره الله أن يأخذ من كل زوجين اثنين . وكانت السفينة من ثلاثة طوابق . الطابق الأعلى للطيور والطابق الأوسط له ولأسرته . والطابق السفلي للحيوانات . . وقد مات لنوح واحد من أبنائه قبل الطوفان .

ولما جاء الطوفان رفض أحد أبنائه أن يركب مع والده . وقرر أن يسبح بعيدا عن السفينة لأنه سيأوى إلى جبل . أى جبل . وحذره أبوه . ولكنه لم يستمع النصيحة . فغرق .

وفي نفس الوقت كانت هناك أم عندها طفل رضيع . هربت به إلى أحد الجبال . . وكلما ارتفع الماء صعدت إلى أعلى الجبل . . ومازال الماء يطاردها وهى ترفع طفلها بذراعيها إلى ما فوق رأسها عند قمة الجبل . . وأدركها الماء حتى غرقت وكذلك طفلها . إنها تقاوم القدر . فالتقدير أن يموت كل أولاد آدم . ولتبدأ البشرية من جديد بأولاد نوح . . فنوح هو آدم الجديد . . أو آدم الثانى . .

وسقطت الأمطار أربعين يوما . وكان نوح فى مدينة الكوفة أو البصرة . . وظلت السفينة تسبح فوق الموج . . ثم استقرت على جبل الجودي الذى هو الآن جبل أراارات على حدود أرمينا وتركيا . ومن السفينة أطلق نوح حمامة وبعد أيام عادت وفى قدميها وحل . . أى أنها وقفت على الأرض . . ثم أطلق غرابا . وعاد الغراب فى منقاره غصن زيتون . . إذن هناك أرض . وهناك أشجار . . ونزل نوح وأولاده وبنا قرية اسمها قرية الثانية . .

انتهت قصة نوح . قصة الذين كفروا بالرسالة واستحقوا العقاب . وقصة صاحب الدعوة الذى أنقذ البشرية بإهلاك الفاسدين منها . . ثم البداية الجديدة لخلق جديد . وقد استعد نوح بكل وسائل النجاة : الفكرة والنظرية وأداة النجاة وبذور الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية على أرض قد طهرها الطوفان . .

ولم يكفر بنوح قومه فقط ، وإنما كفرت به زوجته وواحد من أبنائه . . وقبل ذلك كفرت زوجة نبي آخر هو لوط فدعا عليها أن تكون عمودا من الملح . وأن تنهار ترابا على تراب . .

فعلا : كل نبى فى وطنه مهان . . ليس فى وطنه فقط بل فى بيته فى أهله
عند زوجته وأولاده !

وتغيرت أشكال الطوفان ومكانه وأسبابه . . ولكن عندما يكون طوفان
فإننا نتطلع إلى نوح . . أى نوح . .

ولكن الطوفان أصبح الآن من صنع الإنسان . . وكذلك نوح لأبد أن
يكون من صنع الإنسان . .

فالطوفان صناعة إنسانية . .

والمصلحون سياسيون وعلماء ورجال دين ومفكرون . . وكلهم بشر . .
وكل أصحاب النظريات فى السياسة والاقتصاد والفلسفة والأخلاق
والطب . . كلهم نوح . . أولاد نوح . . أولاد آدم الثانى

فآدم الأول طرده الله من الجنة لأنه أطاع زوجته فى معصية الله . .

فأمر الله أن يهبط آدم وزوجته ليكون كل منهما عدوا للأخر . . وعذاب
آدم أن يتزوج حواء ، وعذاب حواء أن تحمل وتلد وترضع . . وعذاب الحية
التي استدرجت حواء إلى الخطأ أن تبتلع أرجلها وتزحف على بطنها إلى يوم
القيامة . .

أما أولاد نوح فهم يستأنفون العذاب . . صناعة العذاب والتخلص
منه . . فأولاد نوح هم الذين يرزعون جنتهم على الأرض ويقتلعون
أشجارها ويحطفون ثمارها ويتحاربون . . بعضهم لبعض عدو وإلى
الأبد . .

ومشكلة أبناء نوح أنهم الذين يصنعون المرض وهم الذين يصنعون له
العلاج . . ومشكلتهم أيضا أنهم يتتظرون نوحا . . ولا يجيء . . فإذا لم
يأت فإنهم يزيفونه . . وكما عاش نوح بين قومه الكافرين . . فإننا نعانى
أيضا من المصلحين النصايين . .

وعند كل مأساة نتطلع إلى نوح . .

وبعد كل كارثة في الحرب أو في الفكر نتظر نوحا جديدا . .

ويكون نوح أديبا ويكون رساما ويكون طبيبا وسياسيا وزعيا وقائدا . .
ويدعى ذلك لصوص وسفاحون

ويلات الإنسانية كلها سببها الذين يرتدون ملابس نوح . .

وقد جربنا كثيرا أنه في الازمات تختل موازين الرؤية والرأى فيتوهم
الناس من ليس نوحا أنه نوح جديد ويمشون وراءه . . ويضلون . . فهم
الذين اختاروا الضلال ، عندما قرروا أن يختاروا الهداية . . إنهم واهمون
يتعجلون الخلاص . . فأسلموا أمرهم لأى واحد يدعى الهداية . .

وفي أوروبا وأمريكا والشرق الأوسط ضلت الملايين وراء الأنبياء
الكاذبين والمصلحين الفاسدين . . كيف حدث ذلك ؟

الناس يريدون النجاة بأى شكل . . فلما جاء أى شكل صدقوه . . وفي
أمريكا سار الشبان بالملثات ورأى أذعياء النبوة . . وانتحروا معا . . فهم
ضاقوا بالحياة واختاروا الموت . .

فهم الذين قلبوا قصة نوح . . فهم لم يهلكوا أولا وإنما ساروا وراء النبى
الكذاب لكى يعيشوا فماتوا . .

وبدلا من أن ينجوا من الطوفان ألقوا بأنفسهم فى الطوفان .

فكأنهم لم يريدوا النجاة ، وإنما أرادوا الموت لكى ينجوا من الحياة . .

فقد جاءهم النبى ، أو إنهم صنعوه . . وساروا وراءه لا إلى النجاة
وإنما إلى الهلاك !

وفي أمريكا وبعد حرب فيتنام ظهر أناس كثيرون من الأمريكان ومن
الشرق الأقصى يدعون الناس إلى الخلاص من طاحونة المجتمع الصناعى

الكبير . . الذى يطحن إنسانية الإنسان ويجرده من شرف الإنسانية ونبل
المثل العليا . . وجعلوهم ينسحبون من الحياة ويقفون وينامون على
هوامشها . . فابن الغنى اختار أن يتسول وأن يقتل . . وسعاداته أنه اختار
الفقر بينما أبوه اختار له الغنى . . وأنه اختار الرصيف ، وأبوه اختار له
السرير الحرير . واختار الشاب أن يعيش مسطولا ليلا ونهارا مع فتاة لا يرى
إلا جانبها من جسمها . . وبعد أيام تعلن أنها حامل وأنه أبو الطفل . .
فهو طفل قد أنجب طفلا . ولكن لا يعتذر عن كل ذلك . . لأن زوجته
من اختياره والطفل من اختيارها . . والضياح والتهى الفلسفة التى يمشيان
وراءها . . ووراءهما ييكى الأبوان والأخوة والأقارب . . فدموع المجتمع
هى قطرات الطوفان الأمريكى الذى يدفع الشبان إلى الموت هربا من حياة
صناعية اصطناعية مزيفة مفبركة !

وفى مواجهة طوفان الفقراء والأغنياء ظهر كارل ماركس يدعو إلى تجريد
الأغنياء من أحلامهم وسلطانهم ليتساووا بالفقراء والمعدمين . .

وقبل ذلك نادى الفلاسفة بأن الحقيقة هى الدولة ، والأفراد خلابا
الدولة . لا وجود لهم ولا نحن إلا فى الجسم الكبير . . فالعين لا ترى إلا
من جسد وفى جسد ومن أجل جسد . . وكذلك الساق والمعدة
والعقل . . كلها من غير جسد لا وجود لها . . ومن غير جسد لا وظيفة
لها . فأنت جزء والدولة كل . . والدولة هى الحقيقة المؤكدة والغناء فيها هو
الحياة . . والدولة هى إرادة رأس الدولة . . فلا إرادة لأحد . . ولا الدولة
إلا ما يريده السلطان . . الحاكم . . الرئيس . . الإمبراطور . . البابا . .

واشتعلت الحروب فى الدنيا . . وخربت الدنيا . .

ومن خرائب الحروب تعالت صيحات نوح . . ألف نوح . . بأن
النجاة هى فى أن يكون المواطن حرا . فردا حرا . هو أهم من الدولة . .

وهو أعظم من السلطان . والسلطان الذى يحترم نفسه هو الذى يحترم
ملايين السلاطين الذين هم المواطنون العاديون . . ثم إنه لا يوجد مواطن
عادى ومواطن غير عادى . فكل الأحرار سواء . .

وكانت هذه صرخة الفلسفة الوجودية بعد الحرب العالمية
الثانية . . وتعالى الصيحات المتمردة واتخذ كل نوح مذهبا وطوقا للنجاة
وسفينة من خشب أو من ورق أو من معدن . . ودعا الناس إلى النجاة . .
وظهرت المذاهب الفنية فى الرسم مثل السريالية والتكعيبية والحوشية
والتلقائية . .

وظهرت المدارس الأدبية والنقدية . .

وظهرت المدارس المسرحية . .

ومن أهمها وأخطرها وأقصرها عمرا مدرسة العبث . .

أى المدرسة التى تسجل على الإنسان فشله فى أن يكون حيوانا
عاقلا . . وإنما حيوان ناطق . ينطق وليس من الضرورى أن يكون عاقلا .
لأن الذى يستمع إليه ويتفرج عليه ليس عاقلا أيضا . . فما جدوى العقل
لمن لا عقل له ؟ وما جدوى النطق لمن لا منطق له . . وليس فى نيته أن
يكون كذلك . لماذا ؟ فقد فشلت كل المدارس المنطقية والفلسفات
الشيوعية والوجودية والمثالية والواقعية والتحليلية ، والوضعيات المنطقية
ومدارس الشك والملحدين والمتطرفين . .

والإنسان قد أدمن الطوفان . . وأدمن الأنبياء أيضا . . فإذا لم يجدهم
خلقهم ، وإذا طال انتظاره لهم صنعهم . . فإذا ظهروا من تلقاء أنفسهم
كفر بهم وقاومهم . .

فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يصنع عقيدته ويفرز أنبياءه ويغرق
معهم فى طوفان واحد !

ثم إن نوحا الجديد شاب . . يعيش شابا ويموت شابا أيضا . .

أما نوح عليه السلام فقد عاش أكثر من ألف سنة !!

أما نوح الحديث فمن النادر أن يعيش بعد الطوفان . . أى يجيء وسط الطوفان ويلقى بأطواق النجاة وقيم الجسور . . ويموت قبل أن ينشر مذهبه . . أو ينجو المجتمع الذى ظهر فيه . .

وفى عالم العبث مسرحية للأديب الإيرلندى بيكيت اسمها (فى انتظار جودو) . أى فى انتظار نوح . . أو نظرية جديدة . . أو طرق للنجاة . . أو وسيلة لإنقاذ الناس من الضياع واللامبالاة وانعدام الأمل واليأس معا . . ويتنظر وصوله اثنان من الناس يتحاوران بقرف . . ولا يجيء . . فقط يكون له وجود مسرحى . . ويكون على شكل انتظار أو احتمال المجيء ويكون وجوده المحتمل هو الوجود الوحيد الممكن . . فالناس يتطلعون إليه بعين واحدة . . أو ينصف الوعى و بنصف الأمل ونصف اليأس . . وتنتهى المسرحية ، ولا يجيء . أما المعنى فهو الانتظار العقيم !

والإنسان هو الحيوان الذى يصنع أدوات حياته . . يصنع أدوات حياته وأدوات وفاته أيضا . . وهو الذى يضع أحلامه وأوهامه . . وكما يتعجل الإنسان الحياة ، يتعجل الموت أيضا . .

وكما يتعجل النجاة يتطوع بالانتحار . .

والإنسان هو خالق أبنائه وقاتلهم أيضا .

ومشكلة هذا الزمان هى أبنائه الصغار . وهم لأنهم صغار فهم فى غاية العنف . ولذلك كان كتابهم المقدس فى يد ، والقنبلة فى اليد الأخرى . . حتى أصبحت القنابل والرصاص هى النقاط التى يضعونها فوق حروف كتابهم المقدس . . وحتى أصبحت انفجارات القنابل هى الدقات التقليدية لمسرح العبث العنيف أو العنف العاثر .

أى فرض المنطق بالنار ، أو فرض النار بالمنطق . .
وإذا كان منطق فلماذا النار ، وإذا كانوا جهنم فلماذا المنطق . ولكنه
زمان العبث العنيف !

أما الكتاب المقدس ، فالشباب العنيف يغير اسمه من زمن إلى
زمن . . ومن بلد إلى بلد وكل كتاب فى يد الشباب مقدس ؟ !

ولذلك كل الحروب مقدسة . ولم نقرأ عن حرب لم توصف بأنها
مقدسة . ولم نقرأ عن وطن ليست أرضه مقدسة . . كل الأرض بما فيها من
حظائر للخنازير وسجون ومستنقعات . . وكل الدماء زكية . وكل
الضحايا والقتلة شهداء . وكل المسدسات والمدافع والقنابل والصواريخ
أسرع وسائل الانتقال من الدنيا إلى الجنة !

وكما أن سفن الفضاء تحتاج إلى صاروخ يشدها من جاذبية الأرض . .
فلا بد من صاروخ آخر يضعها فى مدار ثابت حول الأرض . . ولابد من
صاروخ يعيدها إلى الأرض . . أو يضعها تدور حول القمر . ثم صاروخ
يهبط بها على سطح القمر . . وصاروخ يرفعها بعيدا عن جاذبية القمر . .
ثم صاروخ يعيدها إلى الأرض . .

وكل تاريخ الإنسانية وتقدمها العلمى ليسا إلا انطلاقة وبعدها
انطلاقة . ولذلك تقدمت الإنسانية فى صناعة أدواتها أدوات حياتها
وأدوات استمرارها وأدوات فنائها أيضا . . وأصحاب هذه الدفعات
والانطلاقات هم أبناء العصر الحديث . . هم العالم والطبيب والمهندس
والفلكى والزعيم . .

ولم يأت أنبياء الله لإصلاح أدوات الحياة . وإنما لإصلاح ما هو
أصعب من ذلك . . إصلاح طبيعة الإنسان . .

فأدوات الحياة تقدمت وتطورت من الطوبة التى كان يرمى بها الإنسان عدوه لكى يقتله ، إلى الصاروخ والقنبلة الذرية . . بينما طبيعة الإنسان نفسه لم تتغير فهو ما يزال يعيش مع زوجته وأولاده فى بيت خاص به . . يكره ويحب ويغار ويبأس ويحقد ثم يموت . . وإصلاح طبيعة الإنسان أصعب ملايين المرات من إقامة مصنع لإنتاج الشوك والسكاكين يستخدمها بدلا من أصابعه . . بل من الممكن لأى إنسان عنده ملايين الجنيهات أن يبنى مفاعلا نوويا ، ثم يقف أمام باب هذا المصنع الجبار ويتلفت يميننا وشمالا فإذا لم يجد أحدا يبصق على الأرض أو يتبول على الجدران . .

ويقال إن المليونير روتشيلد عندما افتتح أحد بنوكه فى ألمانيا وراح ينتقل وحده فى غرف البنك وكان خاليا من الناس . . تلفت حوله ثم أخفى أحد الأقلام فى جيبه !

وقال علماء النفس إن الإنسان لص بطبعه ! لقد سرق نفسه . . تماما كأنه تلفت وراءه وأمامه ثم أخذ قلمي من جيبه ووضع فى جيب آخر . . سرق نفسه .

وكذلك الإنسان الذى ينتحر . .

إنه قاتل لنفسه . . سارق لنفسه . . معذب لنفسه . . مخيف لنفسه . . يصنع أدوات حياته وأدوات موته أيضا .

لذلك كانت مهمة أنبياء السماء صعبة . . وأما أنبياء الأرض فكانت ولا تزال مهمتهم أسهل . . ولذلك كانوا كثيرين وكانوا قصيرى العمر . .

وأصبح الطوفان الحديث ليس هو الفساد الطاغى على كل شيء . . وأنا طوفان آخر من الأنبياء المضللين والزعماء النصايين . .

ولكى ننجو من الطوفان لابد من نوح ينقذنا من ألفى نوح . . لابد من
نظرية . . من صاحب نظرية قادرة على ابتلاع كل النظريات . . لابد من
عصا موسى لتبتلع كل ما فى أيدي الكذابين والنصابين . .
وفى السماء شىء من مثل ذلك . .

ففى السماء (ثقبوب سوداء) . . هذه الثقبوب ليست ثقبوبا . . وإنما
هى مساحات سوداء هائلة . كسأها وسط النجوم الباهرة ثقبوب . وهى فى
الحقيقة نجوم ذات جاذبية وكثافة هائلة . . كأنها بالوعات قوية تبتلع
ملايين النجوم . . انظر إلى البالوعة وكيف ينزل فيها الماء وكيف يدور وهو
بداخلها . . ثم إن هذه الثقبوب السوداء تبتلع الأشعة الخارجة منها . .
وكل الأشعة كما قال اينشتين مكونة من ذرات مادية . . والثقبوب تبتلع
أشعتها هى ومادامت قد ابتلعت الأشعة فنحن لانراها . . ولذلك فهى
ثقبوب سوداء . . ملايين النجوم تبتلع ملايين ملايين النجوم . .

ولايزال الكون يبتلع بعضه بعضا . . حتى يتكسد ويتكاثف
ويتكاثف ألوف ملايين السنين . . حتى يصبح شيئا واحدا . . جزءا
واحدا . . ولايزال يتكاثف حتى يصبح ذرة أو أقل من ذرة أو واحداً على
مليون مليون مليون من الذرة . وتكون هذه هى نهاية الكون . . نهاية
المكان والزمان . ومن هذه النهاية يحدث الانفجار العظيم مرة أخرى . .
ويتكاثر الكون ذرات وطاقات ومغناطيسية وحرارة وغازات . . وتتطوح
فى الفضاء الذى يولد مع هذه الذرات . . وتبرد وتتكاثف وتدور بعضها
حول بعض ومن الدوران والجاذبية والمغناطيسية ومن الحرارة ومن
التفاعلات الكيماوية تتولد المادة ومن المادة الحياة ومن الحياة الحيوان
والنبات ومن الحيوان الإنسان . . أفكار الإنسان ونظرياته عن هذا الكون
ونشأته . . وهكذا إلى مالا نهاية . .

فكل شىء يبدأ ويكبر ويتطاول ويمتد لينكمش بعد ألوف ملايين
السنين . . وينتهى ويبدأ إلى ما لا نهاية — هذه هى كل معلوماتنا من
الفيزياء الفلكية . . إلا إذا ظهرت نظريات أخرى . .

وفى حياتنا أيضا . . كل شىء يبدأ وينتهى ويبدأ ويتكاثر وينتهى . .
والعقل يفكر ويحلل وينظر ويتطور وينتهى وتنتهى عقول تضيف جديدا
إلى كل الذى مضى . .

وليس أسهل على الإنسان من تطويره لأطرافه الصناعية : السيارات
والطائرات وسفن الفضاء والعدسات . فالتكنولوجيا هى علم وفن تطبيق
النظريات العلمية . . والتكنولوجيا هى علم صناعة (الأطراف الصناعية
للإنسان) . . العدسات بدلا من العين والطائرات بدلا من الساقين . .
والتليفونات بدلا من الحناجر . .

أما الذى هو وراء كل ذلك فهو عقل وقلب ومعدة الإنسان . وإليها
اتجه أنبياء الله فى أصعب مهمة وهى أن يسود الخير والعدل والسلام . .
ومشكلة الإنسان فى كل العصور أن الأنبياء الذين يفرزهم لا يكتفون
بإصلاح حياة الإنسان وإنما يحاولون إصلاح طبيعته . . أى كأنهم أنبياء من
عند الله وليسوا من عند الناس . .

ولذلك فهذا الادعاء هو الذى جعلهم يصفون أهدافهم بأنها مقدسة
وحروبهم بأنها مقدسة وأرضهم مقدسة وموتنا من أجلهم وأفكارهم موت
مقدس . . أى أننا جميعا شهداء . . وأعداؤنا أيضا لابد أنهم أنبياء من
صنهم . . فهم أيضا مقدسون شهداء وحروبهم كلها فى سبيل الله !

ومشكلة البشرية فى كل العصور ليست هى انتظار الأنبياء وإنما
مشكلتهم أن الأنبياء إذا انتصروا بعض الوقت ، فإنهم يحاولون إقناع الناس
بأنهم لم يصنعوهم ، وإنما هم أنبياء من السماء . . أى أنهم جاءوا من

السماء، ولم يأت بهم أحد من الأرض . . وإن الناس يجب أن ينظروا إليهم
على أنهم آلهة . . أو نصف آلهة على الأقل !

ولأن الأنبياء الجدد من صنع الإنسان فإنهم يحاولون دائما أن يفلتوا من
قبضة الشعوب . . وهنا نرى استقلالهم عن الإنسان . . وترى الشعوب
أن أنبياءهم قد كذبوا عليهم وخدعوه . . وجردوهم من حقهم التاريخي
في صنع أنبيائهم . .

وتنقلب الأوضاع فتصبح مقاومة هؤلاء الأنبياء الكاذبين مقاومة
مقدسة . والحرب ضدهم مقدسة . . والقضاء عليهم ، كالقضاء على
أعدائهم . مقدس أيضا . . وفي هذه الحرب المقدسة يصبح الأنبياء
نصايين مجرمين . . وتصبح الشعوب كلها من الأنبياء . . فكلهم مؤمنون
ضد كافر واحد . . كافر بهم . . بأنهم هم الذين أتوا به !

والأنبياء من الشبان . . فهم مستعدون للنسوة وللرسالة وهم صغار
. . يراقبون ويحللون وينصحون ثم يدعون الناس . .

فتنوح عليه السلام بدأ دعوته في ريع عمره . . كان عمره ٣٥٠ عاما
ودعاهم ٩٥٠ عاما وعاش بعد ذلك ٤٥٠ عاما . .

وهم شبان متجهون إلى الشبان . . أى إلى المستقبل . . لأن كبار السن
لا أمل فيهم . . أو إن الأمل منهم قليل . . فقد جمدوا على وضع ومن
الصعب تحريكهم بعيدا . . والشبان لأنهم صغار عندهم طموح وفيهم
حيوية . . ويتطلعون إلى الأمام . : وهم في حاجة إلى من يأخذ بيدهم . .
يهدئهم يرشدهم . . يثبت أقدامهم يؤكد لهم : أن الضياء التي يرونها
ليست سرابا ، وأن الموسيقى التي يسمعونها ليست صفير الريح وفحيح
الأفاعى . . وأنهم ولدوا ليعيشوا . . ويعيشون ليسودوا مصيرهم . .

فماذا يريد شباب العالم اليوم ؟

أما الطوفان فله في كل بلد اسم ورسم . . وأما القلق والخوف والعذاب واليأس فسحاب على رؤوس الجميع . والناس صيادون في بحر الحياة . . وكما في البحر كانتات حية ، ففيه جيف أيضا . . وكما على الشاطئ صيادون ، فهناك نصابون يصيدون الناس . . فما المطلوب ؟

المطلوب هو أن نجد صاحب النظرية الصادق المخلص

فلا ينقص هذه الآراء المهوشة والمشاعر المضطربة والمخاوف المتلاطمة لاينقصها جميعا إلا : إطار . .

إطار النظرية . والنظرية تنظم هذه الفوضى . وتضع لها أولا وآخرها . . أولها اليوم وآخرها غدا وبعد غد إلى عشرات السنين .

وتكون النظرية اقتصادية

أو تكون سياسية

أو تكون دينية . .

وكما أن الإنسان صانع أدوات حياته ، فهو أيضا صانع نظريات حياته ونجاته من الطوفان . .

فلا بد من نوح جديد . . أكثر من نوح في كل طوفان . .

ومن اتفاق نوح هنا ونوح هناك يكون النظام الذي يربط العالم كله . . النظام المثالي الذي تتطلع إليه الشعوب في كل العصور . . بشرط . . بشرط ألا يكون النظام خائفا . . يقضى على آمال الشعوب في السلام والرفاهية والعدل والحرية . . فإذا خنقها واختنقت أفرزت الشعوب من جديد ألف نوح يضعونها على الطريق الصحيح . . فإذا انحرف نوح وضللهم - وقد حدث كثيرا . . انحسروا وتحلوا عنه وراحوا يزرعون أشجارهم وليبنوا منها سفنهم

ويكون نوح هو أول ضحايا الطوفان . .

إن الشعوب مع أبنائها لها مشكلة وحيدة . . وهي أن نوحا ينسى
عندما يحكم ويتحكم أنه كان واحدا منهم . . وأنهم رفعوه فوق . . فقد
نسى أنه كان تحت . . واحدا من ملايين وأصبح واحدا فوق رؤوس
الملايين . .

المصيبة أن الشعوب لا تنسى وأن نوحا هو الذى ينسى بل يفرض
صناعة النسيان على الشعوب . . يريد لها أن تنسى أنه كان واحدا منهم .
فلا تذكر إلا أنه فوق . . لانه ولد ليكون فوق ، وأنهم ولدوا ليكونوا
تحت . .

١
مما ينساه نوح هذا أن السدين جلسوا قبل ذلك فى مكانه الرفيع كان
قبرهم الطوفان . . وموتهم محققاً وبلا جنازة . . فلا أحد يمشى فى جنازة
قاتليه . . !

حتى لا يتكلم السليفيون !

كلنا يقلب في الراديو في الساعات الأخيرة من كل ليلة . وتجد الموسيقى أو الأخبار أو التعليقات السياسية . وعادة لا يكون لدى المشتغلين بالسياسة أدنى رغبة في أن يستمعوا إلى الأغاني أو الرقصات . . أيا كان المطرب . أنا شخصيا أتضايق من الأغاني عندما أكون مشغولا بالقراءة أو الكتابة . لأن الأغنية تدور حول واحد عنده مشكلة مع واحدة . . والمشكلة ليس لها حل . ومطلوب مني أن أكون طرفا وأن أكون قاضيا عادلا في قضايا الحب . ومن المستحيل أن يكون الإنسان قاضيا ، وإذا كان قاضيا أن يكون عادلا . فالمحبون يكرهون العدل . لأن الحب هو توريط من القلب للعقل . ومن المستحيل أن تكون عادلا مع من تحب . . لأن الحب ارتفاع مفاجئ في درجات الحرارة وهلوسة جميلة . . ثم إنه ليس مرضا . ولكن كأنه المرض . وكأن كل طرف يريد حلا . فإن كان الحب مرضا فلا أحد يريد الشفاء منه . . وإن كان الحب لحظة ، فليس لها ماض . والإغريق اختاروا للمحب طفلا يلقي سهاماً من ذهب أو من فضة . . فالحب (عيل) وهو قادر على السخرية من أى عاقل حكيم . . مثل هذه الأفكار أو المشاكل لا أريد أن أكون طرفا فيها . فعندى الذى يشغلنى . ولذلك أنقر من الأغاني بكل لغة في هذه الساعات الأولى من كل صباح . .

وأظلم أبحث عن الموسيقى الهادئة التى تحبى من كل مكان وتندور حولى ولا تقتحم أذنى وتحشر ما فيها فى قلبى ودماعى . . وإنها أحب أن يكن لها دور المرافق والسحاب والنسيم . . ومن صفاتها أنها هناك . بعيدة تستأذن فى المثل بين يدى . . فإذا انشغلت عنها ، ظلت فى مكانها ضبابية سحابة . . فى انتظار لفتة أو نظرة أو آهة . . إنها نوع من الغلالة الحريرية . . البطانة الوجدانية التى تحتضنى وتعانقنى وتحتوينى دون أن تضغط حتى تحطم لى أعصابى وقفصى الصدرى والقلم فى يدى .

كانت عندنا قناة تليفزيونية واحدة فأصبح لدينا ست قنوات . . والذين عندهم أطباق فوق السطوح عندهم عشرات . . ويتباهى بعضنا بأن لديه مائة قناة . . بلاش مائة ، فليكن ألف !

فليس هذا جديدا . فالراديو الصغير يعرض عليك مثل هذا العدد يوميا . . والسوبر ماركت فيه ألف صنف ، وكذلك الأجزاخانة . وأنت تمد يدك إلى ما تحتاج إليه أو ما يعجبك . .

أما التعاسة التى تظهر على وجهك وأنت تبحث عن القنوات فليس سبب ذلك أنك لم تجد ما تريد . . وإنها سببه أنك تريد أن ترى كل ذلك . ولكن ليس عندك وقت . ولن يكون عندك وقت . . تماما كالذى أمامه ديك رومى أو حوت . . فهو ليس تعيسا بها يجد ، وإنها هو تعيس لأنه سوف يترك معظم الذى أمامه دون أن يحشره فى معدته . . تماما مثل دموع التمساح التى تسيل وهو يأكل فريسته . . فهى دموع الفرح وليست دموع الحزن . . والضيق الذى يتتابك هو ضيق الذى يجد الكثير ولا يعرف ما الذى يفعله . . فكيف تضع قنطارا من اللب والسودانى فى جيب الجاكسة . . كيف تعبىء ماء النيل فى زجاجة عطر ، كيف تملأ ساعة واحدة من وقتك بألف ساعة إرسال تليفزيونى ؟ !

مشكلة . ولكن لها حلا . فأنت لاتستطيع أن ترى كل شيء وإنما بعض البرامج . وأنت اليوم أصبحت سلطانا وكل شبكات التلفزيون في الدنيا تقول : شببك لييك . . أمرك يا ملك !

وأنت ما دمت قد أصبحت ملكا ، فلتكن ملكا مستنيرا عاقلا . فتختار الذى يعجبك والذى يملأ الوقت الذى خصصته للمشاهدة قبل النوم . . أو بعد الغداء . فلا بد أن تأكل وأن تستريح وأن تنام لتنهض فى الصباح لتؤدى واجبك . . فالوقت قصير والتلفزيون والإذاعة والصحف والمجلات والكتب والعمل والمجاملات الاجتماعية كلها تحتاج إلى وقت . والشاطر من يستطيع أن يوفق بينها جميعا . وأن يحشرها بعضها فى بعض . وأن يحذف وأن يختار .

وأصبحت الآن تجد العذر فالذى يقول لك : انت فى ؟

- أنت لا تسأل عنى !

- وأنت لا تسأل عنى !

- يعنى إيه ؟

- لا تلمنى ولا ألومك . فليس عندى وقت .

- للدرجة دى ؟

- للدرجة دى !

- يعنى إيه ؟

- هذه حال الدنيا !

- الله يلعن الدنيا

- ولكننا نحن الدنيا . . فهي من صنعنا . . صنعناها فاستعبدتنا . .
نحن الذين صنعنا القيود ، وصنعنا الوقت ، وصنعنا أنفسنا . فلا معنى
للكسوى !

- لم يعد في الدنيا خير . .

- هذا هو الخير المتاح . .

- هل هذا هو حسن الجوار ؟

- أو وقف إطلاق النار . .

- صحيح : من حسن الجوار وقف إطلاق النار !

- كما تحب . .

- أنا لا أحب ولا أكره . .

- هذا أفضل !

- حيوانات نحن ؟

- مؤكد . . فالإنسان لم يتطور كثيرا فالإنسان الذى وجدوه فى جبال
إيطاليا والنمسا لم يتغير شكله ولا تكوينه . . بل إن الإنسان من مليون
سنة ، كالإنسان اليوم . . نفس المشاعر . . نفس العواطف . . نفس
الأحقاد والكراهية والغیظ . . وولدا آدم اللذان قتل أحدهما الآخر لم
يموتا . . وإنما دماؤهما تسرى فى عروقنا فما نزال نقتل ونحقد ونحسد وإذا
كان أبنا آدم قتل أحدهما الآخر بحجر . . فقد تطورت صناعة الأحجار
وأصبحت بندقية ومدفعا وصاروخا وقنبلة ذرية . . لقد طور الإنسان
أدوات الموت . . كما أنه طور أيضا أدوات الحياة . . فأنت تأكل بالشوكة
والسكين والمعلبات والفيتامينات . . وبدلا من المشى على قدميك تركب
السيارة والطيارة ومكوك الفضاء . . أما طبيعة الإنسان فلم تتغير ، وأما

أدوات الحياة والموت والعلاج والكتابة والصناعة فهى التى تطورت . .
فالإنسان حيوان . . كان ولا يزال وسوف يبقى . . وكلما تقدم وتطور ضاق
وقته للآخرين . . لزوجته وأمه وأولاده وجيرانه . .

ولقد وجدت لنفسى حلا سعيدا - أنا الذى أقول إنه حل وإنه سعيد .
فقد اشتريت مئات الكاستات التاريخية والعلمية والفلكية والجغرافية . .
أنا الذى اخترت هذه الكاستات ، وأنا الذى اختار الوقت الذى أراه
مناسبا لى . . فى الصباح الباكر إذا لم أجد ما أقرؤه أو أكتبه . . أو بعد
الغداء ساعة أو ساعتين . . أو فى الليل بعد أن أسمع نشرات الأخبار
بلغات مختلفة . .

ولا أجد حرجا فى الإجابة بالنفى عن مثل هذه التساؤلات : ما رأيك فى
المسلسل . . بدمتك هل هذا كلام أو تمثيل . . أو هل هذه هى القصة
التي تشغلنا الآن وفى المرحلة الحالية . .

ويكون ردى أننى لم أر وأننى أنتهز هذه الفرصة لكى أسجل قرفى
للتعبير : المرحلة الحالية . أو المرحلة القادمة . . فهى من أكثر التعبيرات
شعبية وانتشارا على ألسنة المسئولين . وليس لها أى معنى . . لأنه كيف
تحدد المرحلة الحالية وتفصل بينها وبين المرحلة الماضية أو القادمة . . كيف
تضع الحدود بين الحالى واليوم والقادم ؟!

ثم إنه لم يطرأ أى تغيير على هذه المراحل أو بينها . . ما علينا . المهم
أنى سيد مصيرى وقرارى ومزاجى وأنى أنا الذى أختار . والذى أختاره هو
الذى يعجبنى . . فأنا لا أأكل اللحم بكل أسائها وأشكالها وألوانها
وطعومها . مع أن السوق مليئة باللحوم . ولكن لا أأكل إلا الذى يعجبنى
وأنا على الجانب الذى يريحنى وأضيع وقتى وأستثمره وأسترده على النحو
الذى أراه مفيدا وممتعا لى . . فلست عبدا فى إمبراطورية التلفزيون . . وأنا

أفضل أن أكون إمبراطور في دولة طولها أربعة أمتار وعرضها ثلاثة ، على أن أكون عبدا في إمبراطورية الألوان والأعصاب المحترقة التي يبتها التلفزيون في الكرة الأرضية وحولها . .

وكان الناس يشكون من الراديو قبل التلفزيون . . فكان الناس يسهرون في المقاهي يسمعون الراديو . . وكان الراديو ساحرا قاهرا . . ولم يكن الراديو أول الأمر يذيع إلا ما تبثه مصر وحدها . . واستطاع الراديو أن ينقل إلينا أصوات الدنيا ليلا ونهارا . . ومن بعد الراديو جاء الريكورد . . أى الذى يذيع ما سجلناه . . وما نريد أن نسمعه ويشغلنا عن النوم وعن العمل والذاكرة . . أو الذى نفتح له ليلا ونهارا أثناء الأكل والنوم والعمل والسهرة والأرق والذاكرة أى لا بد منه . . كأنه هواء . . ماء . . كأنه الحياة نفسها . . أو لاحياة بغيره . . ثم جاء التلفزيون المصرى . . وبعده التلفزيون الذى يلتقطه أبناء الشواطئ مما تبثه بلاد البحر الأبيض المتوسط وبعض الدول العربية . .

وأخيرا ظهر فوق بيتنا دش . . واتسع نطاق ذلك الساحر بالألوان والموسيقى . . وانفتحت علينا الدنيا كلها . . مئات القنوات ليلا ونهارا . . وفي بريق ووهج هاروت وماروت ضاع العقل الإنسانى . . وطار النوم وتآكل الليل والنهار . . ولم يعد الإنسان قادرا على أن يجد نفسه . . لقد ضاع بين مئات القنوات وألوف البرامج . . فهو ينام عليها ويها وعلى الرغم منها . . وتشققت الدنيا ، ليلا ونهارا وطعاما وشرابا . . وتقلب وتآلب الإنسان بها ومعها وأمامها وأصبح يضع رأسه مكان قدميه . .

فتحن نرى قطرات العرق على جباه اللاعبين في كأس العالم واللاعبات في ويمبلدون وقبل ذلك على جباه رواد الفضاء . . والتراب الذى يتناثر تحت أقدام الذين هبطوا على القمر . .

بل إن المرصد الفلكي (هابل) السذى يدور حول الأرض قد بعث لنا بصورة الكون بعد أن خلقه الله بثلاثة ملايين من السنين - تصور ! ومن المعروف فلكيا أن الله قد خلق الكون من ١٥ ألف مليون سنة . .

وأعجب من ذلك أن التليفزيون العالمى قد أذاع لنا صورا لمعارك الحيوانات المنوية والبويضات فى رحم إحدى الأمهات . . رأينا هذه الكائنات الضئيلة التى هى سر الحياة وسمعنا صوتها - فقد استطاع العلماء إدخال مناظير دقيقة جدا تلتقط الصوت والصورة فى أرحام الأمهات 11

ورحم الله أجداد أجدادنا القدماء وهم يصفون لنا كيف كان الغناء والطرب يفعل بهم : صوت مطربة واحدة إذا غنت بيتا واحدا . .

وقد وصف لنا المفكر العربى الكبير أبو حيان التوحيدى حال الناس وهم يستمعون إلى الجوارى يغنين وماذا كان يفعل الطرب بالناس . فيقول فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) : إذا سمعوا صوت المطربة (نهاية) وهى تقول :

ودعته وبودى لو يودعنى صفو الحياة وأنى لا أودعه !

يقول : فإنه إذا سمع هذا منها ضرب بنفسه الأرض ، وتمرغ فى التراب وهاج وأزبد وتعفر شعره ، وجاء الرجال ، هذا يضبطه ويمسكه ومن يجسر على الدنو منه فإنه يعض بنانه ، ويحتمش بظفره ويركل برجليه ويمزق ملابسه قطعة قطعة ويلطم وجهه ألف لكمة . .

أو إذ غنت المطربة (بلور) :

اعط الشباب نصيبه مادمت تعذر بالشباب
وانعم بأيام الصبى واخلع عذارك فى التصابى

إذا سمعها انقلبت حماليق عينيه وجاءوا له بالكافور وماء الورد ، وهذا يقرأ في أذنيه آية الكرسي والمعوذتين . . أو إذا غنت المطربة (قلم) وإذا هى تناوأت في استهلالاتها وتضاجرت على ضجرتها ، وتذكرت شجوها الذى قد أضناها وأنصاها (وسلبها منها وأنساها إياها) .

إن أجمل تعبير استخدمه أبو حيان التوحيدي هو وصفه للطرب بأنه سلبها منها وأنساها إياها . . أى سرقها من نفسها وأنساها نفسها .

فالمطربة تسرق الإنسان من نفسه . . تسرقه ثم تعيده إلى نفسه . . فهو الألوية الغناء والموسيقى والمتع البريئة . .

ولم يكن ذلك إلا بسبب أغنية واحدة لمطربة واحدة . . فما الذى يفعله التليفزيون بنا . . بألف مطرب وراقصة وموسيقيار وأفلام وبرامج ومباريات ورحلات . . لقد أصبح الإنسان الألوية التليفزيون . ولذلك وجب علينا أن نرفع علامات الخطر ، وأن نطالب أنفسنا بأن نحترس وأن نلف حولنا أطواق النجاة وأن نستعيذ بالله من شر وسحر هذا القوى الجبار الذى سلاحه اللون والصورة والاثارة . .

يقول أبو حيان التوحيدي أيضا : إنه ليس أروع من صوت المطربة التى اسمها (الخاطف) وهى تقول :

تلهب الأكف من تلهبها وتحسر العين أن تقصاها

كأن نارا بها محرقة نهاها مرة ونغشاها

نأخذها تارة وتأخذنا فتحن فرسانها وصرعاها !

نعم نحن فرسان الطرب ونحن صرعاها أيضا . .

وليس أجمل من قول أبى حيان التوحيدي فى صوت أحد المطربين : إنه يسرقك منك ويردك عليك . .

أى أنه يسرقك من نفسك ، ثم يعيدك إلى نفسك . .
وهذا واحد على ألف مما يفعله التلفزيون بمئات القنوات . . في
الصغير والكبير والمتعلم والعالم ، والغنى والفقر والسلیم والمريض والمؤمن
والكافر . .

وكما كان الناس يتمرغون على الأرض لصوت واحد ، فالتاس يتمرغون
على الكرة الأرضية اليوم ، والكواكب الأخرى غدا . . والسبب هو هذا
الصندوق السحري الذى صنعه الإنسان بيديه وحس نفسه فى داخله . .
ليجعله فاقد الإرادة والعقل . . وسعيدا بذلك !

يعنى إيه ؟ يجب ألا تبدد عقلك وقلبك وعمرک بلا قضية . . فالقضية
أن العلم والفن والفكر كثير وأن العمر قصير . . كما أنك لا تستطيع أن
تشرب البحر ، وأن تسحب الهواء من الجو ، وأن تجمع نور النجوم فى
عينيك ، فكذلك أمام التلفزيون والإذاعة والصحف والكتب . .

ضع ساقا على ساق وتراجع فى مقعدك وقل بمتهى العقل والحكمة
والواقعية لا . . لكل هذه الشوشرة اللونية الصوتية لكى أصبح قادرا على
أن أعيش أهذا وأن أتذوق أمتع ، وأن أنام أعمق !

أما أنا فقد حاولت واخترت واقتنعت . فحاول أنت أيضا !

شاي.. صابون وبامبرز !

غلطة وقع فيها الزعيم تشرشل في مجلس العموم ، ولم ينسها حزب العمال حتى مات . فقد حدث في إحدى الجلسات أن ضايقه نائب من حزب العمال وقال لتشرشل : وأنت ماذا فعلت لنا . . ماهي السلعة التي جعلتها أرخص !

وكان الرد القنبلة . . قال تشرشل : لقد رخصنا لكم الصابون ولأن هذا النائب كان ممثلاً لعمال الفحم فقد غضب من هذا التعبير الساخر الموجه . واعتذر الزعيم تشرشل عن هذه (الجليطة) وقال : يوسفنى يا سيدى جدا . فلم يدر بخاطرى أن أهين عضوا محترما . ولكنها القافية !

ولم يقبل النائب هذا العذر فذهب إليه تشرشل وانحنى . وقبل النائب العذر . .

ولكن أحدا في مصر لم يقلق على انتشار إعلانات كل أنواع الصابون والبودرة في التلفزيون . المعنى أننا إلى هذه الدرجة في غاية القذارة وأنا في حاجة إلى كل أنواع المنظفات . ولكن هذه حقيقة . فبلادنا تراب يحيى من المقطم ومن الصحراء . وإذا تحرك الهواء جاءنا التراب من فوق

الأسطح . . وإذا انطلقت السيارات أثارث التراب . . والخمسين هـى
مهرجان التراب والرمال والحراة . وهو ما يحدث كل سنة . .

ثم إننا فعلا لسنا من الشعوب النظيفة . . انظر إلى الشوارع . . بلاش
الشوارع انظر إلى الحواري . . بلاش الحواري . . هات لك عشرين ليمونة
وضعها أمامك وأنت تتفرج على القناة الثالثة . . فنحن نعرض بأجل
الألوان أفذر ما فى مصر . . أحياء كاملة فى الطين والوحل . . أحياء كاملة
مغطاة بالذباب والهباب . . والناس يعيشون فى المجارى ويخرجون منها
ويخرجون عليها . . كل يوم . ولا يتغير شىء .

فما المعنى ؟ المعنى أنه من الممكن أن نعرض كل صور القذارة والإهمال
والمرض والفقر والسخط . ومع ذلك لا يتغير أى شىء . . فسوف تبقى
الصورة كما هى . والناس كما هم . . والشكوى لغير الله مذلة وهوان
ويجىء المسئولون ذبابا كثيرا على الشاشة وبسرعة تظهر لأعناقهم عروق نافرة
ويقولون : رفعنا تقريراً للسيد الوزير الدكتور المحافظ . . ورفعنا تقريراً
للسيد عضو مجلس الشعب عن الدائرة . .

ويصرخ أبناء الشعب : كذب . . لم يحدث . . ولكن الزبالين يجيئون
ولولا أننا نعطيهم فلوسا ماكنسوا ولا غسلوا فمن أين نأتى بالفلوس كل
مرة . . من أين ؟ !

والحكاية طويلة عملة . وهى طويلة لأن الذين يعانون من ويلات
القذارة والإهمال - إهمالنا لهم - كثيرون جدا . . وهى عملة لأن السادة
المسئولين يقولون كلاما واحدا . . وهم يتحدثون فى الكلام وفى الفعل
لأشياء فما المعنى ؟

المعنى أن المشاهد قد اعتاد على شيئين فى وقت واحد : القذارة ولا
مبالاة الدولة !

لقد استقر لدى الناس جميعاً أنه لافائدة . . وأن سعد زغلول قبل أن يموت قال : مفيش فايدة !

ولا أحد يعرف إن كان سعد زغلول قد قال ذلك . . وحتى لو قال ذلك فكل إنسان عندما يموت يقول : مفيش فايدة . . مفيش فايدة من دموع الناس حواليه . . مفيش فايدة من دخول الأطباء وخروجهم . . مفيش فايدة أن يطول العمر سنة أو مائة . . فالموت لا محالة نهاية الجميع . .

وهؤلاء الناس يقولون : مفيش فايدة . .

بل إن رؤيتهم كل يوم تؤكد أنه مفيش فايدة . .

ومفيش فايدة أيضاً ما يقال في الصحف . . ما يقوله كبار الكتاب وصغارهم ورسامو الكاريكاتير . . لقد استقر لدى كل الناس أنه لافائدة من الكلام والنقد والسخرية وإن الأذان في مالطة مثل الأذان في سيشل التي نفى إليها زعماء الحركة الوطنية . . وفي جزيرة سانت هيلانة التي نفى فيها الإمبراطور نابليون . . لا فائدة . فكل شيء يتكرر حرفياً أو مع تعديل في الحروف وتراكيب الجمل !

نعود إلى كثرة إعلانات الشاي والصابون والبابرز وأولويز الخاص بالمرأة . . ولابد أن يكون الشاي قد تكدمس في مصر . وإلا ما كانت هذه الإعلانات . . وإن محصول الشاي في سرى لانكا والهند وأندونيسيا قد توفر في الأسواق . . ولابد من الدعاية له حتى لا تنخفض أسعاره ويسوده الكساد ويصبح زبالة في القارات الخمس . . فهل الذي ينقص الناس هو الشاي ؟ هل الشاي من مفردات الكيف في مصر ؟ أو من الواجب أن يكون كذلك ؟

إن مثل هذه الإعلانات ترسخ في عقول الناس أنه ضروري . وأنه هو وحده الذي يعدل المزاج . . ويكفى أن ترى الإعلانات وما تحدّثه في

الناس . . في البيت والغيط . . وهذا الإلحاح على عيون الناس وعلى عقولهم يوميا يدفعهم إلى شرب الشاي . . فإذا شربوه اعتادوا عليه فإنهم يختارون أكثر الأنواع قوة وطعما . . المهم أن الإعلانات قد اقتلعت الشاي من الهند وغرسته في أدمغة الناس . . وبذلك تنفتح الأسواق للشاي والأكواب والملاعق الصغيرة والسكر والنعناع . لقد أصبح الشاي من نعيم الحياة ، ولم يكن كذلك . والفضل للإعلانات التي اخترعت سوقا وخلقت عادة وضاعفت عدد المدمنين . .

وكل إعلانات التليفزيون هي محاولة ملونة موسيقية غنائية فكاهية لفتح أسواق جديدة قد تكون هذه السلع غير ضرورية ككل المشروبات الغازية . . إنها ليست ماء الحياة . وإنما هي نوع من الترف مثل اللبان والشبسي . ولا يستطيع المشاهد أن يفكر في بديل عنها . . أو يفكر في الاستغناء عنها . . أو يرى ذلك ممكنا . ربما أنت تستطيع ذلك . ولكن كيف تقنع طفلك بالألا يشترى هذا الكم الهائل من الشيكولاتة والبسكوت والبنون بون والكوكا والبيسي وغيرها . أنت لا تستطيع . وهذه الشركات تعلم ذلك . وكل إعلاناتها الجميلة اليومية البارعة تؤكد أنها جميعا جيوش وراء دموع طفلك . . أو وراء حنجرته الغليظة عندما يكبر . . وبعض المدارس تبيع هذه المشروبات والمأكولات بالدولار . . وقد رأيت الكثير من الآباء يشترون الدولار من السوق لأطفالهم . لماذا ؟ أنا الذي أسأل . ولكن الآباء يرون أن سؤال فرعونى عتيق . . لأن أحدا لا يستطيع الآن أن يقول لابنه : لماذا ؟ فالطفل يريد . ورغباته أوامر بالدولارات والاسترليني . ولماذا ؟ - أنا أيضا الذي أسأل . والجواب أصابع تشير إلى إعلانات التليفزيون !

ولا يوجد تليفزيون في الدنيا يعيش من غير إعلانات . فالإعلانات هي المصدر الأول لكنوز التليفزيون والإذاعة والصحافة . ولذلك لم تولد بعد

الصحيفة أو الإذاعة أو التلفزيون الذى يهاجم صاحبة العصمة :
الكوكا . . فى أى مكان من هذا الكوكب . وقد دفعت الكوكا لهيئة الفضاء
الأمريكية (ناسا) مائة مليون دولار لكى تلقى بإعلان عن الكوكا فى أول
هبوط لها فوق المريخ !

وهناك نكتة تقول - وإن لم تكن نكتة - إن هذه الشركة قد اتفقت مع
البابا يوحنا الثالث والعشرين أن يضع كلمة (كوكا) بدلا من كلمة (آمين)
عند الصلاة فى أحد الأعياد . والتمن مئآت الملايين من الدولارات . لقد
حدث . الشركة عرضت هذه الإهانة !! والبابا رفض . ولكن كل وسائل
الإعلام فى الدنيا نشرت هذه الواقعة التى كانت إعلانا مجانيا !

والإعلانات عن السيارات من كل لون ونوع . . فالإعلانات تتجه إلى
الموظف الكبير وتقول : إنها سيارة الرجل المهم . . سيارة صاحب القرار .
من يشتري هذه السيارة هو فعلا صاحب قرار ذكى . فليس أجمل ولا أروع
ولا أمتن من هذه السيارة !

أو تتجه إلى الشبان فتقول : فى الدنيا شيان ضروريان : فتاة جميلة
وهذه السيارة التى فيها كل صفات الجمال : النعومة والانسياب والهدوء
والحنين إليها والاعتماد عليها !

وإعلانات تتجه إلى الطبقة المتوسطة التى عندها كل القرف من الطبقة
الدنيا ، وكل أحلام الطبقة العليا : لاتقفز فى سلم الحياة . . وابدأ بهذه
السيارة الاقتصادية المتينة الطويلة العمر . . فالسمو والنمو خطوة خطوة
وربنا لم يخلق العالم فى يوم واحد . . وأنت لاتصل إلى القمة باهيلوكوبتر .
أى تسقط من السماء على القمة . . وإنما أنت تزحف شامخا إليها . .

فما المعنى ؟ المعنى أن الإعلانات في كل تليفزيونات العالم تخلق (عقلا جماعيا) . . تخلق نمطا من التفكير . . تضع زياً موحداً للأفكار بين الناس . . سلوكا حديديا لا يخرج عنه الناس .

أما وسيلة الإقناع فهي : الجمال والأناقة والفكاهة والبلاغة في الإعلان التليفزيونى !

قرأت تقريرا رفعته إحدى الهيئات العلمية إلى الرئيس الأمريكى ريجان . التقرير فى ١٥٠٠ صفحة . موضوعه :

هل المدرسة قبل التليفزيون أو بعد التليفزيون ؟ وأيهما أقوى ؟ وما الخوف ؟ وما الضرر ؟

وكان هذا التقرير قد توجه باستفتاء ٢٤ ألف طفل وشاب . .

٩٠٪ من الأطفال يفضلون الطعام أمام التليفزيون . .

٨٠٪ من الأطفال يفضلون أن يناموا أمام التليفزيون . .

٧٠٪ من الأطفال يفضلون النصيحة إذا جاءت من التليفزيون . يعنى لو طلبت الأم شيئا من الطفل أن يعمل أو يمتنع عنه فإنه قد لا يستمع إليها . . ولكن من المؤكد أن هذا الطفل سوف يطيع تماما ما يجرى فى برامج التليفزيون . .

و ٩٠٪ من الأطفال لا يتضايقون من الإعلانات التى تجيء وسط برامجهم أو الكارتون الذى يتفرجون عليه . . لأن الإعلانات أقرب إلى الكرتون . . وأبطال هذه الإعلانات أطفال صغار . . وأن أحدا لا يضرهم أو يهددهم بذلك . . وإنما كل الأطفال فى الإعلانات يأكلون ويشربون ويلعبون ويضحكون . . ويفوزون بالقبلات فى النهاية . .

و ٩٠٪ من الأطفال إذا وجدوا في الأسواق نوعا من الشيكولاتة لم يروه في التلفزيون فإنهم يترددون في شرائه أو تناوله . .

ومعنى ذلك : أن التلفزيون وحده هو مصدر الأكل والشرب الذى يعجب الطفل . . وأنه وحده القادر على أن يأمر وينهى . . وأن التلفزيون مطاع دائما من الأطفال .

وقد حدث فى إحدى الحفلات المدرسية أن ظهر عدد من أبطال برامج الأطفال بنفس ملابسهم . . ظهروا على المسرح أمام الأطفال وداعبوهم وتحدثوا إليهم . ولكن لوحظ أن بعض الأطفال راح يبكى . ولما سئل عن السبب أجابوا : ولكنهم لا يتكلمون كما يتكلمون على الشاشة !

يعنى أن الطفل يريد من الذين يظهرون على الشاشة ويتحدثون إليه أن يكونوا بالضبط كما يظهرون . . ألا يختلفوا عن صورتهم على الشاشة . وإلا كان ذلك خروجا على النص الذى اعتاد عليه الطفل . إلى هذه الدرجة قد تأثر الأطفال بالتلفزيون . . وكان التأثير حريا . . فالطفل يريد نفس الكلمات والحركات . . وهذا هو الشرط الذى يحرص عليه الطفل لكى يكون مطيعا . بتنفيذ كل ما يطلبه التلفزيون . . دون مقاومة من الطفل . . ودون مقاومة من والديه أيضا !

أما الاستفتاء الذى وزعوه بين الشبان وأكثرهم من طلبة وخريجي الجامعات وصغار الموظفين فهو يغطى مجالات أوسع وأعلى وأكثر تعقيدا .

فأجاب ٨٧٪ من الشبان أنهم يفضلون الفتاة الرياضية التلفزيونية . .

و ٨٦٪ يفضلون الفتاة التى تنجب طفلا واحدا . . ولدا أو بنتا . .

و ٨٠٪ يفضلون الجريئة التى تفرض نفسها عليهم . . أى التى تتجه إليهم وتدخل فى الموضوع مباشرة هكذا :

- هل أمك ما تزال على قيد الحياة ؟

- نعم

- مريضة ؟

- مرضها ليس مميتا .

- هل هذا رأيك .

- رأى الأطباء

- وأنت ماذا ورثت عن أمك ؟ صحتها ؟ بخلها ؟ حبها للناس ؟
كراهيتها للأطفال ؟ . . ماذا بالضبط ورثت عن أمك ؟

- لماذا ؟

- لأننى أريد أن أعرف ما هى الصفات التى سوف أواجهها اذا تزوجنا ؟

- ومن قال إننا سنتزوج ؟

- أنا التى تقول . .

- ولكن ليس هذا رأى !

- سوف يكون رأيك !

- كيف ؟

- هذه مهمتهى وبراعتى أيضا . . هاها . . هاها . . إننى اضحك
معك فلا تخف . . فأنا أكره الزواج . . ورأيت أمى وأبى يعيشان فى تعاسة
تامة . . فصورة الزواج أمامى بشعة . .

- ولكنك جميلة وذكية

- تماما كما قال لى كثيرون

- وهل عرفت كثيرين ؟

- ليست جميلة ولا ذكية من لا تعرف كثيرين . . وأنا أرى أنك (قفل)
فلاح تكره المرأة التي لها تجارب في هذه الدنيا . . وكنت أظن أن أمثالك قد
اختفوا مع الهنود الحمر . . ولكن يبدو أنني غلطانة . .

- لا . . لست ضد الزواج . . أبدا . . إننى رأيت أبى وأمى يعيشان
في سعادة . . وقد ورثت منهما الشجاعة . واتخاذ القرار السريع
والحاسم . .

- أنت ؟

- نعم أنا . .

- هل تتزوجنى الآن وفورا ؟

- نعم !

وهكذا نجحت الفتاة الجريئة !

و ٧٨ ٪ من الشبان يرون في المسلسلات التلفزيونية صورة من
الواقع . . وأن المشاكل التي تعرضها وتحلها ، أو تحاول ذلك هي نماذج
للحياة . . أو (دليل العمل الزوجى) من أجل حياة أفضل . .

٩٠ ٪ من شباب الريف يرون أن التلفزيون والسينما والمسرح تفسد
الحياة الاجتماعية . . لأنها تفرض على الناس نوعا خاصا من المشاكل
العائلية التي يفرضها المؤلفون على اخلاقيات الناس . . وأن عيب هذه
الأعمال الفنية على الشاشة وعلى المسارح : أنها تعقد العقد حتى ينجح إلى
المشاهد أنها مستحيلة . . وفجأة تحقق المعجزات ويبيء الحل سعيدا في
النهاية !

ويرى هؤلاء الشبان أن التلفزيون والسينما والمسرح ترسخ معنى (المعجزة) عند الناس . . وأن مشاكلهم تحتاج إلى قوة خارقة لكي تحل . فإذا لم تحل فالتناس يصابون باليأس والقرف والإحباط . . وهذا يدفعهم إلى حلها بالعنف . . وهناك طريقتان لحل أية عقدة : أن تحلها وأن تقطعها . . وقطع العقد أسهل من حلها . . ويكون القطع بالسكين وبالنار أو بالهرب من الموقف . . وذلك بالانتحار أو بالإدمان . . إدمان المخدرات أو الجنس أو الهوس الديني !

و ٨٨٪ من الشبان من أبناء المدين يفضلون الزواج من أجنبية سمراء أو صفراء .

و ٨٠٪ من أبناء الريف يفضلون الزواج من أمريكية بيضاء .

و ٧٠٪ يفضلون الزواج من أوروبية .

أما الأسباب فهي : أن الملونات على الشاشة - وخاصة الآسيويات - هن أكثر رقة وأكثر نعومة وأكثر أنوثة . . وأنهن زوجات مطيعات . . وأن الزوجة الآسيوية ليست لها مطالب . . ولا تضع رأسها على مستوى رأس الرجل . وتطلب المزيد . والأمريكية لا يخيفها الطلاق ولا يربطها الأطفال . فمن الظواهر الجديدة في المجتمعات الأمريكية أن الزوجة تترك البيت وفيه الأولاد . . وترى في ذلك عقوبة للرجل !

أما المرأة الآسيوية فهي تستسلم لكل الظروف . وأنها حيث يضعها زوجها الأمريكي . المهم عنده أن تكون المطيعة النظيفة الراضية الممتنة له أبداً .

وجاءت في التقرير اجابات نموذجية لذلك . ففي حوار بين أمريكي وزوجته الصينية :

يقول هو : في العام القادم سوف نذهب لزيارة والديك .

- (تنحنى إلى ما يقرب من الأرض)

- هل تحين قبل هذا الموعد ؟

- (تنحنى أيضا)

- على كيفك !

- (تنحنى مرة ثالثة) . .

ومعنى هذا الانحناء أنها شاكرة له أى قرار يتخذه : اليوم أو غدا أو
يعدل نهائيا عن السفر . فالقرار قراره وله الشكر على أى حال . .

فلذا كانت الزوجة أمريكية :

هى تقول : أنا أرسلت كارت معايدة لوالدتك . .

- شكرا

- إذن لا داعى لزيارتها هذا العام . .

- لم أفكر فى ذلك . .

- أنا فكرت ووجدت أن الميزانية لن تسمح وخاصة أن الزيارة
ستصادف عيد ميلاد والدتك . . وهذا يحتاج إلى هدية منى وهدية
منك . . ومن أولادنا أيضا . .

- ولا داعى لرؤية والدتك أنت أيضا !

- لم أفكر فى ذلك . .

- ألا ترين أن من المناسب أن أولادنا يجب أن يعرفوا أن لهم أجدادا . .
لأنهم لم يروا واحدا منهم منذ سبع سنوات . .

- هل ينقصهم شىء ؟

- أبدا . .

- إذن سوف تحيىء مناسبات أهم وأكبر سيرون فيها هؤلاء الأجداد عند الموت . . أو قبل ذلك بقليل . .

- أقول لك بصراحة أنا وحشتنى أمى . .

- هكذا فجأة .

- طبيعى أن يشعر الإنسان بوحشة . .

- طبعاً تقصد أنه مضى عليك زمن طويل لم ترضع من ثدى أمك . .
لا ترفع صوتك حتى لا يسمعك الأطفال فيصابوا بخيبة أمل فيك . .
حين يكتشفون أن أباهم ما يزال (عيلاً) رضيعاً .

- أنا أشكرك أنك فكرت فى إرسال كارت معايدة لوالدتى . .

- وأنا لا أجد ما أشكرك عليه . . فلا فكرت فى أبى ولا فى أمى . . مع
أنهما كان يقفان إلى جانبك يوم رفضت أنا الزواج منك لأنك أقصر منى
ولأنك تكبرنى بشانى سنوات . . وفى كل مرة أحدثهما عن أنك بخيل
شحيح يدافعان عنك .

- وعن رأى الأطفال فى برامج التليفزيون الخاصة . .

قال ٨٠٪ من الأطفال إن الأم تتركهم أمام برامج محددة وتطلب إليهم
ألا يتحركوا من أمامها . . وهى البرامج التى تدعو الطفل إلى نظافة اليدين
وإلى غسلها قبل الأكل وغسل قدميه قبل النوم .

والسبب فى ذلك : أن الأم ليس عندها متسع من الوقت . . ثم إن
الأسرة متوسطة الحال ليس عندها خادمة تقوم بتوجيه النصائح إلى الأطفال
فى غياب الأم !

و ٦٠٪ من الأطفال يقولون إن الأم تطلب إليهم أن يشاهدوا الأفلام
الجنسية . ولا تكتفى الأم بذلك بل تحرص على أن يكون المشاهدون من
الأطفال الصغار إنانا وذكورا .

وانتهى التقرير العلمى التربوى الاجتماعى النفسى الأخلاقى إلى عدد من التوجيهات الهامة .

أولاً أن يبادر الآباء والأمهات إلى الوقوف بين الأطفال والتلفزيون . فلا يرى الطفل إلا ما يراه الأبوان مناسباً لعمره . . ومطابقاً للقيم الأخلاقية التى يؤمنان بها . .

وما دام التلفزيون من ضرورات الحياة فدور الأب والأم من ضرورات الصحة النفسية والاجتماعية . ولاشئ فى الدنيا يعادل تنشئة طفل سليم صحيح - مواطن صالح .

ومادامت الدولة لا سلطان لها على شركات التلفزيون وما يعرضه من كل الرذائل ، فلا بد أن يتدخل الأبوان بالنصيحة والإرشاد والتحذير . . وأن يكون ذلك بمنتهى الرفق . .

وفى التقرير أن بعض الآباء يفضلون أن يهرب الأبناء إلى الأندية الرياضية بدلاً من التلفزيون : ففى الأندية الصحة والمتعة والحياة الاجتماعية . .

وعيب الأندية أنها تخلق مواطناً سليماً تنقصه الثقافة والأفق الواسع وإدراك ما فى الدنيا وما حولها . .

والمشكلة الآن : هل الأفضل أن يكون الابن سليماً صحيحاً قوياً أو يكون الابن واسع الأفق مستنيراً مثقفاً ومنحرفاً أيضاً .

هذه المعادلة لا تتولى الدولة حلها . . وإنما الآباء والأمهات والأبناء معاً !

ثم من الذى ينقذ الصغار والكبار من فيضانات التفاهة والركاكة والابتذال والاستخفاف بعقول الجميع ؟ إن (الدش) الذى فوق الأسطح الآن يتدفق بما يجعل العقل عاطلاً والقلب مرجعاً والطريق ملتوياً والهدف مرتعشاً !

السندوتش والكافيتريا .. وأنا مبسوط كده !

من أهم أحداث أواخر القرن العشرين أن شعرت الدول الأمريكية والأوروبية بأنها لم تتقدم بدرجة كافية . . أى لم تلحق باليابان ، وتخشى أن تسبقها اليابان فى العلوم والصناعة والأسواق وجيوب ألوف ملايين الفقراء .

اعترفت بذلك أمريكا . وكان القرار : لابد من عمل فورا .

أول صدمة تلقتها أمريكا كانت عندما أطلق الروس أول قمر حول الأرض . أكبر صدمة للحضارة الغربية والرأسمالية الأمريكية . . وأعظم تحية للشيوعية . فلولا النظام الشيوعى والعلم والانضباط ، ما أفلح العلماء الروس أن يسبقوا أمريكا وأوروبا للدوران حول الأرض . . أطلقوا أول قمر . أو كلبة تدور وتموت فى سفينة فضاء . . أول مرة تكون السفينة نعثا يدور حول خمسة آلاف مليون مشيع . . فالجنازة حارة والميت كلب ! والروس أول من أطلق رجلا فى الفضاء . أطلقوا جاجارين . . الشاويش الصغير الضئيل . الذى التف حوله الناس يسألونه . وكان رده البسيط : أنا لست عالما أنا جندى قام بمهمة !

وهي إجابة عاقلة . .

ولكن جاجارين تطوع بشيء خطير بعد ذلك . . وهو أنه قال :
عندما صعدت إلى فوق لم أجد الله !

طبعاً شاب عبيط . . لأن (فوق) هذا ليس إلا مائتي كيلو متر من
سطح الأرض . . ما هذه الكيلومترات إذا ما قورنت بأن أبعد جسم في هذا
الكون يبعد عنا رقماً وأمامه مليون صفر من الكيلومترات !

طبعاً هو عبيط ولكن الذين بعثوا به إلى الفضاء الخارجي من أعظم
العلماء . وهذا هو الذى يهم . .

أما الأمريكان فقد قدم لهم العلماء الألمان الذين أسروهم في الحرب
مشروعاً بصاروخ وسفينة فضاء . وقد وجد الكونجرس المشروع مكلفاً
فرفضوه . ولكن إطلاق الروس للأقمار المختلفة جعل الكونجرس يعجل
بتنفيذ ما تقدم به العالم الألماني فون براون الذى اخترع الصواريخ التى
ضربت لندن . وبعد شهور أطلق الأمريكان أول صاروخ وبعد ذلك أول
من مشى في الفضاء وأول طاقم من رواد الفضاء وداروا حول القمر وكانوا
أول من نزل . . وأصبح الأمريكان أول كل شيء حول الأرض والكواكب
الأخرى !

وعند هذه الصدمة الأولى اجتمع العلماء يتساءلون : ماهى الأسباب
التي جعلت الروس يتفوقون علينا . . ؟

ذهبوا ودرسوا برامج العلوم في روسيا . . في المدارس والجامعات .
فوجدوا أن التلميذ الروسى أكثر انضباطاً وأكثر جدية من التلميذ
الأمريكانى . ووجدوا أن التلامذة الروس يتعلمون الرياضيات العليا في
المدرسة الابتدائية . إذن لابد من البحث ولا بد من تغيير برامج التعليم . .

وتشكلت لجنة من علماء النفس والتربية والرياضة والطب والفلك والصناعة لوضع تقرير عن حال التعليم والتلميذ . وقررت اللجنة أن تظل منعقدة إلى نهاية هذا القرن . هذا التقرير أنا حملته إلى الرئيس حسنى مبارك فى بيته . . وقرأه وبعث به إلى د . مصطفى كمال حلمى وزير التربية والتعليم فى ذلك الوقت . . وقد ناقش هذا التقرير ورد عليه فى عدة مقالات فى مجلة أكتوبر .

وعندما تقدم د . فتحى سرور بمشروع إصلاح التعليم أشار إلى هذا التقرير فى بسانه الذى ألقاه فى القاعة الكبرى بجامعة القاهرة . فالتقرير خطير .

ولقد اكتشف هذا التقرير : أن التلميذ الأمريكى عاشق للسندوتش والكافتيريا وملاعب الكرة والرقص والبنات !

أما السندوتش فمعناه أنه لايجد لذة فى الطعام . . أو فى الجلوس إلى المائدة . . مع الناس . . مع أصدقائه أو والديه . . وإنما يفضل السندوتش فى ورقة والجلوس وحده أو فوق الترابيزات فى أى مكان .

أما خطورة السندوتش فهى أن التلميذ قد أحب هذا النوع من الطعام . . أى الرغيف الذى به شىء من اللحم والطماطم والبطاطس . .

وأنه يجب الكتب والمجلات والمحاضرات التى لها شكل السندوتش ومذاقه . . شىء من كل شىء . . شىء سريع خاطف . . فلا قدرة له على المائدة أو الوليمة أو تناول الطعام على مهل والحديث أثناء الطعام . . أى أنه لايفضل الكتب والمحاضرات الطويلة والتأمل فى الذى قرأ والذى سمع !

ولذلك هرب من المدرجات إلى الكافتيريا . . يستأنف الكلام والضحك . . أما المدرجات والمعامل فلا يحضرها إلا القليلون جدا من

الطلبة الجاحدين . وعاشق السندوتش يفضل النشاط الرياضى . فالرياضة صحة وشباب وفلوس وبنات ورقص وشهرة . . . ويكفى أن تنظر إلى شكل العلماء وشكل أبطال الرياضة . . . فإنه ولا أحد يعرف العلماء ولا يراهم وإذا رأهم فإنه وهو يمضغ اللبان يقول : وإيه يعنى ؟ ثم إنى لا أحب أن أكون غليظ المنظار وقد انكسر وضاع عمرى . . . والمقابل : لاشيء . . . او مقال هنا أو هناك . . . ولكن نجوم الكرة . . . ونجوم السينما فهم المثل الأعلى : الشباب والشهرة والفلوس !

وكان من الممكن ألا يتغير أى شىء فى أمريكا لولا هذه الصدمة . . . ولأن الصدمة كانت عميقة ، أصابت كبرياء أمريكا وعلومها وعلماءها وشعبها ، فقد قفز الأمريكان إلى البحث عن العلاج . وقرروا . وعزموا . ووجدوا العلاج .

وفى نفس الوقت عايش العالم كله ما حدث . ولكن أحدا لم يتأثر . . . لم يثر . . . لم يثار . وإنما الشعوب الحية القادرة هى التى قفزت من الإهانة إلى التفوق . . .

إن عالمنا المصرى الجليل رفاعة الطهطاوى قد أصابته صدمة عنيفة عندما كان فى فرنسا . وقد حدثنا الطهطاوى فى كتابه (تلخيص الإبريز فى تلخيص باريز) عن مدى إعجابه بالشعب الفرنسى . فقط لاحظ أنهم يراعون الشروط الصحية . فهم لا يأكلون بأصابعهم . ثم إنهم إذا جلسوا إلى الطعام كانت عندهم (طبلية) عالية . . . يقصد ترابيزة سفرة . . . وأهم من كل ذلك فإنهم يتكلمون ويتناقشون أثناء الطعام . . . فليس الطعام هماً يريدون أن يفرغوا منه . . . إنما الطعام مناسبة اجتماعية لتذوق الفكر والحوار . .

وعندما ذهب إلى باريس أدهشه أن المايا إذا وضع إلى جوارها أصابعه .
فإن الأصابع تظل بلونها وحجمها الطبيعيين . . فليست مرايا باريس مثل
مرايا القاهرة : مقوسة أو مقعرة

أما الصدمة الحقيقية لرفاعة الطهطاوى فهى : عربة الرش . . فقد
رأى الفرنسيين يرشون ميدان (الكونكورد) بعربة الرش . . ويستغرق ذلك
ساعتين أو ثلاثا . . بينما نحن فى مصر نرش الميادين بالجرادل وتستغرق
هذه العملية يوما من الشروق إلى الغروب . وثمى رفاعة الطهطاوى من الله
سبحانه وتعالى (أن يفيض للكنانه مثل هذا الاختراع اللطيف) ؟!

فما الذى فعله رفاعة الطهطاوى الذى بعث به محمد على الكبير ليكون
إماما لأبنائه عند الصلاة . . أما الأبناء فقد انصرفوا عن التعليم ، وأما هو
فالذى تعلم وجاء يعلم مصر كلها . . لقد ترجم الطهطاوى الدستور
الفرنسى . ورأى أنه من غير دستور لاعمل ولا تقدم ولا انضباط
ولاحضارة . ثم إنه أيضا كان رائد الترجمة إلى العربية ورائد للتنوير . .

إنها الصدمة التى فتحت دماغه وفتحت الطريق أمامه . . وأمامنا
أيضا !

ولم يعرف التاريخ كله ثورة بيضاء بلا قطرة دم وإنها كثير من قطرات
العرق ، كالتى قامت بها اليابان . فاليابانيون فوجئوا فى يوم من الأيام
ببارجة أمريكية تقف فى ميناء طوكيو فى منتصف القرن الماضى . أول سفينة
حربية بها مدافع . ولها بحارة يرتدون زيا أبيض موحدًا جميلا . مفاجأة
كبيرة . . وتحت تأثير هذه الصدمة العنيفة اعترف اليابانيون بأنهم
متخلفون تماما . ولابد من حل . قرروا . عزموا . حشدوا علماءهم .
وبعثوا بعدد منهم إلى أوروبا وأمريكا ليعودوا يعلمونهم الطريق إلى التقدم .

عاد العلماء بعد شهور من هذه الصدمة . أما القرار فهو : نحن
لا نستطيع أن نبعث بالشعب انتهى القرار . فماذا فعلوا ؟

أتوا بعلماء من بريطانيا ليقيموا لهم السكك الحديدية والتليفون .
وأأتوا بعلماء من ألمانيا لتطوير صناعة الدواء والمستشفيات .
وبعلماء من فرنسا ليضعوا لهم دستورا جديدا .
وبعلماء من إيطاليا ليضعوا برامج للتعليم ومدارس نموذجية . .

وجاء الخبراء الأجانب وعلموا ألفين من اليابانيين . وعاد الخبراء إلى بلادهم وتولى الألفان من المتعلمين اليابانيين تدريس ما تعلموه للمليون يابانى . . وعلموا وتعلموا وتقدموا وأقفلوا الأبواب عليهم . وتطوروا وتصدروا وتفوقوا !

فما هو المعنى ؟

المعنى أنه لكى نتعلم لابد أن نتأكد من أننا فى حاجة إلى التعليم . وأن الذى نحن فيه جهل أو نوع من الجهل . أو الركود . وأن تشابه الناس فى الأفكار وانطباقنا بعضنا على بعض ليس مظهرا من مظاهر الصحة ، وإنما هما صورة من صور الجمود . لابد أن تكسر الجمود لابد أن تكسر قشر البيضة . . لابد أن نقف أن نخرج من الطوق الحديدى . هذا الطوق الذى حول رؤوسنا من الداخل والخارج صنعته وسائل الإعلام المقروءة والمرئية التى تسقيننا جميعا من ماء واحد . . وتقدم لنا نوعا واحدا من الفكر والمشاكل المغنحلة والحلول الجاهزة . . واليأس العام من أن يكون هناك ما هو أحسن . . أو ما هو أفضل . . وإن المثل الأعلى للإنسان القاصر المعلومات ما يريد - ما يريد الجهاز وصاحب الإعلان والمسئول ويبقى المشاهد سليبا حتى يعجز تماما عن الخروج من هذه البحيرة العسلية . . أى التى امتلأت بالعسل المعطر . . وهو لا يقوى على أن ينزع نفسه منها . لا يقوى على إنقاذ نفسه من (الموت السكرى) . . تماما كما تقع الذبابة فى طبق العسل . . لأنها تحبه وقد أمسك بأطرافها . . فهى تحبه

حتى الموت . . تصور أن الذبابة تقاوم انظر . . ثم انظر إلى نفسك . إنك أنت لا تقاوم . وأنت لا ترى ذلك مهما . لأنك مبسوط كده . وكل الناس المبسوطين كده ، ليسوا هم الذين يدفعون أنفسهم إلى الأمام . . وشعوبهم أيضاً !

وهناك صدمة أخرى تفتح باب النجاة من (شمولية) التليفزيون . .

هل تذكر العسكرى الذى يمشى فى الحوارى ليلا ويقول : مين هناك ؟ أكثر القراء لم يروا ذلك إلا فى الأفلام القديمة . هذا الرجل تحدث عنه دائما لأنه كان رمزاً لهيبة القانون . . إذ يكفى أن رجلاً بسيطاً يطلق هذا التحذير حتى يرتبك اللصوص . .

ونحن نذكر هذا العسكرى ونضحك لأنه لم يعد له وجود . . وأنه تجاوز عمره الافتراضى وظهر أمامنا فى الزمن الخطأ . فلم يعد مثل هذا الرجل يخيف أحداً ، وإنما هو يبعث على الضحك . . ونضحك !

ثم اختفى هذا الرجل وظهر رجل المباحث : المخبر . . يرتدى الجلباب وفوقه البالطو والطاقيّة والمنظار الأسود ويحاول ألا يلتفت الأنظار إليه . .

واختفى هذا الرجل ولجأت أجهزة المباحث والمخابرات إلى ما لا نهاية له من الناس رجالاً ونساء .

والجاسوسية قديمة جداً . . قديمة منذ أن بعث موسى عليه السلام بعشرة من رجاله إلى أرض كنعان (فلسطين) ليعرفوا أى نوع من الناس . . وأى نوع من الحياة هناك . . فعاد اثنان منهم يقولون : إنها أرض اللبن والعسل .

أى فيها مزارع كثيرة تعيش عليها حيوانات تدر لبناً ، وفيها زهور يعيش عليها نحل العسل . . وموسى عليه السلام رأى أرض فلسطين ولم يدخلها.

وفي كل العصور جواسيس من كل لون ونوع .

وهناك أجهزة علمية دقيقة جبارة تحكم الكرة الأرضية وتشعل الحروب وتقتل وتحارب وتهدم . . إنها المخابرات الأمريكية وكى . جى . بى الروسية والأستاشى الألمانية الشرقية وكان الجستابو أيام هتلر والموساد الإسرائيلى . .

إن هذه الهيئات الكبرى التى تستخدم العلماء والأطباء والمهندسين والمجرمين واللصوص والى تبيع المخدرات وتزور العملات . . إنها سلطات جبارة لها هدف واحد : الحصول على المعلومات .

فهى أجهزة مخيفة للحصول على المعلومات وترويح المعلومات والمعلومات المضادة . فلها هدف واحد : أن تعرف أسرار العدو الحربية والصناعية ، وهى تستخدم كل الأساليب غير المشروعة من أجل الحصول على هذه المعلومات . . ولذلك تستخدم الأجهزة الالكترونية تضعها فى كل جيب وكل حائط وكل كوب وتحت السريـر وفى التليفون وفى السيارة . .

وهى معترف بها دوليا . . وكل الدول مهما كانت صديقة تتجسس على الدول الأخرى . .

ويوم كان السادات فى القدس كان يتطلع من حين إلى حين إلى السقف ليعرف إن كانت هناك أجهزة تنصت (تصنت : خطأ لغوى) . . وكذلك الرئيس كارتر عندما نزل فى نفس جناح السادات كان ينظر إلى السقف - هو الذى قال ذلك فى مذكراته . .

وفي لقاءات كامب دافيد قرر الرئيس كارتر عدم استخدام أى أجهزة للتنصت على المصريين واليهود - خوفا من إثارة قضية لا مبرر لها . . ولأن كارتر لم تكن لديه أجهزة ليعرف ماذا تقول الوفود فقد كتب فى مذكراته أنه

سمع ضوضاء في الجانب المصري واستنتج أن اسامة الباز وآخرين يخططون لاغتيال السادات ؟ ! فاستدعى مستشار الأمن القومي برزنسكى ليرى ماذا يمكن عمله . . ولكن عندما رأى الرئيس السادات قد بدأ رياضة الصباح ، استراح تماماً !

ولما كنت مع السيد كمال حسن على في القدس ، وهو رجل المخابرات ، كنا نلاحظ أن الراديو الموجود في الغرفة يعلو صوته إذا سكتنا وينخفض تماماً إذا تكلمنا . وكان يضحك ويقول : أليسوا يعرفون أنني رجل مخابرات . . وأنى لو أردت أن أدلى بسر ، ، فلن أقوله في الغرفة ؟ !
إنه عرف دولى لا خلاف عليه بين جميع الدول .

والأمريكان لاحظوا أن عدداً كبيراً من موظفى السفارة في موسكو قد أصيبوا بالسرطان . ثم اكتشفوا أن فيضا من أشعة الليزر يطلقه الروس على كل موظفى السفارة . . ثم قرر الأمريكان ترك السفارة كلها وبناء واحدة جديدة . . وذلك عندما اكتشفوا أن أجهزة التنصت في كل مكان في المبنى . . ووراء الجدران وتحت المكاتب وفي مفصلات الأبواب والنوافذ وأجهزة التكييف .

فما المعنى ؟

المعنى أننا في عصر المعلومات الكثيرة جداً التى ننشرها وننشر معلومات مضادة لها . وإن هذا واضح جداً في التليفزيون . . عشرات الشركات التى تنشر على الناس ما يريدون وما لا يريدون من المعلومات والمعلومات المضادة حسب رغبات الاعلانات التى تدفع ألوف الملايين ضد اللحوم ومع اللحوم وضد الخضراوات ومعها وضد الأوزون ومعها . ثم إذاعة ما لا نهاية له من المعلومات الثقافية والأخبار المخيفة .

والنتيجة : أن الناس تشابهوا جدا في معلوماتهم وأفكارهم وأسلوب حياتهم . وأصبحوا مثل زجاجات الكوكا متطابقة في الحجم واللون .

وأصبحت الصور التي لديهم واحدة . فمثلا : الزعيم لينين له ذقن عريضة . . وستالين له شارب طويل وهتلر له قصة . . ومارلين مونرو أطار الهواء ثوبها أمام عشرات الألوف من القوات الأمريكية في فيتنام . . وسعد زغلول رافعا يده يخطب وإبراهيم باشا فوق حصانه . . صورة محددة ثابتة وكليشهات واحدة . . وكذلك كل أفكار الناس .

وقد أدى التلفزيون إلى نقص توزيع الصحف والمجلات والكتب .

ولكن فجأة حدثت صدمة خطيرة لم تظهر عندنا بعد ، ولكن في أمريكا . . ففي أمريكا زادت شركات الإذاعة من ألف شركة إلى سبعة آلاف شركة في سنة ١٩٨٠ فالتناس يفضلون الإذاعة المتنوعة على التلفزيون المحدود . . مائة قناة . . ولكن الإذاعة أكثر من ألف برنامج يوميا . .

ثم صدمة أخرى : فقد ظهرت صحف إقليمية . . تهتم بحال المواطنين في العالم . . فالتلفزيونات العالمية تهتم بالدنيا . . بكل الدول . . خبر من هنا وخبر من هناك . . ومعلومة خاطفة وإعلانات تافهة . . ولكن الصحف المحلية تضع المواطن في الريف في المقام الأول وتهتم به اهتماما بالغاً بمشاكله وحياته .

ثم صدمة أخرى : ظهرت المجلات الإقليمية والمتخصصة . . مجلة لكرة القدم ومجلة للتنس والانزلاق والمصارعة والملاكمة . . مجلة للمهندس ومجلة للطبيب . . ومجلة للحديقة ومجلة للكون . . ومجلة للكاميرات القديمة ومجلة لطوايع البريد .

وهبط توزيع الصحف الكبرى التي لا تختلف كثيرا عن التلفزيون في (شمولية) المعلومات والآراء والأخبار .

ولكن أهم من هذا كله : ظهور شركات الفيديو . . أى الشركات التى تعطيك حق أن تختار الفيلم أو الموضوع أو القصة التى تعجبك فتظهر على الشاشة عندك فى البيت . . مقابل مبلغ من المال . . ففى أى وقت تضغط على زرار لتجد على الشاشة أمامك كل ما تريد من موضوعات وقضايا وأفلام ومباريات ومحاورات . .

وهكذا استرد المشاهد حريته فى أن يعرف ما يعجبه . . وفى أن يختلف عن بقية الناس . . فلا يكون زجاجة كوكا أو قالبا من الطوب أو فردة حذاء . . والفردة الثانية عند جارك !!

وقد كان التليفزيون ولايزال يقوم (بتوئة) المشاهدين . . أى تجريدهم من أية مزايا أو صفات خاصة . . وجعلهم متشابهين متطابقين . . فإذا جلس الواحد إلى جوار الآخر لم يجد ما يقوله . فهو يعرف الإجابة مقدما . . فاستولى الصمت على الناس . وانعدمت الصلات الإنسانية والوشائج العائلية .

وكان الأديب الفرنسى أندريه جيد ينصح الشبان بقوله : ابعدوا عن الذى يشبهكم ! أى يبتعدون عن الشيء الشبيه بهم ، وعن الشخص الذى يتشابه معهم فى كل شيء . . حتى يجد الإنسان شيئا مختلفا فى إنسان مختلف . . ولكن الذى لايرى إلا نفسه فى المرأة فقد حبس نفسه فى نفسه . . وحكم على نفسه بالإعدام .

وفى أساطير الاغريق . .

كانت هناك ثلاث أخوات اسمهن : أخوات الجرجون كل من ينظرن إليه يتحول حجرا . . وهكذا تحولت الدنيا كلها حولهن إلى صحارى حجرية . . فكل شىء ينظرن إليه يموت . . ويصبحن وحدهن الأحياء فى عالم ميت - منتهى العذاب !

وأخيرا لقيت أخوات الجرجون نفس الجزء . . فقد تخلص منهن أحد الأبطال . . عندما وضع أمامهن مرآة . . فلما نظرن إليها تحولن إلى أحجار! والإنسان يصبح كبنيات الجرجون إذا لم يجد إلا نفسه في كل مكان . . وفي كل أخ وصديق وجار . . فهي حياة قاحلة ماحلة . . وإذا وجد الإنسان مرآة له . . فلا بد أن ينتحر هو الآخر وأن يموت .

ولذلك يجب أن نبدأ التحرر من ريقة التلفزيون ومن استعباد الصحف التي (تفبرك) الناس وعقول الناس وأحلامهم وطموحاتهم وتزيق يومهم وليلهم . .

ونحن لم نصل إلى ما وصلت إليه أمريكا من عبودية للتلفزيون . وفي نفس الوقت لم نشبع بعد من التلفزيون والصحف الكبرى . . ولكن سوف يجيء الوقت . .

وأنا ألفت النظر إلى ذلك واستعجل الخلاص حتى لا نكون عبيدا لوسائل الإعلام التي تتولى مسحنا ومسحنا ومحونا - مسح ملامحنا ومسح عقولنا ومحو شخصيتنا . . فحاول أن تهرب قبل فوات الأوان وأولادك في يدك !

ولم يكن الإنسان مهماً في كل العصور!

وأنت جالس أمام أى تليفزيون تأكل . . تشرب - تسرح . . فماذا ترى؟ ماذا يقال لك؟ وماذا تحب أن يقال لك؟ ما الذى اعتدت عليه؟ ما الذى عودوك عليه؟

الدنيا أصبحت قريبة جداً . . فأنت ترى الكواكب الأخرى . . وترى الثقوب السوداء التى تأكل النجوم فى السماء . . وترى القارات وأعماق المحيطات . . وترى الشعر فى سيقان لاعبى كرة القدم فى أمريكا . . والدموع واحدة واحدة فى عيون الأطفال الجياع فى رواندا . . والذباب فى عيون الأطفال المصريين ومثل هذه الصور ذباب على وجه مصر . .

والدنيا اتسعت أمام التلسكوب والمرصد الفلكية . . والدنيا كبيرة جداً تحت الميكروسكوب . . فقد استطاع العلماء أن يجعلوا صورة الخلية أكبر مليون مرة . . فأصبحت على الشاشة كأنها أكبر ميدان فى الدنيا . . وعندى فيلم صورته كاميرا وضعوها فى رحم الأم أثناء لقاء الحيوان المنوى بالبيض . . وسمعت صوت الحيوانات المنوية فى صراعها من أجل الوصول إلى البويضة لتمتد الحياة وينقل هذا الحيوان الضئيل كل صفات الأب والأم ويسيطر على عملية النمو من خلية إلى علقة إلى مضغة والعظم واللحم والجهاز العصبى والمخ الإنسانى . كيف؟ إنها عظمة الله . . والتطور العظيم للطب وأدوات الطب . .

والتليفزيون والإذاعة والسينما والصحف كلها تصب المعلومات والحكايات والمشاكل التى يريدونها المشاهد والتى تريدها شركات الإعلانات والدولة . .

وهذه الأجهزة التى صنعها الإنسان أصبحت أقوى من الإنسان . . وأكثر قدرة على الانتشار والنفاذ إلى أعماق الإنسان . وأقوى على الإقناع . .

ولأنها أقوى وأجمل وأعماق فقد جعلت الناس يتشابهون فى أفكارهم وسلوكهم وخيالهم وأحلامهم . . أو انعدام الخيال وموت الأحلام . . أو استسلامهم أو رفضهم أو تمردهم . .

فالذى تقوم به هذه الأجهزة فى العالم كله هو (غسيل مخ) لألوف الملايين . . ووضع فكر جديد ومشاكل جديدة أيضا . .

ولا تنس أن الإنسان هو الذى اخترع كل هذه الأجهزة . ثم صار ضعيفا أمامها . هو جعلها كبيرة جبارة ، فجعلته صغيرا ذليلا ذلولاً . .

فالإنسان الذى صنع القنبلة الذرية يخيف بها عدوه ، قد أخاف بها نفسه أيضا . وجعلها كبيرة ، فجعلته صغيراً . .

وفى كل مراحل التطور التاريخى كانت (التكنولوجيا) - أى علوم وفنون تطوير الأدوات التى هى أسلحة الحياة والصحة والموت ، أهم كثيرا جدا من الإنسان الذى اخترعها . . بل لم يكن الإنسان مهما فى الدرجة الأولى فى كل العصور . . فالإنسان أقام الأهرامات على جثث عشرات الألوف من العمال والفلاحين . . والإنسان أقام سور الصين العظيم . . والإنسان حفر قناة السويس وبنى السد العالى . . وهو الذى صنع الصواريخ وسفن الفضاء وأنفق ألوف المليارات التى كان يمكن إنفاقها على الفقراء وعلى علاج المرضى . ولكن المهم هو هذه الأبنية وهذه الصناعات . . أما

الإنسان نفسه فليس مهما . الإنسان المهندس الإنسان المخترع الإنسان الحالم هو الذى يفرض فكره ويطبعه بالدم والحديد والنار.

والحروب التى أشعلها الساسة والزعماء قد أهلكت مئات الملايين دون أن يهتز الزعيم أو القائد . . ففى الخمسة آلاف سنة الماضية لم نعرف السلام إلا مائتين وعشرين عاما . . السلام أو وقف إطلاق النار بين حربيين . وفى هذه الحروب ماتت الملايين . فى الحرب العالمية الثانية وحدها مات مائة مليون نسمة . . والبيوت والمصانع والطرق . ولكن نظرية الزعيم وفكره وخياله هو الذى بهم . . والطائرات والصواريخ والغواصات والقنابل ونجاحها فى مهمتها هو الذى بهم . ونجاحها هو إبادة الملايين من الناس . .

ولما دخل الإنسان فى عصر الآلة والعقول الألكترونية ، أدى ذلك إلى تغيير فى الحياة وأسلوب الحياة . . حتى أصبح المثل الأعلى للإنسان أن يكون هو نفسه مثل الآلة : منضبطا . وفى نفس الوقت لا يعرف الخلل . فهو - إذن - قد صنع الآلة فصنعت الآلة .

وأصبح مثله الأعلى أن يكون (قطعة غيار) فى آلة ضخمة . . هذه الآلة الضخمة هى الشركة . . هى المؤسسة . . هى المجتمع . . هى الحزب . . هو يموت وتعيش الآلة . .

فالمطلوب من الإنسان أن يكون (روبوت) آلة منضبطة مطيعة . . لا إنسانيا !

فالمهم هو : الانضباط . . النظام . . السير فى الطابور . . وينسى أنه إنسان . . وأن يتذكر دائما أنه آلة . . هذه الآلة تتلقى الأوامر وتنفذها دون أن تفكر . . فأنت تضغط على زرار يتكلم الراديو ويضيء النور فى الغرفة . وتدور مروحة . . هى تطيع دائما . وأنت أيضا . فأنت تعمل

فقط . أما التفكير فلغيرك . ولو فكرت كل قطعة غيار في طبيعة عملها أو في الذى سوف تقوم به ، لتوقفت الآلة كلها . . وفى الجسم الإنسانى نجد أن القلب لايفكر منذ الولادة حتى الموت . . إنه يضخ دائما وحتى الموت . . والعقل يفكر ويتذكر ويختزن ويقرر دون أن يكون لك دخل فى نشاطه . . وإنما فقط فى توجيهه ولكن من غير توجيهك يعمل . . ولو فكر القلب ولو فكرت المعدة والكبد . . لتعطل سير هذا الجهاز الدقيق الذى هو جسم الانسان . .

وقد عرفت عددا كبيرا من رواد الفضاء الأمريكان ورأيت فى السعودية عشرات من رواد الفضاء الروس والأمريكان والألمان وجلست إليهم . لم يختلفوا . فقبل أن يركبوا السفينة دربوهم تدريبا شاقا على أن يكونوا آلة . . لا رأى ولا إرادة لهم . عندهم أوامر وبرامج ينفذونها فقط . . لأنهم لايعرفون ما يعرفه العلماء الذين بعثوا بهم . . بل إن العلماء على الأرض ينهونهم إلى أن زاروا مفكوكا فى البنتلون . . إلى أن قطرات من العرق قد ظهرت على وجوههم إلى أن قلوبهم تدق أكثر لعله يفكر فى زوجته أو أولاده . . كل ذلك ممنوع . . لأن له مهام محددة . والوقت قصير والتكاليف فادحة والتحديات هائلة .

وهذا التدريب الذى يتلقاه رائد الفضاء هو (غسيل مخ) أى تجريده من مخاوفه وكل عواطفه . . وعزله تماما عن الأرض وجو الأرض وأهل الأرض . . فالمطلوب هو أن يكون مطيعا ككل العقول الألكترونية التى أمامه . .

أى أن العلماء على الأرض قد قاموا (بتخليقه) حتى يكون كائنا آخر . . يكون آلة تدوير آلة وتوجه آلة وترصد وتسجل ما يظهر على شاشة الآلات الأخرى ويبعث بها إلى الأرض . . وأن يتحدث طوال الوقت كالبغبان عن كل شىء حتى لا يسرح . . ولأن المعلومات ثمينة . . حتى وهو يموت يجب أن يقول . . لأن موته لايهم . .

المهم هو هذا الذى يقول والذى سوف يكون مفيدا لرواد آخرين من بعده !

وقد سألت د . فاروق الباز : عن الذى تدفعه الدولة لهؤلاء الرواد الشجعان .

فكان جوابه : ولا حاجة . . إنهم متطوعون . ولا توجد شركة تأمين واحدة تؤمن على حياتهم . لأن رحلات الفضاء ليست مأمونة ذهابا وإيابا . . وإنما تحاسبهم الدولة كجنود وتعطيهم بدل سفر عن الليالى التى ناموها خارج بيوتهم ! ثم إنهم يوقعون على ورقة قبل سفرهم بقبولهم هذه المغامرة وأن الدولة غير مسئولة عن أى شىء يحدث لهم . . ولا يحق لهم ولعائلاتهم أن يطالبوا الدولة بأى تعويض !

إنها - إذن - رحلات انتحارية . . قتل . . إنهم ليسوا أناسا وإنما أناس بلا إنسانية . . بلا إرادة !

وقد حدث لى شىء من ذلك عندما سافرت مع قوات مصر بقيادة اللواء الشاذلى إلى الكونغو لمساعدة الزعيم لومومبا تحت علم الأمم المتحدة . كانت الطائرات الضخمة لنقل السلاح . . المدافع والقنابل وسيارات الجيب . . وركبت إحدى هذه الطائرات ولكن قبل أن تدخل الطائرات الأمريكية العملاقة جاء ضباط المخابرات الحربية المصرية وطلبوا إلينا أن نوقع على ورقة - حمدي فؤاد ومحمد عبد الجواد والمصور أحمد يوسف وفوميل لبيب وأنا - الورقة تقول : إن مصر غير مسئولة عن أى شىء يحدث لنا . وإننا بمحض اختيارنا ذهبنا فى هذه الطائرات إلى الكونغو !

وتضايقنا لهذا الموقف الرسمى . ولكنه أسلوب دولى . . فنحن كالجنود . ولا ضمان للجنود أن يعودوا إذا ذهبوا للقتال وكذلك الرواد . . والفرق بيننا وبين الرواد أننا لم نتحول بعد إلى روبات . . وأنا - مع الأسف - لم ندرك أننا بسرعة قد أصبحنا قلعة من الحديد . . قنبلة . . بندقية . .

فردة كاوتش . شىء ما . . لا يهيم إذا ذهب ولا يهيم إذا عاد . . نحن الذين اخترنا أن نكون شيئا . . ونضرب دماغنا فى الحادث بعد وقبل ذلك !

حدث للإنسان كل ذلك منذ اخترع الآلة ومنذ تحكم فيها . . ومنذ تحكمت فيه . . ولذلك لم تكن الشيوعية أو النازية أو الفاشية أو الشمولية شيئا شاذا . . ولا غريبا على الناس . فقد انضبطوا وساروا فى الطابور واتخذوا أرقاما فى بطاقاتهم النقابية . . وأصبحوا (خانة) من خانات الأوراق فى ملفاتهم : عامل . . أسطى . . مساعد مهندس . . مهندس . . عضو نقابة . . رئيس النقابة . . عضو اللجنة المركزية . . أمين مساعد . . أمين . . الخ . فالناس فى الدنيا قد استعدوا للشيوعية والنازية اللتين فرضتا عليهن أن يكونوا جزءا فى آلة . . أن يمشوا فى الخط . . وأن (يبلطوا) فى الخط أيضا . . فليس من حقهم التفكير أو التدبير . . فلا فكر ولا إرادة . . والمهم هو النظرية وليس الذى يطبقها أو تنطبق عليه . .

المهم هو التكنولوجيا وليس الإنسان . .

فالدولة الشمولية ليست إلا تجسيدا لإرادة فرد . . أو حزب على رأسه فرد . وهذا الفرد هو الذى ابتلع كل الأفراد . . أفكار وإرادة كل الأفراد . ابتلع أفكارهم وأفرز فكره هو . . ابتلع عزيمة لتكون عزيمة واحدة . . إنه عصا موسى التى ابتلعت كل الحبال التى ألقاها السحرة . . ولم تبق إلا افعى واحدة . . عصا واحدة . رجل واحد صاحب الرأى والحكمة والقدرة والموفد من السماء . . كل الرعاء يرون أنهم نخبة السماء للأرض . .

فما الذى يستطيعه المفكر أو المصلح أو صاحب الرسالة وسط هذا الطوفان من كل شىء تافه وكل شىء له معنى . . ما الذى يقدر عليه فى مواجهة الإرادة الواحدة وانعدام الإرادات الأخرى . . وفى الفكرة أو النظرية أو انعدام الفكر أو النظر ١٩

أما الإجابة عن مثل هذه الأسئلة فموجودة في كل المسرحيات التي قدمت لنا السفاح الرومانى الإمبراطور (كاليجولا) . فلا بد أن يظهر هذا الإمبراطور الدموى جالسا فى شرفة . والشرفة هذه تطل على هاوية سحيقة . . ويشير الإمبراطور بيده أو برجله . . فيسرع رئيس الوزراء ووزراء الثقافة والصحة والحرب إلى (جرجرة) الشعراء والفنانين . المربوطين بالحبال ليقفوا صفا واحدا أمام الإمبراطور . . ويقفون مكسورى الظهر والرءوس . . وعليهم أن ينتظروا الإمبراطور حتى (يسكر) لأن الإمبراطور أقبل على شراب النبيذ منذ الصباح . . فإذا أصبح الإمبراطور فاقدا للرعى يبدأ المهرجان العظيم !

ويتقدم الوزراء يساندون الإمبراطور لكى يعتدل فى جلسته قليلا . . وينحنى الوزراء وتنكسر رقابهم على صدورهم انتظارا للنطق الإمبراطورى السامى . ويحيى النطق حرفا حرفا . وتكون عبارته غير واضحة ، فينعقد مجلس الوزراء بسرعة ويقرر معنى واحدا للكلام الفارغ الذى نطقه الإمبراطور .

جلالته يريد أن يقول : إن مسابقة سريعة بين الشعراء موضوعها أن صرصارا أعرج تتغزل فيه عصفورة عمياء فماذا تقولون ؟

ويتقدم رئيس الوزراء يخرج الصفارة من جيب الإمبراطور لينفخ فيها ويبدأ على الفور الدورى العام والكأس بين شعراء الإمبراطورية .

الشاعر الأول : من قال إن الصرصار أعرج ؟

وهنا تنطلق صفارة الإمبراطور . ومعناه أن الشعر لم يعجب الإمبراطور . ولذلك يجب أن يقفز الشاعر فورا إلى الهاوية .

الشاعر الثانى : لولا الإمبراطور . .

وتنتطلق الصفارة : ويقفز الشاعر إلى الهاوية .

الشاعر الثالث : لولاي أنا . .

وتنتطلق الصفارة : ويقفز الشاعر .

الشاعر الرابع : ما أروع الهاوية . .

وتنتطلق الصفارة : والشاعر يقفز .

الشاعر الخامس والسادس والسابع والعشرون معا : يحيا الإمبراطور . .

ويتقدم الشعراء الباقون وفي صوت واحد يقولون : لا حياة من غير الإمبراطور . .

ويشير الإمبراطور إلى الوزراء والشعراء الأحياء فيلتفون حوله ويساعدونه على الوقوف وبدلا من أن يلقي الإمبراطور بهم إلى الهاوية جميعا . . فإنه يكتفى بالقاء الصفارة إلى الهاوية ! فما المعنى ؟

المعنى أن القوة المطلقة تتحول إلى نوع من السخافة والاستهانة بحياة الناس وأقدارهم . . ولا يملك الناس إلا الطاعة العمياء خوفا من الحياة الذليلة . . إنهم لا يترددون لحظة في اختيار الموت ، إذ كانت الحياة بهذه السخافة . . بهذا العبث . .

والإمبراطور هنا هو التلفزيون والإذاعة والصحف في كل العالم . . إنها مصانع للتفاهات والسخافات . . إنها تفيض بأفكار وصور لا ضرورة لها في بناء الإنسان . . إنها فقط تملأ دماغه وخياله وأحلامه بما لا يرفع . .

والتاريخ يحدثنا عن إحدى الليالي عندما جلس الإمبراطور كاليجولا يشكو الملل والقرف . . فالتناس حوله يرتدون زيا واحدا . . ويقفون إذا وقف . . وينحنون إذا جلس . . ولما ضاق بالسجاجيد الخشنة على الأرض . . أتوا له بعشرات النساء يتمددن متجاورات ناعمات ليمشى فوقهن بحدائهن . .

وفي إحدى هذه الليالى التفت إلى الوزراء ثم تساءل الإمبراطور : من هؤلاء !

فكان ردهم جميعا : عبيدك !

فتساءل الإمبراطور : من هذا الذى يجيب عن سؤالى ؟

فقبل له : مائة من عبيدك !

- وما الذى جعلهم ينطقون بعبارة واحدة ؟

قبل له : إنها أوامرك !

فقال الإمبراطور كاليجولا : ماداموا ينطقون بعبارة واحدة . . فما

حاجتى إلى مائة يتكلمون كأنهم واحد . . ويتحركون كأنهم واحد . .

اقتلوا ٩٩ منهم . . واتركوا لى واحدا !

وقتلوهم جميعا . .

ونحن أمام طوفان المعلومات الواحدة والأفكار الواحدة فى الصحف

والمجلات تقتل الملايين . . كأننا نقتلهم . . لأننا نجعل منهم صوتا

واحدا وصورة واحدة . هذا هو الطوفان . . هذا هو العدم أو الإعدام أو

الانعدام نراه ونسمعه ونرده ونضيق به . . ونعرف أن نكون جميعا هكذا . .

صدى لبعضنا البعض . . ببغاوات . . تسجيلات صوتية متكررة . .

هذا هو التخلف العقلى . . هذا هو التعطيل المزمع لمسار التقدم

الإنسانى . . والرومان كان لهم كاليجولا وكان لهم نيرون . . ولكننا أبناء

العصر الحديث عندنا عشرات الألوف من هؤلاء الأباطرة السفاحين الذين

يحولون الناس بالإرهاب الإعلانى والغنائى والموسيقى إلى قوالب من

الطوب . . إلى أكواب فارغة يملئونها بكل ما هو تافه من الكلام والطعام

والشراب . . أى أنه إعدام بالجملة للإبداع فى الفكر والفن والأدب . .

هذه هى المحنة التى تواجهها كل الشعوب ولا بد أن تتدارك ما فات . .
ما فات عليها . . ما فوتوه عليها . .

وهذا هو السبب الحقيقى وراء إصلاح كل برامج التعليم والثقافة فى كل الدنيا - لا أعرف بوضوح ما الذى نعمله فى مصر . ولا أعرف بالضبط إن كانت هذه المعانى قد أقلقّت الأبناء والأمهات على صغارهم . . أو أقلقّت المفكرين والمصلحين على شعوبهم !!

فإن لم يحدث ذلك حتى الآن فهذه دعوة حارة لأن نبادر بذلك . . وإلا اتغلّق علينا باب الدخول إلى القرن الواحد والعشرين . . لأننا فى غياهب القرن السابع عشر متطلعون إلى القرن الذى يليه - وإن كانت نتائج الحائط تؤكد لنا أن نتشعبط فى سلاّم القرن الواحد والعشرين !

محمـر نجيب قال ولم يسمعه أحد !

أرجو متابعتى فإننى أتحدث طوال الوقت عنك . .

وأنت جالس مع الناس . ماذا تقول ؟ وماذا يقال لك ؟ أنت صدى الآخرين والآخرون صداك . نحن نقول نفس الكلام . ونوزع علامات الاستفهام والتعجب بالعدل بين كل الكلمات . ومعنى ذلك أننا نتساءل ولانجد الإجابة . ونندهش ولانجد توضيحا من أحد . .

نحن مشغولون بقذارة شوارع مصر .

نحن مشغولون بتلوث هواء مصر ومياه مصر . ففى كل هواء وماء وكل طعام سُموم . هذه حقيقة مؤكدة . ونحن نتحدث عن سرقات ونهب وسلب ورشاوى . ولأننا نتحدث كثيرا وأن هذه الحكايات والانتهاكات لبانة فى كل فم . . أو لبانة واحدة فى كل الأفواه ، فإننا قد مللنا الطعام الواحد واللون الواحد . ولم نذهب إلى أبعد من الملل . ربما أضفنا إلى هذه الحكايات قصصا أخرى من عندنا أو أطلقنا عليها النكت ، أو أضفنا من حولها قصصا هى التى تراها على المسارح الهزلية ، والأفلام السينائية وبعض المسلسلات . والمعنى أننا نعرف كل شىء . ولكن المعنى الآخر هو

أننا نعرف كل شيء ولا نفعل أى شيء . فنحن ندين أنفسنا ولا نحاكمها . . فبدلاً من استنكار التفاهة وطوفان السلبية ، فإننا نقر ونعترف بكل ذلك . . وعجزنا عن فعل شيء !

فإذا أردنا أن نهز الماء الراكد والهواء الخائف ، فإننا نحركه بأيدينا . تماماً كما نجلس أمام حوض ونهزه لكى نصنع موجاً وهماً . والغريب أنك تصدق أن الموج بفعل العواصف . . بفعل الطبيعة وليس أنت الذى صنعت الموج ونفخت فيه لكى تهزه ولا تحركه !

ولذلك فإننا نجد قضايا مستعارة تشغل الناس . قضايا قديمة نعيد تصنيفها وتعديلها ومناقشتها كأنها قضايا جديدة . . ولأنها قضايا غريبة عن الواقع فإننا نتحمس لها وندعو الناس إلى ذلك . ويمشى وراءنا الناس . مع أن الذى نناقشه لا مبرر لوجوده إلا عندنا نحن . . لأننا مفلسون . .

ف نجد النقاد فى الأدب يناقشون الشعر الحر والشعر العامودى هى قضية محسومة من ستين عاماً . وليس فيها جديد . ولا أحد له الحق فى أن يلوم أحداً أنه ينظم الشعر على هذا النحو أو النحو الآخر .

ونناقش قضية المضمون والشكل — وهى قضية قديمة قدم الشعر نفسه !

وفى بعض البلاد العربية — وهذه مهزلة — يتحدثون عن الفلسفة البنيوية . . وهى فلسفة أوروبية لها علاقة باللغات الأوروبية والأساطير وأصالة اللغة اللاتينية .

وهى قضية مستعارة لانعدام القضايا الأصلية أو الأصلية فى هذه البلاد . .

وعندنا فى مصر قضية : الأصالة والمعاصرة . وهى قضية مضحكة أيضاً . ولا معنى لها . ففى كل العصور كان هناك القديم ، والجديد . .

ومحاولة التوافق أو التوفيق أو التلفيق بينهما . ولا أحد يستطيع أن يحسبها :
كم فى المائة أصل وكم فى المائة معاصر . .

وهى تشبه أن تقف أمام المرأة بملابسك الكاملة وتحسبها : كم فى المائة
من ملابسك ومحتوياتها مصرى وكم أوروبى أو أمريكى . . وماذا يحدث
لو أن كل الذى ترتديه مصرى أو كله أمريكى ؟ ما المعنى . ما دلالة ذلك
على نفسك وبلدك ووطنك ومستقبلك ؟ أو تسأل نفسك كم عدد الأفلام
والأخبار والبرامج المصرية والعربية والعالمية التى شاهدها على الشاشة فى
أى يوم . . وما المعنى إذا كانت كلها مصرية أو كلها عربية أو كلها
أجنبية . . لم يعد هناك فاصل واضح بين الذى نذيعه من مصر والذى
يتدفق علينا من الأطباق فوق الأسطح . . إن هذه الأطباق قد قاربت بين
أفكار الناس فى كل الدنيا . وتسلمت عليها وتسلمت أيضا . وأكدت
سلبية الناس هنا وهناك . . وأثبتت قوة التليفزيون وعملاقة القائمين
عليه . . ونجاحهم فى جعل الناس قوالب فكرية وسلوكية . . وجعلتهم
سليبيين عاجزين عن فعل شىء . . كالخروج من هذه البحيرة الراكدة
الملونة . . أو نجاتهم من طوفان الإعلان والإعلام !
هذه هى بعض الحقيقة .

فما الذى يفعله الكاتب أو المفكر أو المصلح ؟

إن الكاتب هو الرجل القادر على اكتشاف أفكار جديدة . . أو
كشفها . . وتبصير الناس بحالهم . فإذا عرف الناس حالهم ومآلهم .
انتقل بهم إلى مرحلة أخرى . وهى أن يرفضوا موقفهم الدليل العليل . وأن
يفعلوا شيئا لإنقاذ أنفسهم وبلادهم ومستقبلهم . ولذلك يجب أن نقدم
للناس شيئا . . قاربا للنجاة . . جسرا فوق بحيرة التفاهة . . ما هذا
الجسر ما هذا القارب ؟ إنه الأفكار الجديدة التى أثارها الكاتب والتفت

الناس إليها . . أى أنه قدم للناس دليل العمل . . دليل الخروج . . دليل
التمرد والثورة على أنفسهم .

فإذا أصبح الدليل أو برنامج العمل فى متناول الجميع ، كان الكاتب
قد حقق أعظم أمانيه . . أما الباقى فالجماهير قادرة على أن تفرز من
أعماقها مفكرين جددا وكتابا لامعين . . وبذلك يحمى المجتمع نفسه من
نفسه . . بأن تتولد فيها ومنه أفكار جديدة تهديه وتشد أزره وتصلب عوده
وتسوى الأرض تحته وتنقى الهواء من حوله وتباركه خطوة خطوة . .

إن مواطنا مصرية مسكينا حيا وميتا قد نهنا إلى ذلك ولكن أحدا لم يدر
به وبما يقول . . ذلك الرجل المسكين هو أول رئيس جمهورية لمصر إنه
محمد نجيب الذى عذبه وأهانته ومسح به الأرض الرئيس عبد الناصر . .
عذبه فى نفسه وفى ولده وفى زوجته وفى قبره . ففى كتاب محمد نجيب
(كنت رئيسا لمصر) يقول : إنه سافر إلى لبنان فوجد الشعب اللبنانى قد
تظاهر ضد وزير الخارجية الأمريكى دالاس !

ويقول : كانت زيارة دالاس لمصر قد مضت هادئة . إلا أن الكاتب
الكبير أحمد أبو الفتح كتب مقالا ينتقد فيه تصرف سفيرنا فى واشنطن أحمد
حسين الذى هرع إلى القاهرة ليكون فى استقبال دالاس بعد سفره لأمريكا
بعشرة أيام . . وبعد تقديم أوراق اعتياده بخمسة أيام . وقد دفعنى موقف
الشعب اللبنانى إلى التساؤل : لماذا لم تتحرك مصر فى تظاهرات ضد
دالاس ؟

ويجب محمد نجيب عن هذه التساؤلات بقوله - وقوله الحق : أرجعت
ذلك إلى عدة عوامل : منها ثقة الجماهير فى وطنية الثورة ومنها إلغاء
الأحزاب السياسية التى كانت تحرك الجماهير . . ومنها أيضا أننا لم نستطع
خلق تنظيم قوى يكتشف ثقة الناس . فهبة التحرير تكونت فى ظروف لا

تسمح بخلق تنظيم سياسى قوى . . لأنها اعتمدت على العسكريين الذين لا يحسون بالعقلية الشعبية ، ولا يجيدون المرونة السياسية . . وانتشر الضباط فى مختلف تنظيمات الهيئة على امتداد الجمهورية . . وكانت هناك حساسية قد بدأت تظهر بين المدنيين والعسكريين بعد أن أساء التصرف عدد من العسكريين . . ولذا فإن تنظيمات هيئة التحرير قد خلعت من الشخصيات السياسية النظيفة التى مارست العمل السياسى قبل الثورة . وعفت عن الانتساب إليها العناصر الحزبية التى كنت أتمنى أن تلحق بها . ولم يعد يتهافت عليها إلا نوع جديد من المتسلقين والانتهازيين - وكان مفروضاً أن تكون هيئة التحرير هى أساس وحدتنا الوطنية فى مواجهة قوات الاحتلال ، ولكنها تحولت مع الأسف إلى هيئة ضعيفة متهاكة لا تظهر إلا فى الاجتماعات العامة حيث أجادوا جمع الجماهير للاستماع إلى الخطب فى السراقات .

ويقول - وهو أحسن الكلام : كنت أتمنى أن تنطلق فى القاهرة تظاهرات عند زيارة دالاس الذى قلت عنه لزملائي إنه (تاجر أحلاف) يود أن يرغمنا على شراء بضاعته . ولكنى لم أكن أود أن تكون حركتها بإشارة من السلطة . . كنت أود أن تكون حركة ذاتية نابعة من عواطف الجماهير . ولكن يبدو أن الإجراءات الاستثنائية التى اتخذت بتشكيل مجلس الثورة ومحاكمات الضباط واعتقال السياسيين قد أضعفت من مبادرات الجماهير فى التعبير عن رأيها وإرادتها !!

انتهى تحليل الرئيس محمد نجيب لعقلية ووجدان الشعب المصرى الذى لم يكن قادراً ولا واعياً للموقف ولا عنده رغبة ، ولو كانت عنده رغبة فليست عنده إرادة ، ولو كانت عنده إرادة فإنها صدى وظل للإرادة الشمولية للنظام العسكرى فى مصر . وهذه حال الشعوب فى كل الدنيا عندما تفقد الرأى والرؤية والإرادة . إنها فى هذه الحالة ليس لها رأى .

وإنما نحتاج إلى من يوضح لها نفسها ، ويعرض عليها حالها . . ويساعدها على أن تخرج مما هي فيه . هذه مهمة الكاتب .

ولكن الكاتب أضعف من السلطة . وهو يعلم ذلك .

ولكى يعيش أطول لابد أن يقول أقل .

ويجب ألا تدفعه الجماهير إلى أن يقول أكثر ، فيقطعوا لسانه أو رزقه .

والكاتب مثل النبی یونس فی بطن الحوت . والحوت هی الجماهير . فقد ابتلعه الحوت . واحتفظ به ونزل به إلى قاع البحر . وفي بطن الحوت دعا یونس ربه . فاستجاب له . وخرج من بطن الحوت . فما المعنى ؟ المعنى هو أنه لابد من الجماهير لإصلاح الجماهير . ولكن الجماهير مثل الحوت تستطيع أن تبلع دون أن تلتهم . . وإذا ابتلعت أن تلقى به على شاطئ الأمان ليواصل رسالته . .

ومهما كانت الجماهير حوتا جبارة فلا غنى عنها . فالكاتب في غياب الجماهير ليس كاتباً . كالذى يخطب في الصم البكم . . أو كالذى يضىء للعميان . فالكاتب يكتب للجماهير وضدها ومن أجلها . ينقدها لكي تكون أفضل . ويهاجمها إذا طغت على حريته أو قضت عليه . . والجماهير كالأطفال يجب أن نعرض عليها الدواء . والأطباء والمدرسون لاشعبية لهم عند الأطفال . وكذلك الكاتب يجب أن يشرح للناس ويثرون عليه أيضاً . . يحبونه أن يسليهم ويكرهونه أن يقنعهم .

ولكنه يفضل أن يكون صادقاً مكروهاً ، على أن يكون كاذباً محبوباً .

والجماهير لأنها أقوى ، فهي كالدولة ترى أنها على حق . والجماهير التي تستشعر ضعف المبادرة في الفكر ، فإنها تغطي هذا النقص بقوة العضلات . .

وكلمنا أحسن العقل بالفراع والهيافة ، قام الغرور فملأ هذا الفراغ . .
ولذلك يجد الكاتب نفسه يحارب عدوين في وقت واحد الفراغ والغرور
ولكن أين أرض المعركة ؟
إنها نفس وسائل الإعلام . . في الصحف وفي التلفزيون وعلى
المسرح . .
والكاتب منا كالسفينة تطفو على الماء وتقاوم الماء ولا يغرقها إلا الماء . .
والكاتب كالطائرة تطفو على الهواء ويقاوم الهواء ولا يحطمه إلا الهواء . .
فهو يعيش بالجهامير ولها وضدها !
بعض الكتاب في مواجهة الظروف الصعبة ابتلعوا ألسنتهم . وصمتوا .
وبعض الكتاب مثل الفراعنة كتبوا وصاياهم على جدران القبور
وتواييت الموتى . .
وبعض الكتاب بعد الحرب العالمية الثانية لم تكن بلادهم قد استعادت
لاستقبالهم وأفكارهم الجديدة فكانوا يقرءون منشوراتهم على النواصي . .
وبعض الرسامين قد نقشوا لوحاتهم على أرض الشوارع والميادين . .
ولكنهم قالوا كلمتهم ومضوا أو وقفوا إلى جوارها . . وانتظروا هل
تتوقف الأقدام سعيا إليهم ، وهل تغمض الدولة جفניה وتطبق شفيتها
ويكون ذلك إيذانا منها للكتاب بأن يمضوا حتى النهاية . . نهاية الكلام
أو نهايتهم !
وفي إحدى المسرحيات الوجودية للكاتب الشاب هانس اشفارتس
يدور حوار بين الفيلسوف وتلامذته بعد أن تخرجوا في الجامعة بيوم واحد .
وقد حزم كل واحد ملابسه عائدا إلى ريف بلاده . وقد ظهر الابتهاج على

وجوه الشبان ولكن استاذهم طلب منهم أن يتمشوا معا كما كان يفعل
فيلسوف الإغريق أرسطو مع تلامذته . .

قال : سعداء أنتم ؟

- طبعاً انتهى كل شيء .

قال : انتهى هنا ليبدأ هناك . . فكل شيء هنا كان من أجل هناك . .
كنتم تلامذة هنا لتكونوا أساتذة هناك . . كنتم أطباء هنا للقاء المرضى
هناك . . من قال إن كل شيء انتهى ؟ بل كل شيء قد بدأ . . كنتم على
أكتافى . . وسوف يكون الشعب كله على أكتافكم . .

ولكنك يا أستاذ قد وضعت الدنيا كلها فوق دماغنا . . وأنت عندما
كانت الدنيا فوق دماغك ، كنت رشيقي الخطوة سهل العبارة واسع
الصدر . فكيف ذلك ؟

قال : ان أطلس بطل الإغريق كان يحمل الكرة الأرضية فوق دماغه ولم
يتوقف عن الأكل والشرب والرقص . . ولم يشعر بذلك . . فكل أستاذ
هو أطلس . . وكل مصلح وكل صاحب رسالة . .

من أين نبدأ ؟

قال : من هنا

كيف ؟

قال : من هذه اللحظة . . فأنتم جميعاً سوف تنطلقون كل واحد إلى
طريق . . وسوف تشغلهم هموم الناس عن همومكم . . وسوف تؤدي
أمراض الناس إلى صحتكم وعافيتكم . . فصحة الطبيب في شفاء
مرضاه ، وصحة الشاعر في غناء مستمعيه ، وصحة الفيلسوف في سلامة
أفكار الآخرين . .

ولو اعترضونا وعارضونا ؟

قال : طبعى أن يفعل الناس ذلك . . أنتم عارضتمونى كثيرا . . وعصيتهم أوامرى . . وأنا رأيت فى ذلك مظهرا من مظاهر الحيوية والحرية . . وبعد ذلك اتفقنا على كل شىء . لماذا ؟ لأن الغموض الذى ضايقكم تعاوننا جميعا على توضيحه وبعد توضيحه على اقتناعكم به ، وبعد اقتناعكم تناقشنا مرة أخرى على سبيل اليقين . . ولم نعرف فى التاريخ مصلحا لم تشقه الجماهير . . وكثير من الأنبياء قتلهم . . ونوح عليه السلام قد ضاق بأهله ودعا الله أن يهلكهم جميعا . . لأنه لا أمل فيهم . . ولا أمل عنده فى إصلاحهم . .

أنا أبى كان طبيبا فى الريف وانتقلت إليه العدوى فمات . .

قال : غلطة أبيك أنه أحس لحظة واحدة أنه أقوى من المرض . ولذلك لم يحتط كما كان ينصح به مرضاه .

وأنا أبى كان مهندسا وسقط من فوق الكوبرى الذى بناه . .

قال : ليست غلطة الكوبرى . . ولكن سقوط والدك جاء دليلا على إهماله . وهى عقوبة يستحقها .

أنا يا أستاذ كنت أتمنى أن أتزوجك . . صحيح أننى صغيرة فى السن . . ولكنى جميلة ومحبة لك وقادرة على توفير وقتك لما ينفع الطلبة . . وفى نفس الوقت سوف أتى لك بأحسن ذرية وأطبق عليها كل تعليماتك فى التربية والأخلاق . .

قال : هذه مشكلتى معك . . ولا أعلق عليها الآن بشىء . . فأنا مشغول بها هو أهم منى ومن أولادك . . مشغول بمستقبل هذا الجيل . . ومستقبل الريف على أيدي الذين أفنيت عمرى فى تعليمهم وتربيتهم وتشجيعهم منتظرا تلك الساعة التى دقت فيها ساعة العمل من أجل الوطن . .

أما المفاجأة في نهاية مسرحية (كانوا هنا وهناك) للاديب الفرنسى اشفارتس فهى أن الأستاذ بعد ستين ذهب يتفقد حال تلامذته . . فسمع كل ما لا يرضيه . . لقد مكثوا أياما وبعد ذلك اختفوا . وحاول الأستاذ أن يعرف ماذا جرى لتلامذته ؟ وماذا كانت جدوى دراسة الفلسفة والمنطق والأخلاق وعلم النفس ؟ لم يجد لهم أثرا . .

وعندما عاد إلى بيته في مدينة باريس وجدهم جميعا هناك وقد تغيرت ملابسهم وملابسهم . وسألهم غاضبا : ماذا جرى لما قلت وقلتم ؟

وكان جوابهم الذى اتفقوا عليه : يا أستاذنا كل ما قلت صحيح . . وكل الذى تعلمناه صحيح . . وشرف لنا أن نكون تلامذتك . . ولكنك يا أستاذنا ربطتنا إلى بابك وشباكك . . وحبست عيوننا فلا نرى سواك ، وأذاننا فلا نسمع غيرك ، وعقلنا فلا تفكير إلا فيما تقول لنا . . ولكن . .

قال صارخا : ولكن ماذا ؟ !

قالوا : ولكننا عندما كنا تلامذتك لم نر مواطنا واحدا . . لقد كنا وحدنا معك !! . . فلما ذهبنا إلى الناس وجدناهم ولكنهم لم يجدونا . . لم نتعلم لغة الناس . . والناس لا يعرفون لغتنا . . وليسوا في حاجة إلى ما نقول . . انهم في حاجة إلى كلام آخر ونظريات أخرى ووجوه وأصوات وعقول من طراز مختلف . .

قال : غلطة قطعية . . فأنتم لم تكونوا في حاجة إلى واحد مثلى . . نحن أقمنا قصورا في الهواء . . ومدنا في السماء وجدناها من البشر ، فأنتم لم تذهبوا إلى الناس وإنما أنتم سقطتم فوق أدمغة الناس . . فأسقطكم الناس . شكرا لله أنهم لم يقتلوكم !

ولكنهم يا أستاذ استحلّفونا أن نفعل ذلك نيابة عنهم . . ثم أطلق كل واحد منهم النار على رأسه !

والمعنى : لا بد من الناس . . فكل شيء يجب أن يكون لهم . . وأن يبدأ منهم . . وأن يتعاون المفكر والمصلح مع الناس لكي يصحح ويوجهه . .

ويرفعهم إلى فوق ونجىء من بعده أجيال تواصل رفع الناس ورفعتهم !

ولم نقرأ ابن خلدون وعبد الرحمن بدوي!

إن أكثر مشاكل هذا الزمان قد عرضها وتعرض لها وعرض بها أيضا :
العقائد وطه حسين والحكيم وسلامة موسى ود . أحمد زكي والسنهوري
وأديب عايش ومات دون أن يدري به الكثيرون هو عثمان نويه . .

فما الذي حدث ؟

إن هؤلاء المفكرين قد قالوا كثيرا وفي موضوعات شتى . هذه
الموضوعات كانت مثل موج البحر تطفئ أمواجه بعضها على بعض .
ويجد الناس متعة في النظر إلى المفكر كأنه حي ، يخرج الكتكوت . . من
البنطلون والبيضة من أنفه . ويعجبون به وينسون أن يتوقفوا عند الذي
قال . والكاتب الذي يسع عقله أمورا كثيرة قد جنى على نفسه . فهو
اختار أن يكون موسوعيا ، أو أنه لم يستطع إلا أن يكون كذلك . . تماما
كالذي له معدة قوية يأكل أى شيء فى أى وقت . ولكن المريض الذى
يعيش على طعام واحد ، وأعمى الألوان الذى لا يرى إلا لونا واحدا ، فهو
أوضح ومن السهل معرفة أوله وآخره . ولكن الذى جعل عقله يستوعب
كل ما حوله من كل شيء ومن كل لون ومن كل علاقة ، جعل نفسه
صعب المنال . . أقوى من أن يصنفه أحد أو يحتويه اسم . . ولذلك

كانت كل القضايا المعروفة سياسيا وأدبيا ونفسيا هي . ولكن لأن أحدا لم يقرأ هؤلاء الكبار ، فهو يراها جديدة . والناس أيضا .

صحيح أننا يجب أن نقرأهم اليوم وأن ننساهم أيضا . نقرأهم لأنه من الضروري أن نهتدى . . وأن نضىء لأنفسنا طريقنا بهم . فالماضى لا ينفصل عن حاضرننا كما أن حاضرننا لا ينفصل عن ماضيننا . . وهذا الماضى كان فى يوم من الأيام أملاً للناس . . أى كان مستقبلهم ثم صار حاضرنهم . . وأصبح اليوم ماضينهم . ولذلك يجب أن نقرأه وأن نتوقف عنده وأن نمضى بعيدا عنه . لأن لنا مشاكلنا . ويجب ألا نجعل حاضرننا صورة أخرى من ماضيننا . وإلا كان معنى ذلك أننا أدركنا وجهنا للذى كان وظهرنا للذى سيكون !

كما أن عندنا عددا من المفكرين قالوا وكأنهم لم يقولوا . فلم يلتفت الناس إليهم . ولكنهم قالوا .

فابن خلدون مثلا وضع أسس فلسفة علم الاجتماع . وإن لم يدرك أنه قال شيئا جديدا . ولأنه كان جديدا فلم يستوعبه الناس فى زمانه . فكانه قال ولم يسمعه أحد . . وإنما جاء الغربيون فأشاروا إلى (مقدمة) ابن خلدون على أنها المحاولة العلمية التاريخية الوحيدة فى العصور القديمة لدراسات المجتمعات الإنسانية دراسة علمية . هنا فقط التفتنا إلى الرجل الذى مضى مجهولا من زمانه . .

وفى مصر المعاصرة أيضا كان أستاذنا دكتور عبد الرحمن بدوى ، أستاذ أساتذة الفلسفة الحديثة . . وأول من فتح لنا وعلمنا كل روافد الفكر الغربى المعاصر . . بمتهى القوة والاقتدار . ولكن القليلين تأثروا به . وأحسوا به . . ولذلك هاجر من مصر إلى ليبيا ، وأهانوه هناك . ثم هاجر إلى الكويت واستقر الآن فى باريس . يقرأ ويكتب لغيرنا . .

ففى رواية (هموم الشباب) لعبد الرحمن بدوى وضع منشورا ثوريا للشباب فى مصر . . واستوحى من الماضى برنامجا للعمل فى المستقبل . ولم يقرأ أحد هذه الرواية . والذين قرعوها نسوها أو تناسوها . فكأنه لم يقل لنا ، وإنها لأجيال من بعدنا !

وكذلك د . زكى نجيب محمود ، وهو مفكر مصرى عميق الشعور قوى العبارة . جاد . صارم . نافذ . ولم يلق ما يستحقه من التكريم . كان ينتظر كلمة واحدة من الأستاذ العقاد . كأن يقول له مثلا : أنت أحسن كاتب مقال فى الأدب الحديث . ولكن العقاد لم يقلها . وقد سمعت ذلك من د . زكى نجيب . وكان فى غاية الأسى والحزن . وكتب د . زكى نجيب محمود مضيئة مشرقة لامعة كاوية . . دافعة لأن تفعل شيئا فى أنفسنا وفى عقولنا وفى بلادنا . . ولكن الرجل اختار أن يكون باهرا يعمى الناس فلم يروه . وأن يكون مدويا يمزق آذان الناس فلم يسمعه . فكأنه قال وما قال . .

ود . جمال حمدان عاشق الأرض والحجارة والجبال والوديان والأنهار وكانت هذه المظاهر الطبيعية تتحدث إليه هو وحده . وكان حديثه شعرا وغزلا . . فلم يكتب أحد عن أرض مصر وجو مصر وكل ما هو مصرى . كما فعل جمال حمدان . وأطال فى الذى كتب . . ألوف الصفحات للكتاب الواحد . وهذا المفكر الكبير العاشق السوفان . وجد له ناشرا عاشقا مجنوننا به . . فأنفق أمواله على إصدار مثل هذا الكتاب فى ألوف الصفحات عن (شخصية مصر) وعبقريه المكان . وأنت عندما تقرأ مثل هذا الكتاب تحتار هل الكاتب مؤرخ ؟ هل هو جغرافى ؟ هل هو قارئ كفى ؟ شاعر ؟ . . صوفى ؟ . . درويش ؟ . . عاقل ؟ . . مجنون ؟ . . من المؤكد أنه عاقل وأنه مجنون بمصر . ولكن أحدا من المفكرين فى زمانه قد انتقلت إليه عدوى الجنون بمصر . .

والذين ترجموا (دائرة المعارف الإسلامية) وماتوا جميعا . . وكان آخرهم إبراهيم زكى خورشيد . .

والذين ترجموا أروع وأجمل كتاب فى التاريخ والسياسة والأدب والفن والصناعة والدين - أقصد (قصة الحضارة) للمؤلف الأمريكى ول ديورانت وزوجته اريل . . هؤلاء جميعا قالوا الكثير جدا عندما عكفوا مخلصين متفانين على تقديم هذه الموسوعة الرائعة بلغة عربية بديعة قديمة . .

والذى ترجم لنا جانباً من كتاب (وصف مصر) فى عشرة أجزاء . . وهو أروع ما كتب شبان الحملة الفرنسية . وأصدق تحليل وتوصيف لمصر أرضاً وأهلاً وزياً وعادات وتقاليد وتاريخاً . . ترجم عن هذا الكتاب زميلنا فى مجلة (أكتوبر) زهير الشايب . . يرحمه الله قام بهذا العمل الشاق وحده . . عاش متواضعاً ومات منسياً . وقد قال الكثير جدا عندما نقل إلينا ماكتبه غيره . عرفنا منه أن فى مصر شباباً عالماً فدائياً مخلصاً متفانياً فقيراً متواضعاً . .

وهذا هو النموذج الذى تحتاجه مصر فى نهضتها . . حين نجعل الإخلاص منهجاً ، والصدق أسلوباً ، والموت فى سبيل ذلك ديناً حنيفاً . .

آه لو كان صاحب الرؤية هو صاحب رأى . .

آه لو كان صاحب النظرية هو القادر على تطبيقها . .

فلا يزال الكاتب يحلم بأن تنبت للعجاير أحجار فى أيديها . . يلقى بها على الفساد والظلم والجهل . .

ويحلم بأن يثبت فى أصابعها أظافر ومخالب . .

ولكن يشعر الكاتب بحزن عميق عندما يجد أن الجماهير في بلاده تنبت لها ألسنة بدلا من الأظافر . . فيكون للمواطن عشرون . . أربعون لسانا تتكلم في وقت واحد ويلعن بعضها البعض .

فقط القوة هي التي تقطع الألسنة . . والكاتب هو وحده الذي يحاول أن يعيد كل شيء إلى مكانه . فاللسان في الفم . . وهذان التجويفان للعين . . وللأذنين . . وأن يكون العقل في الدماغ والقلب في الصدر . . وأن يمشى الإنسان مستقيما قويا

ولكنها مشكلة كيف يكون قويا والأفكار معوجة !

ولا تزال من أحلام صاحب القوة أن يكون صاحب الرؤية . . صاحب النظرية . .

فالكاتب يريد القوة لتطبيق أفكاره . .

والقوى يريد النظرية ليرشد بها أفكاره . .

فالفكر من غير قوة هذيان

والقوة من غير فكر عنف . .

والمثل الأعلى هو : القوة الرشيدة أو الرشد القوى . .

ولذلك استعان الأقوياء في كل العصور بأصحاب الفكر إلى جوارهم . . أو أصحاب النظرية . . فالإسكندر الأكبر كان إلى جواره الفيلسوف أرسطو . .

وكان روزنبرج إلى جوار هتلر . .

وكان داتسيو إلى جوار موسوليني . .

وعندما سقط موسوليني حاولت إيطاليا إقناع الفيلسوف كروتشه أن يكون رئيسا لها فرفض . .

وحاول عبد الناصر أن يأتي بلطفى السيد رئيسا لمصر ، فاعتذر
وحاولت إسرائيل أن تقنع العالم الفزيائى ايشتين أن يكون أول رئيس لها
فاعتذر قائلا : إننى أعرف جانباً ضئيلاً من الكون ، ولكن لا أعرف شيئاً
عن طبيعة الإنسان !

وكان للفيلسوف الإغريقى أفلاطون كتاب اسمه (الجمهورية) أو
الدولة المثالية أو المدينة الفاضلة . . وطلبوا إليه أن ينفرد بإحدى الجزر وأن
يطبق آراءه على الناس . . فيكون هو الملك وهو الفيلسوف . . الفيلسوف
الملك . ولم يستطع أن يطبق آراءه . . فلا تزال المسافة شاسعة بين أفكار
الإنسان والواقع . . ولا يزال الواقع يستعصى على الفكر . . هو يحتاج إلى
وقت لكى يطوع أحدهما الآخر . . أو يطيع أحدهما الآخر

وهذه مهمة الكاتب أن يكون صاحب الرؤية وأن يقنع صاحب القرار
وأن يقنع الجماهير بهذا القرار - إنها مهمة صعبة !

وكان عمر بن عبد العزيز مقترأ لا ينفق إلا القليل على الكثيرين من
الناس . فهى أموال المسلمين . وليس من حقه أن يبدها كيفما شاء .
وفي يوم سأل أحد الجالسين إليه : يا أمير المؤمنين . أمرك عجيب . .
تمسك المال عن مستحقه بينما تنفقه بسخاء على العلماء . .

فأجاب : مجلس العلماء هو تلقيح للعقول . وهذا لا يمكن تقديره
بشئ . فإن وجد الحاكم فكرة أو طريقة أو وسيلة لعلاج أمراض الناس .
يجب ألا يتردد فى أن يجزل العطاء على أصحاب الفكر . .
وأقوى صورة لما أقول : صاروخا القاهرة والظافر . .

صاروخان صنعتهما وأطلقناهما فى الفضاء . . بلا عقول الكترونية
لتوجيههما فكانا نموذجا للقوة الغاشمة . .

أما ما تفعله الدول في زماننا فهو إن لم يجدوا المفكر الواحد يجلس في المقعد الملاصق للحاكم ، ذهبوا يعرضون مشاكلهم على المؤسسات العلمية . . ومعاهد البحث مقابل مبلغ من المال . مثلا : لقد عرضت أمريكا مشكلة السلام بين مصر وإسرائيل على (معهد بروكنجز) . . وقام هذا المعهد بدراسة الوضع . وقدم تقريراً . هذا التقرير هو الذى قدمته أمريكا في كامب دافيد ووافقت عليه إسرائيل ومصر وأمريكا .

وقد نشرت مجلة (أكتوبر) هذا التقرير ، وظهر يوم سفر الرئيس السادات إلى أمريكا . وأذكر أن المشير الجمسى على سلم طائرة الرئيس قد طلب منى أن ألقت نظر الرئيس إليه . وفعلت . وكانت دهشته وصدمته . فلم يتصور الرئيس السادات أن هذا الاتفاق السرى قد أصبح علنيا هكذا . هذا التقرير قد ترجمه زميلنا في مجلة أكتوبر : عبد العظيم حماد . .

وكل مشاكل الدول الكبرى لا تتولى الحكومة حلها وإنما المؤسسات الأهلية . .

وهم الآن يدرسون مشكلة البطالة في الشرق الأوسط . . ومشكلة المياه . . ومشكلة إنعاش غزة . . ومشكلة الأقليات العرقية واللغوية في الشرق الأوسط وغيرها وغيرها . .

فالمشاكل كثيرة ومعقدة لا يقوى على حلها كاتب أو مفكر وحده . . أو تحتويها نظرية واحدة !

وغير هؤلاء المفكرين كثيرون . . وكلهم رواد في صحارى الحياة الحديثة . . أو بحار المتغيرات بيننا وحولنا . .

وليس من الضروري أن يكون الكاتب من أوله لآخره (نوحا) جديدا . فلم يحدث في التاريخ إلا قليلا أن أشعل كتاب واحد الثورة في عقول الناس . .

ولكن معظم المفكرين والمصلحين عندما يتحدثون عن (نقطة التحول)
في حياتهم تكون حادثة تافهة . . نحن نراها كذلك . . أو عبارة يسمعونها
من أم أو من خادمة أو من أحد الباعة في الطريق العام .
فكيف حدث ذلك ؟

إن الكاتب قد امتلأ بالمعانى والهموم . وكل الذى ينقصه هو عود
كبريت . . شمعة . . مصباح يضيئ أمامه . . ويكون هذا الضوء :
عبارة . . حكمة . . قصة . . صفحة في كتاب .

ليس هذا فقط . وإنما أى مفكر أو هؤلاء المفكرون جميعاً قد تشبعت
نفوسهم برأى أو نظرية أو رؤية وكل الذى ينقصهم هو هزة . . زلزلة . .
تماماً كما تهتز شجرة تحملت بالثمار . . فتساقط كلها مرة واحدة . . أو كما
تظل تحرك أصابعك على حقيبة ذات أرقام . . فجأة تجد الحقيبة قد
انفتحت . . لقد أصابت أصابعك الأرقام التى تفتح بمقتضاها . .
وهناك (الرأى القنبلة) . . أى الرأى الذى تراه أو تسمعه فيكون قنبلة
تنفجر في حياتك . . في هدوئك . . فى لامبالاتك . .

وهناك (الرأى الثورة) . . أى الرأى الذى يتحول إلى سلك من
الديناميت فينسف كل ما حولك !

كم عدد الذين قرءوا كتاب (الأمير) للفيلسوف الإيطالى ماكيافللى . .
ملايين طبعاً . ولكن رجلاً واحداً درسه وحصل على الدكتوراه وطبقه على
حياته وعلى الناس . . انه الزعيم الإيطالى موسولينى . .

وإذا قرأت حياة المصلحين والمفكرين فسوف تجد أن كل واحد منهم قد
هزه رأى أو شخص . . وانت تمر على هذا الرأى وتلتقى بنفس الشخص
فلا يثيرك ولا يهزك . ولكن شخصاً آخر قد تهيأ له . . وانتظر حتى أتيت

له لحظة الإبداع أو الإصلاح أو الانطلاق . . فكان الذى لم يحدث لأحد من قبل !

ونحن هنا لا نتباكى على الذى كان وانتهى . . فكل زمان له كتاب ، وكل كتاب له زمان . . فما الذى عندنا الآن ؟ وما الذى نريده أو نقدر عليه الآن ؟

إن طوفان التفاهة والهيافة والسخافة والاستخفاف يملأ كل الصحف . . فماذا تجد فيها ؟ ماذا تجد فى المجلات ماذا تجد على الشاشة ؟ . . براكين من النكت . . صواريخ من العبارات الجارحة . . وخاسين من الأفكار المشوشة . . ومطلوب وسط كل هذا أن تجد نفسك وطريقك وهدفك . . وأولادك من بعدك أيضا .

ولابد أن تقرأ الصحف والمجلات وأن ترى التلفزيون . . لامفر . . ولكن - ألف مرة ولكن . . ولكن يجب ألا تكون عبدا لهذا الذى تقرأ وترى . . يجب ألا يكون عالمك ودنياك هما صحيفة كذا صباحا ومجلة كذا مساء وبرنامج كذا بعد منتصف الليل . . يجب أن تنسحب . . وأن تحرص على قدراتك العقلية وأن تجد متسعا من الوقت لأن تفكر فى حالك ومالك وعيالك . . وأن تنقذ نفسك من طوفان اللا شيء واللا معنى واللا منطق الذى يبتاحك من كل نافذة تفتحها . . من كل صحيفة . . من كل قناة من كل (دش) . .

رأى : ارجع إلى الكتب . أى كتاب تشعر معه بالمتعة اقرأ تأمل . . استمتع . . هذا إذا أردت أن يكون لك معنى أو قيمة أو دور . ومن المؤكد أن لك معنى وقيمة ودورا !

من الحوادث المعروفة أنهم زفوا الأميرة مارى انطونيت إلى زوجها (الغيل) لويس السادس عشر الذى لا تعرفه ولم تره . . وكان زواجا فاشلا عاصفا

.. وقد انتهى الزواج بإعدام الاثنين في جحيم الثورة الفرنسية ، كانت ماري انطونيت تحمل في حقيبتها مجموعة من الخطابات كتبتها أمها . وطلبت أن تقرأها بعد شهر أو شهرين من الزواج .. وكان ذلك قبل ظهور الراديو والفيديو !

قالت الأم إمبراطورة النمسا : ماريا تريزا : ابنتي أنت ذكية محبوبة وغالية علينا جميعا . ونحن لم نلق بك في جهنم . وإنما أنت ملكة على شعب ذكي مثقف . وسوف تمتلئ حياتك بكل ما هو جميل ومثير .. ولكن يا ابنتي . مهما كان الزواج ملكيا ، فسوف يكون مملا .. وفي القصور يحاربون الملل بالخمر - لا تسرفي .. وبالإففاق على المجوهرات والملابس الأنيقة - لا تسرفي .. وسوف تستمعين حكاية عن كل ما تقع عليه عينك .. وسوف تكونين أنت حكاية ورواية عند كل من يرونك ومن لا يرونك .. الخلاص .. خلاصك أنت .. أن تنظري من النافذة وأن تطيلي النظر وأن تسمعي وتتعلمي الإصغاء وأهم من كل ذلك : كتاب - مائة كتاب .. ألف كتاب تنقلب بين يديك .. أنها وحدها النور والنيان والثورة .. وتصبحين على خير .. وإلى غد مع رسالة أخرى .

أعظم تحية روحية من أم لابنتها التي أكلتها الثورة التي لم تشعر بها لا هي ولا زوجها !

الإبداع فردى دائماً!

من حوالى خمسة وثلاثين عاما قرر وزير الأوقاف وعزم وتوكل على الله .
قرر أنه يجب عمل شيء لسداجة الناس في مصر الذين يترددون على
أضرحة الأولياء الذين نسميهم في مصر (أولياء الله الصالحين)
أما القرار فهو أنهم لا أولياء ولا صالحون . بعضهم أناس عاديون
أقاموا لأنفسهم أضرحة . . بعض هؤلاء الناس لصوص . . وقرروا أن
يقيموا لأنفسهم أضرحة يصلح حولها الناس ويدعون لهم . . ويكون
الدعاء لهم شفيعا عند الله .

وعزم الوزير - واظنه د . البهى - على نشر حقيقة هذه الأضرحة
وأصحابها . ثم عدل عن ذلك . فهو رأى أن نشر هذه الحقيقة سوف
يجعل الناس يشعرون بالفضيحة . . فهو قد فضحهم أمام أنفسهم .
وجعلهم أضحوكة لبعضهم البعض . ثم إنه لن يعرضهم عن ذلك بشيء
آخر . فالمصريون لديهم إحساس فرعونى عميق بتقديس الموتى والتوسل
إلى الله عن طريق أوليائه الصالحين ؟!

فهو لم يجد بديلا عن شعور الناس بالارتياح إذا ذهبوا إلى الأضرحة !

ومن المؤكد تاريخيا أن سيدنا الحسين لم يدفن في مصر - لا هو ولا رأسه ولا قدماه ولا خيته . هذه حقيقة مؤكدة . نشرناها كثيرا جدا . . ولكن أحدا لم يأخذ بها . ولا يزال من أهم معالم شهر رمضان المبارك الذهاب إلى مسجد الحسين ، وحى الحسين . .

وكأننا لم نقل شيئا . .

وفي يوم فكر مصطفى أمين وعلى أمين في حملة صحفية لصرف الناس عن زيارة الأضرحة فقرروا دفن حمار في مكان ما وإقامة ضريح عليه ثم الدعوة إلى زيارة صاحب هذا الضريح لانه يشفى المرضى ويأتى بالأطفال من الأم العاقر والأب العقيم !!

ثم عدلا عن هذه الفكرة . فمعناها أن الناس مغفلون وأنهم حمير يتبركون بالحمير . . وهى إهانة بالغة للناس ولأنفسنا . ولا يعوضنا ويعوض الناس عن ذلك أى شيء !

فما الحل أمام الكاتب إذا كان الناس قد فسدوا وانحرفوا . . ما علاج هذا الفساد ؟ ما قول الكاتب إذا كان الدين قد فقد هيئته عند الناس والطبقة الاجتماعية قد فقدت جاذبيتها ؟

والأسرة لم تعد لها قيمة ولا هيبة ولا معنى ولا ضرورة ؟

فما الذى يفعله الناس بعد أن انهارت كل هذه القوى التقليدية . إن الناس يختارون لهم فكرا ونظرية . ويضعون لأنفسهم روابط بديلا عن الدين وعن الطبقة وعن الأسرة . هذه الروابط تكون لها قدسية الدين . وقوة الطبقة ودفع الأسرة . وهل يجدون شيئا من ذلك فى المؤسسة التى يعملون بها أو النقابة أو الرابطة أو النادى الرياضى أو الجمعيات الخيرية . .

ولكن ليس هذا حلا ، وإنما هو حل بديل . . أو بديل عن الحل . .
ولذلك نجد المواطن المعاصر حريصاً على أن تكون في جيبه بطاقة
نقابة وبطاقة شخصية وبطاقة للنادى . . وهذه البطاقات هى (هوية)
المواطن الذى له رقم مسلسل فى النقابة . . أو الذى له توصيف : عامل
مساعد مهندس . . طبيب . . سكرتير . . رئيس . .

هنا يتأكد لدى الكاتب أو المفكر أن المواطن فى حاجة إليه إلى رأيه إلى
هوايته . . إلى الوقوف معه وضده أحياناً . . المهم أن يكون هناك . .

وعلى الرغم من حاجة الناس إلى ما يعتزون به ويرمجهم . . فإن قوى
الدمار تظهر فيهم . . وهذه الرغبة فى التدمير ليس سببها أنهم لا يريدون
أحداً أو شيئاً . . وإنما هو نوع من الضيق العام ينفسون فيه عن
أنفسهم . . فبدلاً من أن يتوكلوا على عصا أو رأى أو نظرية . . فإنهم
يحطمون العصا التى يتوكلون عليها وصاحب العصا أيضاً . . وبعد ذلك
يكون على هذا الدمار الذى دفعته الظروف إلى ارتكابه ؟

عندما عاد الرئيس عبد الناصر من روسيا وجد فى الصحف المصرية
حملة عنيفة ضد توفيق الحكيم . والحملة تتهم الحكيم بأنه سرق هذه
القصة وسرق هذه المسرحية . . وأن الناقد الفنى جليل البندارى قد
ضحك عليه وروى له حادثة وقعت له فحولها الحكيم إلى مسرحية . . ولم
يعرف أن جليل البندارى قد نقل إليه قصة فيلم رآه والفيلم معروض فى
القاهرة . . ومعنى ذلك أن كل أعمال الحكيم بهذه الصورة !

وقبل ذلك هاجم الصحفى الكبير محمد التابعى الموسيقار محمد عبد
الوهاب واتهمه بسرقة بيتهوفن ورافل وأوفميناخ وغيرهم من الموسيقيين

العالميين . ولم يكن محمد عبد الرهاب إلا فنانا مثقفا يستمع إلى كل الذى حوله ويختار ما يتمشى مع ذوقه ويجعله ذوقا عاما لنا . .

وماتت حملة التابعى وبقى محمد عبد الوهاب سلطانا للطرب وإمبراطورا للموسيقى وأستاذًا لأجيال معه ومن بعده . .

أما الحكيم فقد أنقذه جمال عبد الناصر الذى أصدر قراراً بوقف هذه الحملات وكانت حجته فى ذلك قوية . . فقال : إنهم فى روسيا ينسبون كل الاكتشافات العلمية لأنفسهم . فهم يقولون إنهم الذين اخترعوا التليفون مع أن الذى اخترعه جراهام بل الأمريكى . . وإنهم اخترعوا الراديو مع أن الذى اخترعه ماركونى الإيطالى . . وإنهم أول من عرف الصواريخ والعالم كله يعرف أن الذى اخترعها العالم الألمانى فون براون . .

وقال عبد الناصر : كيف يعتز الروس بها ليس لهم ، ونحن نهدم ما هو لنا ونابع من صميم شعبنا وفكرنا ؟

حتى الروس أنفسهم قد ظهر بينهم من يقول إن كاتبهم العظيم شولوخوف الحائز على جائزة نوبل فى الأدب قد سرق روايته الكبرى (الدون الهادئ) وإن صاحبها الأصل عامل بسيط . .

ويتساءل الناس أين هذا العامل لكى يعرض على الناس روايته المسروقة هذه . . ولابد أن يكون هذا العامل موهوبا . والموهبة لا تموت . . فالله قد خلقها لتظهر . . لتضىء . . ويكون الرد أن هذا العامل قد مات . . أو قتلوه . . فإن لم يكن هذا كذبا ، فهو يكشف عن روح التدمير فى الشعوب . ويكون التدمير أكبر دليل على أن مرضا قد استحكم وأنه فى حاجة إلى الطبيب الذى يشخص ويداوى !

ولا يزال شكسبير العظيم هو الآخر موضع شك ويتساءلون : هل هو الذى أَلَف المسرحيات . . أو هو الفيلسوف بكون أو هو غيره . . كأن الإنسانية تنكر على نفسها أن يكون فيها عبقرى . . فإذا ظهر طردوه من عظمته . . شرحوه . . بهدلوه . . ثم راحوا يلعنون أنفسهم !

وفي مصر قيل إن د . سعيد عبده كان يصحح لأمير الشعراء شوقى . . وقيل بل إنه نظم له أبياتا . . وعاش سعيد عبده بعد وفاة شوقى . . وعندما كان يقال له ذلك فلم يكن ينكره أو يؤيده . . والمعنى أن فيه شيئا من الصحة !

ولا يزال شوقى أميراً لكل الشعراء . .

فما فائدة تدمير موهبة عظيمة . . ما جدوى تحطيم عبقرية فذة ؟
لا جدوى ولكنها غريزة التدمير والتحقير . .

وعند انتصار السادات فى حرب أكتوبر قيل : إن الذى انتصر هو عبد الناصر لأنه واضع الخطأ . .

شئ عجيب : أن يهزم عبد الناصر فى ١٩٦٧ وأن ينتصر فى ١٩٧٣ . . أن يهزم حياً وينتصر ميتاً ؟ !

مع أن الهزيمة مصرية والنصر مصرى أيضا . . والجيش المصرى فى الحالتين هو الذى انكسر وهو الذى انتصر . . والفارق هو القيادة والتدريب والتدبير وحسن الأداء وبراعة السياسة !
ولكن التدمير غريزة فردية وغريزة شعبية أيضا !

وليس فى استطاعة الكاتب الذى يجد أهل زمانه فاسدين ، أن يتخلص منهم . . وأن يأتى بقوم غيرهم . استطاع ذلك رجل واحد هو

نوح عليه السلام . دعا أهله وأوصاهم وأرشدهم ووعدهم وتوعدهم وحذرهم وأنذرهم ، ولكنهم لم يستجيبوا . ولما رأوه بينى سفينة بعيدة عن الشاطئ قالوا إن نوحا مجنون .

ولكن نوحا كان يعلم أن الطوفان قادم . وأنه لانجاة منه إلا من عصم الله . ولما ضاق نوح بقومه قال (رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) .

وجاء الطوفان . وكانت السفينة قد اكتملت وأوحى الله إليه أن يحمل فيها أسرته وزوجين اثنين من كل الحيوانات . .

ولكن اثنين قد عصيا نوحا عليه السلام : ابنه وسيدة على كتفها غلام . .

أما الابن فقد قفز من السفينة وقال إنه سيلجأ إلى جبل . الجبل يعصمه من الماء . وقال له أبوه : لا عاصم اليوم من أمر ربى .

وغرق الابن العاصى . والذي جاء عصيانه تجسيدا لحكمة قديمة : أنه لا كرامة لنبي في وطنه وفي أهله . لقد عصاه أقرب الناس إليه . .

أما السيدة فكان لها غلام . ولم تشأ أن تركب السفينة وذهبت إلى أحد الجبال . وكلما أدركها الماء صعدت حتى بلغت القمة . . فأدركها الماء حتى رأسها . . فرفعت ابنها فوق رأسها . . وأدركها الماء فغرقت ومن بعدها ابنها - فقد كانت إرادة الله أن يهلك كل من لم يطع نوحا عليه السلام !

وليس في استطاعة الكاتب أو المصلح أن يأتى بقوم غير الذين فسدوا . . وإنما عليه أن يدعو وأن يشرح وأن يستقطب بعض الناس . . يستقطب نواة وبذورا . . وجذورا . . وهداة للتطور . .

وفي زمن الدعوة إلى النهضة أو التنوير وفي مواجهة السلطة صاحبة
الإرادة والقرار . . يقف الكاتب أمام الهيئة . . أمام اللجان . . أمام
أشكال وألوان من السلطات . ولكن التاريخ يدين للكاتب الفرد . .
والمفكر الفرد . . والأديب الفرد . . لأن الفرد هو وحده القادر على
الإبداع . . هو الذي في داخله شرارة . . هذه الشرارة هي التي تدير
موهبته وتضيء له وتضيء به . . ليتقدم الناس . .

ولم نعرف في التاريخ كله أن استطاعت لجنة أو هيئة أن تنظم
قصيدة . . أو ترسم لوحة أو تؤلف سيمفونية .

انه الفرد الواحد القادر على كل شيء جديد . . ولذلك كان العذاب
له والحقد عليه . .

وفي أعماق كل مبدع قصة سيدنا يونس والحوت . ويونس هو صاحب
الرسالة . والحوت هو الناس . وهو يريد أن يحتمي بالناس من الناس .
ويريدون أن يعانقوه دون أن يحطموا ضلوعه . .

ولذلك فهو كثيرا ما يذهب بعيدا عن الناس ليراهم أوضح . . بعيدا
عن الناس يكون له الهدوء والصفاء والنقاء والرواء . .
ثم يعود لهم . لا بد أن يعود لهم . .

والنبي عليه الصلاة والسلام كان له (غار حراء) يأوى إليه في الأيام
ذات العدد : الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس . .

والمسيح عليه السلام كانت له البرية . . كانت له الصحراء يذهب
إليها بعيدا ليرى أوضح وأعمق . .
والرهبان لهم الصوامع . .

والعلماء لهم المعابد والمراصد ، وكلها بعيدة عن الناس . . ومن أجلهم أيضا .

فالكاتب حين يبعد فليس هاربا ولا منعزلا ولا هو عزل نفسه ونفاهها بعيدا عن الناس . .

ومن أهم مشاكل العصور الحديثة أن الناس صنعوا الآلة وقلدوها . وانضبطوا . . ولذلك كانوا يملمون بالعودة إلى الطبيعة . . إلى الحياة البدائية . . كما فعل الرومانسيون في أوروبا . . وكما نادى الفيلسوف روسو . . ولا يزال الناس يملمون بتلك الأيام الجميلة . . التي عاش فيها الإنسان على الفواكه وفي الغابات وفي الكهوف والخيام هربا من واقع الحياة الميكانيكية في كل العواصم . .

وفي أمريكا ألوف الشبان يعيشون في الاصطبلات - ويعبدون الأوثان ويختارون أناسا غرباء ليستسلموا لهم تماما . . أحد هؤلاء الأنبياء الكاذبين استدرجهم إلى غابات الأمازون ودعا إلى الانتحار الجماعى . وانتحروا . وكان انتحارهم دليلا على ضعفهم واستسلامهم وفي نفس الوقت هروبهم من سلطان الدولة وسيطرة الأب والأم والمدرس والقسيس . .

ولذلك فضلوا الموت في الغابات . . في الطبيعة البدائية التى لم يعد يراها أو يعيش فيها أحد . .

لقد أخرجوا أنفسهم من جنة القرن العشرين ، ودفنوا أنفسهم في جنة القرن العشرين قبل الميلاد !

ولقد شهد القرن التاسع عشر أقصى درجة الرأسمالية : الاستعمار أو أعلى مراحل الاستعمار : الرأسمالية . .

أى عصر الفرد الذى يجمع المال ويكسده ويجعل منه جبلا يقف فوقه . . إن لم يكن لها فهو كالإله . . والناس تحته عبيد ، أو كأنهم عبيد . .

فهو يضع السلاسل الذهبية على أيدي الناس . . وعلى خيالهم وأحلامهم . .

وفي نفس الوقت عرف القرن التاسع عشر بزوغ الشيوعية وجبروتها . . وانتقالها من ألمانيا إلى أوروبا واستقرارها في روسيا وفي الصين وانتشارها بعد ذلك قوى وأحزابا وعصابات في كل الدنيا .

وظلت الحرب بين نارين . . الشيوعية — أى قوة الجهاير — وبين الرأسمالية أى القوة الفردية .

حتى انهارت الشيوعية في هذا القرن ومن عشر سنوات فقط .

فما هو هذا الصراع ؟

إنه صراع بين النظرية التى تجعل الناس مثل أعواد الكبريت في علبه . . كل الناس أعواد كبريت متشابهون . . تضعهم أو تفبركهم الدولة . . وتشعل فيهم النار . . لا فرق بين عود وعود . . ولا يصح أن يكون هناك فرق . . والناس أعواد كبريت أو أكواب أو أحذية . . وفي ذلك مساواة مطلقة . . والمساواة التامة هى العدل العنيف . . تماما كما تساوى بين أصابع يديك بالسكين . . فتقطعها لتساوى مع أصغرها . . وليس إطالة الأصابع لتساوى مع أطولها .

والإنتاج جماعى . .

والإبداع فردى . .

فالذى اخترع هذا المصنع فرد بعد فرد فى عشرات أو مئات
السنين . . ولكن الإنتاج والوفرة من صنع الكثيرين . . من صنع
العمال . . أى الأدوات المشابهة . . أى الأدوات التى هى قطع غيار فى
جهاز واحد : المصنع . . أو المجتمع . . أو الدولة . .

وحتى لا يمتاز أحد عن أحد ، فبالكل سواء فى الأجور وفى الدرجات
وفى عضوية الحزب أو المنظمة . .

ولم تسفر الشيوعية إلا عن المساواة التامة فى الجوع والتعب والإرهاق
والتخلف . . ولكن فى نفس الوقت انفرد أقطاب الحزب الشيوعى ، أو
أمرأ الحزب الشيوعى بكل صفات الرأسماليين . . فلهم قصور ولهم خدم
وحشم وطهارة . . ولهم عربات تدوس القانون ولهم الصفوف الأولى من
الطائرات ولهم الحراس وستائر على عرباتهم حتى لا يراهم الناس ، أو حتى
لا يروا الحقد والغل والحسد والعجز عن الانتقام فى عيون الطبقة العاملة !

فالمساواة المطلقة ضد الطبيعة . . ضد الفطرة . . فليس بين الناس
اثنان متشابهان . . ولا بين أوراق الشجر ولا بين الطيور والزواحف . . إن
الاختلاف والتباين والتبايز من صفات كل المخلوقات ، فاختلف كل ما
خلق الله أكبر دليل على عظمة الله التى لا حدود لها . .

وجاءت الشيوعية تشعل النار فى حقد الضعيف على القوى ، والفقير
على الغنى ، والمريض على السليم ، والجاهل على المتعلم وابن الشوارع
على أبناء الناس . وفشلت نظرية العدل العنيف والمساواة الظالمة ، والجنة
المزيفة .

والدول الشيوعية كانت تساعد أصحاب المواهب سرا من العلماء
والأدباء والمطربين والراقصات والرياضيين . . وتضعهم فى مكان رفيع فى

المجتمع ولكن في نفس الوقت تحشرهم في قوالب سياسية من حديد . .
وكانت تعطيهم سرا كل شيء . . والمهم أن يكون سرا . . حتى لا يقال إن
الشيوعية تبقيشش أو تستعير أساليب الرأسمالية في الاعتراف بالموهبة
الفردية ، بالإبداع الشخصي !

أجل صورة وأعمق صورة وأروع صورة لذلك : حيوان اللؤلؤ . .

أذكر أنني ذهبت إلى (ثوبا) في اليابان بالقرب من جزيرة ميكو بوتو . .
وهو الرجل الذي اخترع اللؤلؤ المزروع . . هناك وجدت جوا هادئا بعيدا
عن الضوضاء . . وبعيدا عن أيدي وأرجل الناس . . وقد وضع اليابانيون
عشرات الألوف من محار اللؤلؤ . . وعلقوها في أقفاص على ارتفاعات
واحدة من القاع . . قد خلقوا الحيوانات اللؤلؤ (جوا) هادئا دافئا
ساكنا . . وتركوا هذه الحيوانات تبدع دون مقاطعة أو تدخل من أحد .

فالمعروف أن حيوان اللؤلؤ كائن قبيح الشكل ضعيف جدا . . ويعيش
في محارة . . ومن خلال هذه المحارة تدخل ذرة من أى شيء . . من رمل
من تراب أو جرثومة فإذا دخلت جسم هذا الكائن الصغير توجّع وتآلم
وانطوى وانزوى ودخل يفرز مادة اللؤلؤ حول هذا الجزء الصغير . .
وبذلك يعزله عن بقية الجسم . . يوما . . شهرا . . سنة . . سنين .

فكأن هذا الكائن قد انطوى وانكفأ يبكي . . وكانت دموعه هذه
الحبات البديعة . . فهو يبكي ويبعد . . أو يبعد ويبكى . . فالإبداع هو
الدموع والعرق لهذا الكائن الصغير . . أروع نموذج للعمل الفني . .
للإبداع القائم على الوحدة والانزواء . . والانزواء ليس هروبا ، وإنما هو
هروب إبداعي مؤقت . . تماما كما يغلق العالم مصنعه في وجه العالم . . أو
الشاعر كونه بعيدا عن الناس ليعود إليهم بعد ذلك بما أبدعه !

أما ميكو بوتو فقد اخترع طريقة توفر على هذا الحيوان بعض الدموع . .
فبدلاً من أن يترك ذرات صغيرة تدخل عالم الحيوان الصغير . . فإنه أدخل
كرات صغيرة مصنوعة من المحار الموجود في نهر المسيسيبي الأمريكي . .
وراح حيوان اللؤلؤ يفرز دموعه حول هذه الكرات . . وبدلاً من أن يبكي
سنتين أو ثلاثاً . . فإنه يجعل منها حبة كاملة الاستدارة في سنة !

تماماً كما تصنع أقراص الشمع وتضعها في خلايا النحل ، وبذلك توفر
على النحل شقاء وعذاب شهور طويلة .

في سنة ١٩٥٧ رأيت في المعرض الدولي في بروكسل أروع ما عرضته دول
العالم . . الروس عرضوا نموذجاً صغيراً لأول قمر صناعي . . وقمرًا
صناعياً وكلبة . . وقيل إن هذه الكلبة هي أخت الكلبة (لايكا) التي
أطلقها الروس . . ووقفت وسط الناس السذج الذين راخوا يتساءلون عن
كيف ماتت الكلبة لايكا في الفضاء الخارجي . . دون أن تنتبه إلى أن مئات
الآلوف من الكلاب والقطط والأرانب والفئران والضفادع تموت في المعامل
من أجل سلامة الإنسان . . فالعلماء يقومون بتجاربهم عليها ، وليس في
استطاعتهم أن يضحوا بمثل هذه الأعداد من البشر . . ولكن وقفنا
نتساءل والروس يندھشون لهذا العبط !

ولكن أهم ما عرضته النمسا هو نموذج لرياض الأطفال . . وفي رأيها أن
ميلاد طفل وتربيته طفل وخلق مواطن صالح وتشجيعه على الإبداع هو
أعظم ما تقدمه دولة . . وكل شيء في المعرض النمساوي يحدثننا عن
الطفل المعجزة مونتسارت . . الذي أبدع أول سمفونية له وهو في السابعة
من عمره .

كأن النمسا أرادت أن تقول : إن أعظم ما تقوم به دولة هو أن يكون عندها موتسارت . . عشرة . . أو مائة عبقرى . ولا عبقرية بلا حرية . . فالقيود والأغلال تصنع رجلا صبوراً ولكنها لا تخلق عبقرية . .

وانهيار الشيوعية التي صنعت سفن الفضاء ، ولم تصنع ثلاجة في بيت واحد . . والتي صنعت صواريخ جبارة تدور حول الكواكب ، لم تصنع جهاز تليفزيون ولا سخانا ولا جهاز تكييف لعامة الناس . . بل إن اهتمامها كان بتكييف محطات المترو ، لا بيوت الناس .

فجاء سقوط الشيوعية في روسيا وانفصال كل الجمهوريات التي ابتلعتها بالحديد والنار والإرهاب ، أكبر دليل على أنه ليس طبيعياً أن يكون الناس قوالب طوب . . وإنما الطبيعى أن تكون هناك قواعد عامة لكل الناس يتحرك فيها الناس بكل حرية . . وأن يحمى القانون الناس من الناس . ولكن المهم أن تكون فرداً حراً كريماً لتكون قادراً على الخلق .

من الذى يقول ذلك ؟

يقوله المفكر والأديب والمربى والمصلح . .

ومن الذى يسمع ذلك ؟

يسمعه كل الناس . لأنه فى صالح كل الناس .

الذين فضوا الدنيا وفتحوا الجنة !

فى القرن السادس قبل الميلاد كان الفيلسوف الصينى لاوتسو يشكو من أن الدنيا تغيرت . . وأن الناس مستعجلون . . فإيقاع الحياة صار أسرع . . ولم يعد أحد يتأنى عند الطعام أو الكلام . . الناس قد ركبهم العفريت . .

وقال لاوتسو : لقد فسدت الدنيا . فالناس يستعجلون النهاية !

ومن عشرين قرنا شكنا (بلينى الكبير) ذلك المفكر المقاتل أن أكبر خطيئة هى استخدام الإنسان لمادة الحديد . . فبدلا من أن يستخدمها فى حرث الأرض . . أصبح يستخدم الحديد فى القتل . . وقرنى أن يرى اتفاقا بين الدول على أن تستخدم الحديد فى الزراعة فقط !

وأحد أباطرة الرومان أعدم رجلا اخترع زجاجا غير قابل للكسر . وقال إن هذا النوع من الزجاج سوف يؤدى إلى بطالة مئات العمال الذين يعملون فى صناعة زجاج قابل للكسر . .

كانهم الثلاثة يعيشون معنا الآن . . ففى العالم المعاصر دعوة إلى عدم استخدام أسلحة الدمار . . والأسلحة النووية . . وأحزاب الخضراء تطالب بوقف رصف الطرق التى تجىء على حساب الزراعة واللون الأخضر . .

والتي تفتح الطريق أمام السيارات التي تنفث السم في كل مكان . .
ويرفضون أيضا بناء المطارات حتى لا تستخدم الطائرات التي تشع
السموم في الهواء وعلى الأرض وفي الجو . .

والأطباء يطالبون الناس بأن يتمهلوا إذا أكلوا وإذا شربوا . . وإذا
جلسوا وإذا قاموا وإذا ناموا . . وإنه لا شيء يفسد الصحة الجسمية
والصحة النفسية إلا هذه السرعة . . هذا التوتر العصبي . .

وكانت للدكتور أحمد زكي الذي ترجم لنا قصة (الميكروب) و الكون
الغامض وكان رئيس تحرير مجلة العربى الكويتية عبارة مشهورة تقول :
اضحك ترقص معدتك !

وإنه لأشياء يساعد على الهضم وانتظام الدورتين الهضمية والدموية إلا
راحة الأعصاب والمرح . . ولكن في زماننا من الصعب أن يتوافق الإنسان
وأن يتوازن . . فكل شيء حوله يجرى ويرجع ويلسع ، وهو يحاول أن
ينسحب من كل ذلك . . يحاول أن يخرج من الدوامة ويتفرج عليها . .
أحيانا يستطيع وأحيانا كثيرة لا يستطيع . . أحيانا يقبل زمانه وأحيانا
يرفضه رغم أنه فيه ، وأنه مطالب بأن يكون طرفا إيجابيا . . لا طرفا سلبيا
متفرجا لا مباليا . .

ومن مظاهر الرفض أن يمل الناس الاستمرار في هذه الحياة ، وأن
يتجهوا إلى الماضي هارين . .

والذين تمسكوا بالماضى وحرصوا عليه خوفا من هذا الحاضر ، قد
ملوا . . قد سئمو . . ولذلك اتجهوا إلى الحاضر وإلى المستقبل . .

تماما كما حدث في رواية (عالم جديد جرى) للأديب الدوس هكسلى . . ففى هذه الرواية نجد أن أحد أبطالها قد سئم الانضباط والحياة الآلية الميكانيكية . . وقد ركب طائرة هبطت اضطراريا في إحدى الغابات وهناك قابل شابا ثائرا فأعجب به . . هذا الشاب ثائر على الحياة البدائية الهادئة المملة . . وتمنى لو عاش في عالم متطور . .

وذهب إلى العالم الميكانيكى الآلى فقرر أن يعود إلى عالمه القديم . .

وفي رواية (تاييس) للكاتب الفرنسى أناتول فرانس . . وجدنا راهبا قد زهق من حياته . . ويريد أن يعيش حياة اللهو والفرفشة . . وكان يعرف راقصة فى الإسكندرية اسمها (تاييس) . . وفوجئ بأنها قد زهقت من حياة اللهو واللىالى الحمراء . . وأنها تريد أن تعيش فى استقامة ونقاء . . راهبة كهذا الراهب . . وحاول إقناعها أن ترجع إلى ما كانت فيه . .

وكان انتصارها هزيمة له ، وكانت عزيمة انتصارها لها . .

وكلاهما قد سئم حياته . .

ومن الذين سئموا الحاضر ويمحنون إلى الماضى ، والذين سئموا الماضى ويتطلعون إلى المستقبل يتكون هذا الجيل . . أو كل جيل . .

فكل الأجيال متشابهة المشاكل والآمال والأحلام . . وإن كان كل جيل يتوهم أنه هو (الجيل) . . وأنه هو الموعود . . وأنه الذى على موعد مع القدر . .

ولكن الأجيال تتداخل كما تتداخل موجات البحر وهبات النسيم . . ويتداخل الظلام فى العشق ويتداخل النور فى الشفق . . ولا انفصال بين الدرجات اللونية والحركات الموجية . .

ونحن نقول : القرن العشرون والقرن الواحد والعشرون .

ولاعلاقة بهذه المسميات بحركات التاريخ وموجات الغضب والرضا . . فتساقط أوراق النتيجة التى على الحائط لايقدم ولا يؤخر فى أحداث الحياة . لأن العشرين والواحد والعشرين هما حساباتنا نحن . . هما خطوط نضعها على أوراقنا . . ولايوجد أى فارق بين يوم ٣١ ديسمبر سنة ٢٠٠٠ وبين أول يناير سنة ٢٠٠١ . . إنها حساباتنا وتقديراتنا واختراعاتنا . . وفى هذا اليوم الذى نراه فاصلا بين قرن وقرن ليس كذلك بالنسبة للتقويم الهجرى أو القبطى أو العبرى أو الصينى . . ولا قيمة له فى دوران الأفهار حول الكواكب الأخرى . . ولا دوران النجوم فى المجرة الواحدة ولا دوران المجرة بها فيها من ألوف ملايين النجوم حول نفسها . . ولا دوران ألوف ملايين المجرات فى الكون . . ولا دوران القوى والطاقة وجزيئات الخلية الحية حول بعضها البعض . .

ان الزمن نسبى . . إن هذه أرقامنا وحساباتنا ونحن ما نزال نتوهم أن الجديد عندنا هو الجديد فى الكون كله . . وأن نهاية قرن وبداية قرن . . بداية تيار أو اتجاه أو نمط جديد فى الحياة . . لاشئ من ذلك سوف يحدث . . وإنما نحن الذين نتصور ذلك ! فلايزال الإنسان مغرورا ولايزال يتصور أنه مركز الكون . وأنه ما دام سيد الأرض ، فهو سيد الكون .

وهذا تفكير قديم جدا . وقد اندثر تماما عندما اكتشف علماء الفلك أن الأرض ليست مركز الكون . . وإنما هى كوكب من تسعة كواكب تدور حول نجم هو الشمس . . وإن الشمس ليست إلا نجمة من بين آلاف ملايين النجوم فى مجرة واحدة . . وإن فى الكون ألوف ملايين المجرات . . وإن هناك أكثر من كون غير الذى نعرفه . . ربما ألف مليون كون آخر ؟ !

ولو كشف الله لنا كل عظمته ، لأحسنا جميعا بأننا هاموش أو نمل يزحف على تل . . ولكن الله يكشف لنا عظمته بالتدريج . . وكلما اكتشفنا شيئا من عظمته أحسنا نحن أيضا بقدرتنا على الفهم . . وإننا مختلفون عن بقية الحيوانات الأخرى . .

فالإنسان كان ذرة . . مثل كل الحيوانات . . وتطورت وتقدمت حتى عرفت الكون . . وعرفنا جانبنا ضئيلا من عظمة الله . . فكأن الكون لكى يعرف نفسه ميزنا وطورنا . . وعن طريق تطوينا أدركننا أصلنا وفصلنا ثم تطلعنا إلى مستقبلنا . . ومستقبل الكون أيضا . وهذه الاكتشافات المستمرة لقدرتنا وسيطرتنا على ما حولنا هى التى جعلتنا نشعر بالتفوق على النبات والجماد والحيوان . ونرى — ونحن على حق — أننا سادة هذه الكائنات !

ولكن من قال إننا الكائنات العاقلة الوحيدة فى هذا الكون ؟

من قال إننا أعقل الكائنات وأعظمها ؟ نحن لاندري . ولكن ليس بعيدا أن نعرف بعد ألف سنة أو مليون أن هناك كائنات أعظم وأعقل . . فليس معقولا أن يخلق الله هذا الكون من أجل الإنسان وحده . . فالظروف التى جمعت الإنسان وطورته ، لماذا لا تخلق كائنات أخرى وتطورها أيضا . . فقدرة الله لا حدود لها . فالعلم يدعو إلى الإيمان بالله . وإيمان الإنسان بنفسه أيضا . والإنسان يبالغ كثيرا فى قدرته . . مع أنه عاجز تماما عن مواجهة الميكروبات والجراثيم والأمراض . . وما صنعت يده من السموم الجسمية . . وأخطر من ذلك . . السموم النفسية والعقلية التى هى أيضا من صنع الإنسان . وهو يحاول النجاة منها . . ولكن كيف ينجو الإنسان من الإنسان . . إن كل شيء يدل على أنه لا نجاة لنا . . فنحن محكوم علينا بالحياة على هذا الكوكب . . نبنيه ونهدمه

فوق دماغنا . . ونبكي على ذلك . . ثم نبنيه أروع وأجمل على الكواكب الأخرى . . أو في المدن المدارية حول الأرض . .

وليس البحث عن كواكب أخرى ، الا مللا من كوكب الأرض . .
وليس البحث عن جزر السعادة والمدينة الفاصلة إلا هربا من حياتنا على هذا الكوكب . .

وهناك من يهربون من الواقع بالمخدرات والدروشة — وكلها مخدرات تجعل العقل يغيب . . فإذا غاب راح يهلوس ويهذى . . وكذلك يفعل الحشاشون والشامون والمتعصبون والمتطرفون . .
هل هي المعجزة التي تنفذنا من أنفسنا ؟ هل ما تزال معجزة بلا أنبياء من عند الله . .

إن كثيرين في العصر الحديث قد ادعوا النبوة . ووجدوا من يصدقهم . . من يهجر البيت وينام في الشارع ، ويهجر الشارع وينام في الاضطرابات ، ويهجر الاضطرابات ويمضى ليله ونهاره في مواخير الخمر والحشيش . . ومن يرفض كل رأى وكل فكر ويعشق فكرة واحدة يؤمن بأنها وحدها الصحيحة . وأن الناس جميعا مخطئون . وأنه وحده الذى يحاسب الناس ويحكمهم وينفذ فيهم حكمه . وكذلك يفعل المتطرفون في كل دين إسلامي أو مسيحي أو يهودي أو بوذي . فهم جميعا سواء في يد كتاب مقدس وفي يد أخرى قبله !

وليس الدين — أى دين — هو السبب الوحيد للعنف والتطرف والدروشة الهروبية . . وإنما هناك أسباب اجتماعية واقتصادية ونفسية كلها معا تدفع الإنسان — الشاب غالبا — إلى أن يرفض المجتمع . وأن يسخط عليه وأن يعيده . . بالقوة . .

ولكن المجتمع ما يزال هو الأقوى . . ولكن الشباب المتطرف ينطح المجتمع . . ويتهى الصراع بموته . . وهو يتوج قوته بأنه شهيد . . أى أنه ليس قاتلا ولا مجرما . ولكنه شهيد : فهو القاضى وهو الجلاد وهو الذى أقام لنفسه حفل تكريم على جثث الأبرياء وعاونه آخرون على أن يفتحوا له أبواب الجنة على مصاريعها مع أولياء الله والقديسين والأنبياء . . فهو إن لم يملك الدنيا ، فقد استولى على الجنة !!

وتضاعف مشاكل الناس ، وأوهام الشباب . . وتختلط الأسباب الحقيقية بالوهمية ، والصدق والكذب ، والإصلاح والإفساد . . إنه طوفان من كل ما فى الدنيا من تناقضات عاجلة تطلب حلا !

نفرض إن هناك مباراة فى كرة القدم فى ستاد القاهرة . . ولكن الفريق الواحد ليس له زى موحد . . وإنما كل لاعب قد ارتدى ما يعجبه من الفانيلات - الفانيلات هى الأصح . . والشورتات . . وبعضهم يلعب حافى القدمين . . ثم إن هناك خمس كرات فى الملعب وعشرة من الحكام . . ومن حق أى متفرج أن ينزل إلى الملعب ويشوط فى المرمى . . ويصفر أحد الحكام معتبرا ذلك هدفا صحيحا . . ومن حق أى متفرج أن ينزل ويضرب أى لاعب لم يعجبه قلما ويعتبر الحكم أن هذا قانونى . . ولا أحد ينظر إلى ساعته . . وتتكاثر الصفافير من شفاء الحكام واللاعبين والمتفرجين . . ولا أحد يعرف كيف تنتهى المباراة .

وكان أحد المتفرجين جالسا يتأمل هذا الذى يراه . . فإذا تساءل هذا اللاعب الصاحى : ما اسم هذه اللعبة ؟

فالخق مع هذا المتفرج ، لأن اللعبة التى أمامه ليست هى كرة القدم المعروفة القواعد والأصول . . ولكن الذى يراه ليس (لعبة) وإنما هو

عبث . . فوضى . . وإذا حاول هذا المتفرج أن يسأل جاره عن المعنى وراء هذا العبث فوجد جاره هو الآخر أكثر حيرة منه . . ولكنه لا يجد غير هذا العبث وهذا الملعب . . ولذلك فهو يتسلى . . يتفرج والسلام .

فكأنه من الممكن أن نتفرج ونتسلى ما دمنا لا نجد المعنى . . وإذا وجدنا المعنى لم نفهم الهدف . . ولكن من المؤكد أن نجعل المتفرج أكثر حيرة من الكرات في الملعب بين أيدي وأرجل الجميع تتطاير هنا وهناك وتلاحقها الصفافير بين شفاه الألف !

شيء من مثل ذلك في السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية وما تعرضه الصحف والتلفزيون .

كما أن الفراغ من الممكن أن يدفع الإنسان إلى أن يملأه بأي شيء . . كاللدى يظل طوال النهار متسكعا بين الشوارع والنواصي والمهاوى . . فليس له هدف ! أو أن له هدفا ليس واضحا . . كما أن الطريق إليه ليس واضحا كذلك !

وقد صور لنا الأديب النمساوي استيفان تسيفان في إحدى رواياته المسماه (المباراة الملكية) أن سجيناً قد حبسوه انفرادياً . . وليس معه كتاب أو ورقة . . فما كان منه إلا أن راح يتذكر كل ما حفظ من الشعر . . يلقيه بصوت مرتفع . . وبصوت هامس ثم يقلبه . . ثم يقرأ الشعر بالقلوب . . وبعد أن فرغ من الشعر راح يتخيل المباريات الشهيرة في الشطرنج . . ويكون مرة غالباً ومرة مغلوباً . . ولما فرغ من كل هذه المباريات المشهورة راح يتفنن في نظم شعر من غير حروف الباء والفاء والقاف واللام . . تماماً ككثير من القصائد التي تعمدتها الحريرى في (المقامات) . . مثلاً يقول الحريرى :

مسودته تدوم لكل هول وهل كل مسودته تدوم

ففى استطاعتك أن تقرأ هذا البيت من آخره أيضا ! أو أن تقول : قلع
مركب ببيكر معلق - تستطيع أن تقرأها من آخرها أيضا !

وهذا الذى حاوله الحريرى هو نوع من اللعب . . يقصد إثبات القدرة
اللغوية . . ولكنه فى نفس الوقت إضاعة للطاقة وفرغ شديد وافتعال . .
ولكن عذر الحريرى أنه أراد ذلك . . وأن تظل (المقامات) رجلا يتكسب
من الألعاب البهلوانية والردود الذكية . . فهذا اللعب له هدف . . أو إنه
أحسن توظيف هذا اللهو . . تماما كالحاوى الذى يخرج الثعبان من
جسمه والكتكوت من كم الجلاب . . ويخرج النار من فمه . . ولكن
الحيرة والضياغ عند الناس . . لعدم وضوح الطريق والهدف . . ولأن
الناس يقعون وحدهم فريسة للناس الشطار من أصحاب النظريات
السياسية البهلوانية والحكايات الاجتماعية الخرافية .

مثلا : إذا كان أب قد أنفق على ابنه دم قلبه لكى يجعل منه متعلما
يتكسب بعد ذلك بعلمه . . والذى سوف يكسبه بالعلم شىء قليل . .
وهذا الذى تعلم كان على خلق ودين . . ويريد أن تكون له أسرة متينة . .
وبذلك تشارك فى بناء مجتمع صحيح . ولكن ظروف الحياة أقسى
وأصعب . . فهو غير قادر على أن يتزوج وأن يكون له بيت صغير وأن
ينفق على طفل أو اثنين بعد ذلك . . ولكنه فى نفس الوقت مؤمن بأن هذا
هو الطريق السليم . . وان هذا الطريق لأنه سليم فهو طويل شاق . ولكنه
تعلم أيضا أن الصبر ضرورة حياة . وان الكفاح شرط كل نجاح . وفجأة
وجد أن البنت التى اختارها فضلت عليه الميكانيكى والسابك . لماذا ؟ لأن

السباك كما تقول أمها وأبوها - عنده فلوس وهو وحده القادر على شراء الشقة والسيارة والثلاجة والفريديو - بينها زميلها - يا حبة عين أمها - يحلم بكل ذلك ولا يقدر عليه . فلا بد أن تختار البنت شابا غنيا - ولا بد للشباب الذي يريد أن يكافح بزوجته ومن أجلها ، يجب أن يضرب دماغه ودماغ والده في الحيط . . في حيط بيت هذا الشاب الغنى !

فما المعنى ؟ المعنى أن على الشاب أن يبذل القيم والمبادئ والأخلاق في كوب الدموع والعرق ويشرب نصفها . . أما النصف الثاني فيقدمه لوالده !

وليس غريبا أن يتساءل الناس : ما هو الصبح وما هو الغلط ؟
أذكر أنني وقفت في إشارة المرور وتصادف وجود راقصة معروفة إلى جوارى قالت لى : إزيك .

قلت : الله يسلمك .

قالت : مش والنبى أحسن .

قلت : ماهو .

قالت : الرقص

قلت : والله أحسن . هز الوسط أفضل كثيرا من هز القيم . . فالقيم اشترت هذه السيارة المتواضعة وأنت هذه السيارة الفاخرة . . ولكنى أصالح نفسى على نفسى وأقول وهل كنت أصلح راقصا .

قالت : طبعاً ما تنفعش

قلت : ولكنك أنت أيضا

وانفتحت إشارة المرور وانطلقت سيارتها تسبق كل السيارات . .
وأحسست أن سيارتها قد فعصت كل أفكارى بل إنها أجهضتها قبل أن
تولد !

وكما يحدث فى أيام الخماسين فإن الجو - أى المسافة بين الأرض والسماء -
قد امتلأ بالرمال الحمراء . . فلا أحد يعرف أين الأرض وأين السماء وأين
الطريق . . إنها أيام بلا سماء ولا أرض . . ولا أحد يعرف إن كانت الأرض
تهدد تحت أقدامنا . . أو أنها السقوف تنهار فوق رؤوسنا . . إنه ضياع
أحمر . . رملى . . حارة . . ساخنة . . خانقة !

ولكن الإنسان مهما كانت الاضطرابات والفوضى والشوشرة الصوتية
والضوئية والعقلية فإنه لابد أن يختار . . يختار الخطأ أو الصواب . . المهم
أنه لا يسكت على الضياع . . ولذلك يضيق أى شىء - لأن الإنسان
حيوان مؤمن .

بل ليس الإنسان وحده هو القادر على الاختيار - أى الذى لم أره . بل
الحيوان أيضا . وفى الفلسفة القديمة حكاية اسمها حكاية (حمار
بوريدان) يقال إن هذا الحمار وضعوه على كوبرى . . ووضعوا الماء فى ناحية
والبرسيم فى ناحية . . والحمار جائع عطشان . . وظل الحمار يهتز فى وسط
الكوبرى . . لا يعرف كيف يقرر . . هل يبدأ بالماء أو بالبرسيم . . وظل
الحمار عاجزا عن الحسم . . حتى مات !

ولكن اهتزاز الحمار وتحركه خطوة ناحية البرسيم - وخطوة ناحية الماء
يدلان على انه يريد . . ولكنه عاجز عن الحسم . . فله إرادة ولكن ليس
لديه عزيمة . . ولكن الإنسان يفعل مثل حمار بوريدان أو يريح نفسه من
دوخة الحيرة والتردد ويقع فريسة لأى شىء . . وبذلك كان تهور واندفاع

وانحراف بعض الناس دليلا على أنهم هربوا من التردد والتروى والتفكير
والتأمل - وقرروا أن يحصلوا على أى شئ . . أية نظرية . . ومن أى طريق
أية طريقة . ولكن لم يختاروا الأصح والأسلم ، فمن الذى يساعد الناس
على القرار والحسم على الأصح والأفضل والأنفع والأرفع ؟

اتحاد الصناعات المصرية يقدم أروع صورة

هل هناك أمل في حل هذه المشاكل النفسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية في العالم كله ؟ هل من الممكن أن يعود الناس بالقوة إلى الطابور ؟ هل الطابور هو الشكل المثالي للحياة الحرة ؟ هل هي الفوضى في عصر العلوم المنضبطة والحاسبات الألكترونية وسفن الفضاء وإطلاق المراسد تدور حول الأرض لتعرف أغوار الكون السحيق لعلنا ننتهي إلى بداية الحياة . . أو بداية الكون أو كيف خلق الله هذا الكون ؟

هل الكاتب والمفكر والمصلح قد . . تجاوز حدوده وراح يطالب ويحلم بما لا يستطيع ؟

وهل هو يستطيع أن يحل كل هذه الأزمات في وقت قصير ؟ . أو هل من الضروري حلها ؟ مثلاً : هل هناك حل لمشكلة الموت ؟ وهل الموت يمكن أن يوصف بأنه مشكلة ؟ طبعاً ليس مشكلة لأن المشكلة هي العقدة التي لها حل . والموت لا حل له . والإنسان ما دام قد ولد فلا بد أن يموت . . وهو يحاول أن ينسى ذلك . . وسواء نسى أو لم ينس فهو ميت لا محالة !

فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يعرف أنه سيموت . .

والإنسان هو الحيوان الوحيد الذى له مستقبل . . والذى يخطط لمستقبله . . والقادر على أن يقاوم وأن يتحدى وأن يسخر . . وهو يعلم علم اليقين أنه رغم أنه يتحدى وأنه يقاوم فسوف يموت . . ولكن موته ليس موت البشرية . . فسوف يحيا آخرون يستأنفون المعركة . . والقتال ولكن بأسلحة أخرى . . فلا نهاية للمشاكل ولا نهاية لحلها . .

والإنسان إذا ركب القطار من القاهرة إلى الإسكندرية فإنه بقدر ما يبعد عن القاهرة يدنو من الإسكندرية . . بقدر ما يبعد عن يوم ميلاده . . يقترب من يوم وفاته . . وهو يعلم ذلك ، ولكنه يحاول ويقاوم ويسقط ليقوم غيره يستأنف كل الذى حدث . . ويجدد الأمل والحلم والمعنى والهدف واللذة والعذاب أيضا !

هل يحلم بالمعجزة ؟

إنه لا يستطيع إلا أن يحلم . ويكون الحلم نوعا من الترضية المؤقتة . . نوعا من (التصيرة) . . نوعا من الحل العقلى لمشاكل واقعية . . والإنسان يتأرجح بين أحلامه وواقعه . . بين الذى يريد والذى يستطيع . . والمثل يقول : الإنسان ملك عندما يحلم ، شحاذ عندما يصحو من النوم . .

فالإنسان هو الشحاذ الملك . .

وقديما قال الفيلسوف الإغريقى ديوجن : لن ينصلح هذا الكون إلا إذا تملك الفلاسفة ، وتفلسف الملوك . .

والمفكر هو الاثنان معا - أو هكذا يتوهم . .

وفي الستينات في بريطانيا ظهر شبان مبدعون أطلقوا على أنفسهم اسم (الأدباء الساخطون) . وهم ساخطون على الماضي الذى ضيع على الحاضر صورته وإرادته . . فكأن ماضيهم ما يزال حاضرهم . . أو كأن ماضيهم قد ابتلع حاضرهم . . أو كأن حاضرهم قرر أن يتوقف عند ماضيهم . . وبذلك يوقف مسار الزمن . . فيكون هكذا : الماضي والماضى الذى ابتلع الحاضر . . والحاضر الذى لا مستقبل له !

ولكن هؤلاء الشبان الساخطين لم يقفوا عند الماضي والسخرية من الحاضر ، وإنما أبدعوا . . كتبوا الرواية والمسرحية والدراسة الفلسفية . . إنهم جون اوسبورن وكولن ويلسون وشيلا ديلاى ؟

وفي أمريكا أطلقوا على أنفسهم اسم (الأدباء الصاخبون) الذين يدقون الطبول ويزعجون النائمين ويفزعون الحالمين . . وأهمهم : جاك كيرواك وجينزبرج . .

فهم بدلا من لعن الماضي ، خلقوا حاضرهم ومستقبلهم أيضا . وتزعموا الهجوم على بريطانيا التى اشتركت فى العدوان الثلاثى على مصر . ورأوا دولتهم متوحشة منافقة تطالب بالحرية وتأبأها على الآخرين . تطالب بالسلام وتعتمدى ، تطالب بالرأسمالية ولا تريدها مصر . .

إن هؤلاء الشبان رفضوا المعجزة حلا لمشاكل الشباب فى بلادهم والعالم . .

فهل نحن - فى مصر - مانزال ننتظر المعجزة لننتحر من قيودنا السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية . .

أليس طلب المعجزة يتضمن رفض الحل . لأننا نعلم أنه لا معجزة فى زماننا . . إذن نحن ننتظر ما لا يجىء . . ويصبح الكاتب مثل تلك الدابة

التي ربطها الدروز على الجبل في انتظار المهدي المنتظر . . وكلما مات حمار
جاءوا بغيره . . ولم يأت المهدي المنتظر . . لم تأت المعجزة . .

إن حكاية قديمة من الممكن أن تتذكرها . ويكون ذلك حلاً أو أملاً في
الحل . فقد حدث في القرن الثالث عشر في إحدى المدن الألمانية أن ظهر
شاب ينفخ في الناي . . وخرجت وراء هذا الشاب كل الفيران التي في
البيوت . ونزل بها إلى النهر ولم يخرج حتى ماتت !

ويقال أيضاً إن هذا الشاب من مدينة هاملان الألمانية قد راح ينفخ في
الناي فخرج وراءه كل الأطفال الصغار عندما كان الطاعون يحتاج هذه
المدينة ، فجاء خروج الأطفال نجاة لهم من الموت . . ولكننا لم نعرف حتى
الآن أين ذهب هؤلاء الأطفال !

هل حدث ؟ هل هو حالم ؟ هل انتظار لمعجزة قديمة أن تظهر من
جديد . . وأن يكون المفكر هو صاحب المعجزة والقادر على إخراج الشرور
من النفوس والخلل من الإدارة ، والمرضى من الأجسام والفقر من البيوت
بمجرد أن ينفخ في مزماره ؟ ياليت !

وفي مصر رفع توفيق الحكيم شعار : انظر وراءك في سخط ، وأمامك
في يأس !

إذن هو يائس من أي حل . . هو . . وجيله غير قادرين على الحل .
وليس جيله فقط وجيلنا نحن أيضاً .

وكانت كل هذه المعاني والمخاوف تدور بيننا وحولنا ونحنقنا ونتحلل
منها . . ولكنها هناك . . كما أننا نحن أيضاً كنا هناك وما نزال . .

ولم نكن نعرف اسماً لهذا الذي نعانيه ، حتى ظهر كتاب في العراق من
ترجمة الأديب أنيس زكي حسن . الكتاب اسمه (اللامتتمى) من تأليف

الأديب الساخط كولين ويلسون . وقد اختار أنيس زكى حسن كلمة
اللامتمى ترجمة لكلمة الغريب . . أو الخارج عن وضع . . أو الذى لا
يدخل فى إطار . . فنحن أمام أية قضية وأية نظرية :

إما داخلون فيها . .

أو خارجون عنها وعليها

أو متسللون إليها . .

والداخلون هم المؤمنون ، والخارجون هم المعارضون أو المتشككون . .
والمتسللون هم الانتهازيون . .

لقد وجدناها . . وجدنا الكلمة التى تنطبق على حالتنا . . ومازلنا حتى
الآن نبحث عن إجابة لها .

وقد قرأت أخيراً مشروعاً تقدم به اتحاد الصناعات المصرية عنوانه :
رؤية عن تصور اتحاد الصناعات المصرية . وهذا التقرير مكتوب بعبارة
علمية قوية قاطعة . . والتساؤلات كلها عن معنى الهوية المصرية
العربية . . أو معنى الانتماء . .

وأنا أنقل بعض هذا الكلام البديع والتساؤلات العميقة . . ورغم أنها
قديمة ، فلا تزال حية تسعى بيننا لأنها لم تجد حلاً حتى الآن .

يقول تقرير اتحاد الصناعات المصرية فى أجل نص ظهر حتى الآن :

وتدور الإجابة على هذا السؤال حول ما يسمى « قضية الهوية
السياسية » (أو الذاتية الحضارية) .

وتتمثل مشكلة تحديد الهوية الحضارية فى تحديد أو تعريف الذات .
وتكمن أهمية هذه المشكلة فى أنها تضع (الأنا) فى مواجهة الآخر وحتى

يمكن تحديد الهوية لا بد من تحديد علاقات الأشخاص تشابهاتهم واختلافاتهم مع الآخرين ، ومدى انتباههم إليهم أو بعدهم عنهم .

وتتلخص هذه الأزمة في التخطيط الشديد عند اختيار النموذج الحضارى الذى تنشده الجماعة السياسية في الإحياء القومى والتحديث الحضارى والتنمية الشاملة . وهناك على الساحة نماذج وأفكار مطروحة ومتناقضة ، ابتداء من النموذج الكمالى التركى في اختيار التغريب الكامل وانتهاء بإدانة مجتمعنا الحالى باعتباره مجتمعا جاهليا ينبغى تكفيره وهجره ونبذ أساليبه في الحياة .

غير أن طرح قضية الأصالة والمعاصرة على شكل بدائل ثلاث هى :

التمسك بالأصالة ، أو السير في طريق المعاصرة ، أو القيام بمحاولة توفيقية بالجمع بين الاثنين ، يثير إشكالات تزيد من تعقيد القضية . وتجعل الوصول إلى رأى حاسم فيها أمرا يكاد يكون مستحيلا ، لذا اقترح بعض المفكرين صيغة أخرى تقضى على هذا التداخل وهى صيغة (الاتباع أو الإبداع) بمعنى أن الإشكال الحضارى الذى نواجهه هو : هل نظل إلى الأبد مقلدين محاكين (سواء لأجدادنا أو للأجانب) نساير الآخرين ونمسك بذيل تطور لم نصنعه ، أم نصبح مبدعين نبتكر حلولنا الخاصة ونقف ندا للآخرين بأفكارنا الخلاقة وهو نفس السلوك السياسى لبعض الأقطار الذى يتراوح بين الانغلاق الداخلى والتطرف العدوانى . وهذا فضلا عن الإحساس بالقصور والعجز والضعف وعدم التكافؤ وتزايد الإحساس بعدم الثقة في العالم المحيط .

وتكمن جذور أزمة الذاتية في عدة عوامل من أبرزها السيطرة وما تلاها من تبعية وما يترتب عليها من تشويه اقتصادى وحضارى ونفسى .

وكذلك تعميق التبعية بمعنى كثافة الاعتماد على القوى الخارجية لتحقيق الأهداف الوطنية .

وأيضاً شدة الاعتماد من جانب الشعوب على حكوماتها لتحقيق الآمال الجماهيرية فضلاً عن النظرة الأحادية للأمور ، بمعنى أن كافة الأشياء والظواهر والمواقف هي في أنظارنا إما أبيض وإما أسود ولا وسط مما يضيع نسبية الحقائق والأحكام ويدفع إلى التعصب والتطرف وعدم القبول بالحلول الوسط .

ويمكن أن نميز بين أربع هويات يتأرجح بينها الشباب المصري وهي الهوية القطرية المصرية ، والهوية القومية العربية ، والهوية الدينية الإسلامية ، والهوية الإنسانية العالمية .

وأزمة الهوية السياسية الثقافية لدى شباب مصر ينبغى أن تثير القلق والازعاج لدينا ، ولكن لاينبغى أن تثير الذعر ، لأننا نشترك فيها مع معظم دول المعمورة .

أما وجه القلق فيها فيكمن في الخطوة التى تترتب على عدم حسنها والتى تلخص في تأخيرنا عن اللحاق بقطار العالمية السريع الذى يجب أن نأخذ فيه مكاناً مناسباً .

والحل المنشود قد يكون غير تقليدى ومبتكراً ، فلا يجوز أن نظل واقفين نتعارك على الرصيف وندع القطار يفوتنا ، وإنما الحل هو أن نركب القطار ولا بأس من الجدل داخله - إذا كان لابد - حتى نتمكن من توجيه مساره ومواجهة التحديات القادمة .

ثم ماذا نريد ؟

عن السؤال . . من نحن ومن نكون ؟ أجبتنا ما خلاصته أننا مصريون (بالوطن) ثقافتنا عربية وننتمى إلى الحضارة الإسلامية . فالشخصية المصرية واضحة الخصائص شاركت في نسجها روافد تاريخية فرعونية وقبطية بل وحتى بحر متوسطية في وعاء افريقي ، الأمر الذى أكد في النهاية الوجه العالمى بقسماته الإنسانية للهوية الوطنية المصرية .

نجىء إلى إجابة السؤال الثانى ، الذى هو بدوره مركب من العديد من التساؤلات والاستفسارات وعلامات الاستفهام .

أبرزها مثلا ، ماهى أهداف الدولة ؟ وماهى غايات المجتمع ؟ باعتبار أن الدولة تعبر عن المجتمع من حيث تصميم الأهداف العليا والغايات النهائية للجماعة القومية .

إذ يحق لنا أن نتساءل عن أهم الغايات والأهداف المطروحة على ساحة الاختيار تمهيدا لترتيبها حسب الأولوية من خلال الحوار الوطنى .

ولنحصر اهتمامنا فى دائرة أضيق حتى لا تتشعب البدائل بين الاختيارات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والثقافية . . الخ

فإننا سنعتمد فى هذا المقام على حصر هذه الغايات من الزاوية الاقتصادية حيث إن المعيار الاقتصادى هو المعيار الحاسم فى اختيار عالمنا المعاصر على المستويات الدولية والإقليمية والمحلية .

خلاصة القول إنه من المفيد رصد عدة أهداف عليا ترنو الدول - بصفة عامة - إلى تحقيق أحدها أو بعضها . علما بأن هذه الأهداف بطبيعتها قد تكون متكاملة فى المدى الطويل ، ولكنها فى المدى القصير - تحت ضغط الوقت وبفعل التزاحم على جذب وتخصيص الموارد ، تصبح متنافسة فيما

بينها الأمر الذى يملئ على المناقشة العامة وعملية صنع القرار أن تركز في اختيارها على اثنين أو واحد من هذه الأهداف ليحظى بأولوية مطلقة . .

انتهى التقرير . ولم ينشر . فلا تزال الأسئلة في أقوى صورها . ولا تزال هذه التساؤلات مشكلات قوية . . يجب أن تحيى عنها الدولة ونحن أيضا . فبغيرها سوف يبقى كل شيء معلقا بلا حل . . وكأننا قد رسمنا لأنفسنا المشكلة والطريق والهدف . ولم نفعل أكثر من ذلك . فالذى يضع السؤال ليس هو دائما الأقدر على الحل ، وليس الأقدر على الحل هو الأقدر على الفهم . أو الذى يتعجل الحل !

إن ما قدمه اتحاد الصناعات المصرية هو أروع صورة لأبشع أزمة مصرية سؤال هام جدا : ولكن أين تذهب الروشتات التى يكتبها الأطباء أو هواة الطب ؟

إننا دائما أمام : مريض وطبيب ودواء ؟

أى أنه فى كل مرة يمرض إنسان نجد الطبيب الذى يشخص الدواء . . ونجد الدواء أيضا . . ووجود الدواء ليس معناه الشفاء . فالشفاء يحتاج إلى وقت ، ويحتاج قبل ذلك إلى تشخيص دقيق . . ويحتاج إلى أن يتقبل المريض مرارة الدواء والدواء حتى يتحقق له الشفاء . .

فكما أن هناك إرادة العلاج فهناك أيضا إرادة الشفاء عند المريض . والأطباء يقولون إن إرادة الشفاء عند المريض هى منتصف الطريق إلى العلاج .

وكثيرا ما فشل الدواء فى العلاج لأن المريض لا يريد الدواء ، ولا يهيمه الشفاء . . أو أنه يريد أن يبقى مريضا . وهذه مرحلة من مراحل الانتحار . . وهى منتشرة عند أناس كثيرين . .

سؤال : هل الذين يكتبون الروشتات يكونون من الأطباء دائما ؟
الجواب : لا . .

فهناك أناس يتطوعون لعلاج الناس . وليسوا أطباء . وإنما هم
أصحاب تجربة وجرة .

وكان الزعيم السياسى تشرشل من هواة تشخيص الداء وكتابة
الروشتات . وكاد يروح أيزنهاور ضحية له . . ففي الحرب العالمية الثانية
كان ايزنهاور يشكو من الإسهال الشديد . . والتاريخ يحكى لنا حكاية
تشرشل الذى كان يجلس على (القصرية) عندما جاء خبر أن الطيران
اليابانى قد أغرق الأسطول الأمريكى فى ميناء (بيرل هاربور) فكان
تشرشل يقوم ويقعد فوق (القصرية) سعيدا يقول : الآن سوف أنام . .
الآن سوف أنام طويلا وعميقا . . أمريكا دخلت الحرب . . أمريكا
دخلت الحرب !!

ودخلت أمريكا الحرب ونام تشرشل كما أراد . . واتصل بايزنهاور
ينصحه بأن يتعاطى دواء معين . . فهذا الدواء هو الحل الوحيد . .

وتناول ايزنهاور الدواء . . وكان الدواء لمعالجة الإمساك . . وكان
ايزنهاور يشكو من الإسهال الشديد . . فساءت حالة ايزنهاور وكاد
يموت !

وفى مذكرات لورد موران طبيب تشرشل الخاص كتب يقول : إننى
أواجه نوعين من الأمراض : أحدهما أستطيع علاجه . . أما الثانى فلا
علاج له عندى : المرض الأول هو ما يشكو منه تشرشل . . أما المرض
الثانى فهو تشرشل نفسه الذى يصر على أن يكون طبيبا !

ولما مات الأستاذ العقاد كتبت أقول : إن العقاد الطبيب هو الذى قتل
العقاد الأديب !

فكان العقاد يصف الدواء لنفسه . . ولما ذهبت إليه مع صديقى
الجراح الكبير د . جمال بحيرى . . كان العقاد يستعرض الأدوية التى
تناولها . وكان د . بحيرى لا يرد ولا يعلق بشيء . ولما خرج من بيت
العقاد سألت الدكتور : ما رأيك فيها قال العقاد .

قال د . بحيرى : إنه أحسن من أى طبيب متخصص . . ولكنه يجب
أن يحترم تخصص الأطباء .

ولكن العقاد لم يحترم الطب والأطباء . . فكان موته عقوبة يستحقها
هواة الطب حتى لو كانوا من طراز تشرشل أو العقاد ؟

ولا يوجد تخصص اسمه (الإصلاح) ولا يوجد تخصص اسمه رؤية
المستقبل . . فكل إنسان يريد أن يصلح نفسه وأن يرسم مستقبله . .
كلنا ذلك الرجل فى أى وقت وفى أى مكان .

ولذلك تعددت برامج الإصلاح الاجتماعى والسياسى والأخلاقى . .
والذين هم أكبر سنا يرون أن هذا حق لهم . . اليسوا أكبر ؟ اليسوا
أسبق ؟ فلا يوجد أب أو أم الا ارتدى ولو خمس مرات فى كل يوم مسوح
رجال الدين والسياسة والاقتصاد وراح ينصح أبناءه الصغار وأولاده وكل
الناس . هل هم مخلصون فى ذلك ؟ الجواب : نعم . . إنهم مخلصون .

سؤال : هل يكفى أن يكون الإنسان مخلصا ليصبح من حقه الدعوة إلى
الإصلاح بكل معانيه ؟ الجواب : لا . . فليس أصدق من الأم ولا أرق من
مشاعرها . . ولكن هذا الصديق وهذه الرقة وهذا الحب هو الذى يجعلها

تعطى لابنها المريض كل الذى حرّمه الطبيب . . وقد يموت الابن . ولكن
الأم حسنة النية شديدة الحب لابنها . . ويصدق عليه قول الشاعر : ومن
الحب ما قتل ! . .

اجلس إلى مجموعة من الناس وأعطهم أذنك دقيقة أو اثنتين فسوف
تسمع إلى عشرين شكوى وإلى مائة طريقة للعلاج . . وكل هذه رويّات
مكتوبة باللسان على الهواء . . فكلهم أطباء وكلهم صيادلة وكلهم
أنبياء . . ولكنهم أنبياء لا تؤيدهم السماء ، ولم ترشحهم الأرض . .
وكلامهم كما أصبح صوتا صار صدى !

وفى نفس الوقت عندنا هيئات كبرى ترسم وتخطط بأفلام العلماء .
وكانهم لا قالوا ولا كتبوا ولا درسوا ، وإنما يصيبهم مرض عجيب . . هذا
المرض هو أن كل ورقة يلمسونها تتحول من ورقة مطبوعة إلى ورقة يضاء
خالية تماما . .

عندك المجالس القومية المتخصصة . . بها مئات البحوث العلمية
الجادة . . هذه البحوث حصيلة تجارب ودراسات وعلوم وفنون . . وهذه
الأبحاث تتكدس وتتكوّم وتتآكل ويأكل بعضها البعض . . فبقدرته قادر
تتحول النقط فوق الحروف إلى نوع من السوس يأكل الحروف . . ولا من
شاف ولا من درى !

أعظم إهدار للقوى البشرية وللعقول العاملة وللنيات الطيبة لإصلاح
كل خلل وتقويم كل اعوجاج فى الفكر فى مصر !

ومقررات (لجنة الخدمات) فى مجلس الشورى التى يرأسها د . محمود
محفوظ قدمت تقارير رائعة . التقارير مطبوعة . وكنت قد اقترحت على

د . محفوظ أن نطبعها في كتب بأسعار رخيصة ، وأن نطرحها في السوق لعامة الناس . ولكن هذه التقارير البديعة تلقى مالا تستحقه من الإهمال .

وتقارير (لجنة الشؤون العربية) والتي أشرف بعضويتها ويرأسها العالم الجليل د . مفيد شهاب ، تضم أحسن ما يقال عرضا وتحليلا لكل مشاكل الأمن الوطني والأمن القومي ، ترى حلولاً لكثير من الأزمات والمعضلات السياسية في زماننا . .

والشاعر القديم يقول : إننا نتحدث إلى الموتى فلا أحد يسمعنا .
يقول :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي !

فنحن هو هذا الميت الذي لا يسمع النداء . . إنه أنت وأنا وهو وهى وهم وهن وكلنا . السؤال : لماذا نحن هكذا موتى أو كأننا كذلك ؟
لأننا لا نريد الشفاء مما نحن فيه .

سؤال : كيف لا نريد الشفاء ونحن لا نكف عن الشكوى من الداء ؟

الجواب : لأننا نجد اللذة في الشكوى ولا نجد الراحة في البكاء . .
ونرى أن اليأس هو نوع من الموت . . والموت إحدى راحتين !

سؤال : هل نحن متنا ؟ هل مصر تجاوزت عمرها الافتراضى ونحن نسبح في زمنها الضائع ؟

الجواب : ليس صحيحا . وإنما الذى يقول ذلك هو الذى لا يريد أن يعترف بأنه مريض . وهو الذى لا يعترف بالطب . . وهو الذى يرى أنه لا أمل في الشفاء . وإذا كان شفاء فهو مسئولية جيل آخر . . ليس جيلنا .

والسؤال : هل هذا صحيح ؟

الجواب : ليس صحيحا . فنحن لم نمت . وسوف نحىء أجيال من بعدنا تلعبنا . . إن لم تكن تلعبنا الآن . . لأننا نفرض على الأجيال القادمة بأسنا وقرفنا وزهقنا . . ونفرض على الحاضر ماضينا ، وعلى المستقبل ماضينا أيضا . . فكأننا نضحى بالحاضر والمستقبل حتى لا يكون لنا دور . . وحتى لا نبذل جهدا أكبر في علاج ما خلقتة أيدينا . . وأغرقنا فيه أولادنا وبناتنا .

سؤال : هل نحن لا نصلح لهذا الدور ، دور إصلاح الذى أفسدناه وتقويم الذى التوى بنا وفي أيدينا وفي أقدامنا ؟

الجواب : بل نصلح . قد أصلحنا غيرنا وبدلناه ، ولكن نحن لم نحسن الدعاية إلى الذى قمنا به . لقد أنشأنا مدنا جديدة وصناعات ضخمة . وأنشأنا جامعات . . وعندنا عدد كبير من العلماء والفقهاء والأدباء والفنانين . . وكل الذى ينقصنا هو أن نحترم أنفسنا . . ومن لا يحترم نفسه يحتقره الناس . فكل نقصنا هو (القدوة) . فإذا ظهر من هو قدوة سرنا وراه باحترام . . وتحولنا جميعا إلى نماذج . . وأصبح السير وراونا واجبا . . وأصبح الواجب قوة يحميها القانون . وموقف القانون أنه : حق تحميه قوة . . فالقانون هو الإصلاح ، وهو من حق كل الناس على كل الناس . ويجب أن نحمل الإصلاح بالسلاح . . بالعقاب والثواب - أرجو أن نكرر هاتين الكلمتين عشرين مرة يوميا . لأن القانون فى بلادنا قد مات وشيع موتا ، لأنه لا يخيف أحدا . فهو بلا قوة . . فهو كالبيوت بلا أبواب ولا نوافذ ولا مفاتيح ولا أقفال ولا فرامل !

كان استاذنا العظيم الفيلسوف ابن سينا طبيبا أيضا . . حكيما أى يجمع العلم والتجربة . قادرا على التشخيص والعلاج . كان ابن سينا إذا

جلس إلى مريض طلب أن يحىء أهله ويجلسوا إليه أيضا . وكان يسأل المريض عن أوجاعه . وكان المريض يقول وأهله يصححون أخطاءه أو يحاولون أن يفشوا أسراره . . وكان المريض يتكلم أمام زوجته وأولاده وأبويه . . وكان ابن سينا يرى أن المريض يجب ألا يكذب على الطبيب . . وأن يتعهد أمام أهله بأن ينفذ تعليمات الطبيب . . وأن يشعر أن شفاؤه علاج لأوجاع الأسرة لأنه أب وزوج وابن . . فهو إذا مرض : فالزوج والأب والابن والأخ قد مرضوا . . وإذا شفى فكل هؤلاء قد عرفوا الشفاء !

وكان ابن سينا سابقا لزمانه وأوانه . وكان التشخيص نفسيا جسمى اجتماعيا اقتصاديا فى وقت واحد . وهو كذلك لأن الأمراض هى جسمية نفسية اجتماعية أخلاقية اقتصادية . . أى سياسية . لأن السياسة هى علم وفن تنظيم العلاقات الإنسانية !

فما الذى تفعله دولة مثل أمريكا ؟ أو مثل ألمانيا أو اليابان ؟

أكرر مرة أخرى : إن الدولة ، أية دولة ، غير قادرة وحدها على النهوض بأعباء الحكم . . وتطبيق القانون ونشر الأمن الغذائى والصحى والتوازن الاجتماعى وحشد الشعوب فى كبسولة المستقبل . ولذلك فإن الدولة تلجأ إلى المؤسسات العلمية الكبرى . وتقدم لها مبلغا من المال . وتطلب إليها حل مشكلة من المشاكل . وتعكف المؤسسة الكبرى على البحث . . وبعد سنة أو سنتين تتقدم لها بالحل والعلاج .

فكل مصائب الشرق الأوسط السياسية والعسكرية والاقتصادية قد تفرغت لها هيئات علمية . وقدمت نتائج أبحاثها إلى الحكومة . . وقد ذكرت قبل اليوم مشروع حل أزمة الشرق الأوسط . . وقلت إن معهد بروكنجز العظيم الاحترام هو الذى قدم الحل . وكانت مجلة (أكتوبر) أول

من نشر التقرير من ترجمة الزميل عبد العظيم حماد . وذكرت أن المشير
الجمسى نادانى على سلم طائرة الرئيس السادات وطلب منى أن ألقت نظر
الرئيس إلى ذلك . وكانت مفاجأة . فقد كان الرئيس السادات يتصور أن
التقرير سرى بين أمريكا ومصر وإسرائيل . . وقال لى الرئيس السادات :
إنه نفس التقرير الذى تلقاه !

إذن فهذا المعهد العلمى الخطير عندما بحث وحلل وقدم العلاج ، لم
يكن ذلك تقريرا سرىا ، وإنما تقرير يجب أن يعرفه العالم كله . . فمشكلة
السلام والحرب مشكلة تهتم مئات الملايين فى أمريكا وفى أوروبا والشرق
الأوسط .

وهذا التقرير الذى قدمه (اتحاد الصناعات) إلى اللجنة (الحوار الوطنى)
لم يشر إليه أحد لا من قريب ولا من بعيد ، ولن يفعل . . ونحن نعرف
مقرر ومستقر هذا التقرير وعشرات غيره . إنه قد استقر على الأرض فى
مكان ما . . فى انتظار طبقات من التراب تدممه وتدفنه . ومع كل أمل
عاجل فى إصلاح داء قديم . . وكما أن الدود يتولد فى أجسام الموتى أى أن
الحياة تولد فى الأجسام الميتة لتقضى عليها فلا تكون شيئا . . وبعدها
تأكل الديدان بعضها حتى لا يبقى منها شىء ، فكذلك مثل هذه
الروشنات الأنيقة الجميلة العبارة . . ولا فرق بين أكفان من الحرير وأكفان
من الخيش . . فهى تضم تنفيذ حكم الإعدام فى حى ما كان ينبغى أن
يموت .

وموت التقارير بأفكارها السخيفة كموت التقارير بأفكارها الجميلة .
وشاعرنا شوقى يقول :

إذا ما نفقت ومات الحمار أبينك فرق وبين الحمار ؟

لا والله يا أمير الشعراء

وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا . . لأننا نرفض الداء ، ونرفض
الدواء . . ونلعن الظروف التي هي سبب كل شيء ؟ !

يقول الشاعر القديم :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا
وندوس كل هذا الذي قلت وقاله غيرى وسوف يقوله آخرون
بمظاهرة صوتية تقول :

المصريين اهمه . . الخ الكلام الذى لا معنى له إلا فى رءوس
الحشاشين . . ونحن - مع الأسف الشديد - شيء من ذلك !

عندما عاشت الأبقار فوق الأشجار.. ولا تزال؟!

سوف يدخل تقرير (اتحاد الصناعات المصرية) فى ملفات الفلسفة.. أو الأدب الهادف .. أو التشخيص العلمى لكل مشاكل الشباب فى المجتمع المصرى الحديث .. فلم نقرأ أحسن ولا أروع - من الروعة والترويع - من هذا التقرير ..

ولكن الأدياء كان لهم موقف آخر .. أسبق .. ولكنه موقف أدبى فلسفى نفسى .. ولم يكن لدى أى أحد وسيلة للعلاج .. ولا حتى رغبة .. فالأديب أو المفكر يكشف ويكتشف ولكنه لا يستطيع أن يداوى .. فليس طبيباً .. أو إذا كان طبيباً فهو يقدم التشخيص السابق على العلاج .. أو هو أقرب إلى الطب الوقائى منه إلى الطب العلاجى ..

وانتظرنا لكى نعرف من نحن وأين نحن .. وجاءنا الفرع .. أو جاءتنا العدسات والميكروسكوبات من فرنسا .. عندما ظهرت مسرحيات (العبث) على المسرح المصرى .. مسرحيات يونسكو وببيكيت وارابال وغيرهم ..

المسرحيات كلها تتحدث عن واقع المجتمع الفرنسى أو الأوروبى بعد الحرب العالمية الثانية .. عندما أحسن الناس جميعاً بخيبة الأمل ..

فقد انهارت الحضارة الأوروبية بسبب التعصب المذهبي للشيوعية
والنازية والفاشية . . فهدمت كل شيء على دماغ الإنسان وعلى كل آماله
في الحياة الأفضل والسلام الأشمل . . وأحس الناس أنهم غرباء عن
أوروبا . . عن تاريخهم عن حضارتهم عن مجدهم عن كبريائهم . .

وأحس الناس أيضا أنهم غير قادرين على الحوار معا . . فليست كل
الكلمات التي يتداولونها ذات معنى واحد . . تماما كما يفاجأ الناس بأن
العملات التي يتداولونها ليست لها قيمة واحدة معروفة . . وأن الموازين
والمكاييل كلها تغيرت دون إخطار سابق . . وهكذا يتوقف البيع
والشراء . ويتوقف الحوار بين الناس !

والناس يجلسون معا وليسوا معا . . فكل واحد في حاله ولا يريد أن
يشرك غيره أو يشاركه . . فلا جدوى من الحوار . والحوار لا جدوى
له . لأننا لم ننفق على معاني المفردات المستخدمة . . وتحمس الناس في
مصر لمسرح (العبث) . . لأنه صورة صادقة لما يعانيه الناس .
والثقاقون بصفة خاصة . . فهم يذهبون إلى المسرح قرفانين ويزدادون
قرفا . . لأن المسرح يصور أعماقهم وفشلهم وعجزهم ويأسهم من أن
يكون هناك حل . . خلاص من أى شيء !

وفجأة أصدر توفيق الحكيم مسرحية (يا طالع الشجرة) . .
والعنوان مأخوذ من أغنية شعبية عبثية لا معقولة لا منطقية ككثير من
قصص ألف ليلة وليلة وأساطير الإلياذة والأوديسة الإغريقية و (ملحمة
قلقامش) البابلية . . الأغنية تقول :

يا طالع الشجرة ، هات لى معاك بقرة ، تحلب وتسقيني ، بالمعلقة
الصيني . .

فالبقرة فوق الشجرة ، نحلبها ونسقى منها بالملعقة الصينية ..
فنقول : ليس معقولا طبعاً . ولكن اللامعقول هو المعقول فى ذلك
الوقت ..

وظهرت مسرحيات عربية أخرى بعد مسرحية توفيق الحكيم
ومسرحيات العيث الفرنسى والاسبانى والألمانى ..

ومثل كل موضة أدبية ، اختفى العيث عن مسارحنا ، واستمر
العيث بين الناس والعيث معناه الفلسفى : انعدام المعنى .. إحساس
الإنسان بأنه لا جدى من شىء .. لا أمل .. لا فائدة .. الدوران فى
ساقية .. لا الساقية فيها ماء ، ولا الثور الدائر قد توقف .. ولا نحن
مللنا هذه الصورة لأعماقنا النفسية والفكرية والسياسية أيضا .

وكان العيث على مسارحنا حزينا كثيراً . فليس مما يسعد الإنسان أن
يرى خيبة أمله .. وعجزه عن النهوض .. وإذا نهض فليس هناك
هدف .. ومادام لا هدف ، فكل الطرق والسبل والحلول سواء

أما لماذا البقرة فوق الشجرة ؟

فلا نعرف . ولكننا نحن الذين خلقنا هذا الوهم ، ثم جعلناه صعباً
إذا صعّدنا إليه .. فالصورة من وهما ، والصعوبة من صنعنا . ووقفنا
نتفرج على ذلك !

ثم وجدنا حلاً ..

الحل هو المسرح الكوميدي .. المسرح الهزلى . ففى المسارح
الكوميديّة ، سخريّة سوداء من حياتنا - سخريّة عنيفة . الناس يدفعون
فيها غالياً ويضحكون .. ولما قال لنا أستاذنا العظيم أرسطو : إن المسرح
صورة للمجتمع .. وعلاج له أيضاً .. لأننا عندما نضحك على عيوب

الإنسان على المسرح ، فنحن نضحك على أنفسنا .. وعن طريق الضحك على أنفسنا يكون علاجنا من الخجل والجبن والعبط !

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لنا . نحن نضحك فعلا على أنفسنا . ويسعدنا أن نجد الفن المسرحي قد نجح في ذلك .

ولكن بعد أن نخرج من المسرح ننسى كل ذلك . ننسى أن المسرح كان يعالجنا بالصدمات الفكاهية . ولكن نكتفى بأن المسرح قد هزنا ولم يوقظنا ، أوجعنا ولم يعالجنا ، فضحنا ولم ينجلنا !

ومعنى ذلك : أنه لا معنى للمسرح ولا معنى لما يقول . ولا معنى لأن نذهب غير أن نضحك والسلام .

فأكمل المسرح الهزلي صورة العبث ولكن بصورة ضاحكة .

وفي الحالتين : لا علاج وإنما استمرار في اللامعنى واللاهدف واللاحل .. واللامبالاة واللامتنى !

لقد عايشنا في هذا العصر أعظم انتصار وأعظم هزيمة .. كانت الشيوعية أعظم انتصار حققته نظرية .. تماما كرسالات الأنبياء .. لولا أن الشيوعية لا نبي لها ولا رب !

وشهدنا أعظم هزيمة للشيوعية عندما تساقط الاتحاد السوفيتي .. وانهار على نفسه .. وهربت من قبضته كل الأقليات العرقية والدينية .. وتحررت أيضا . وأقامت لنفسها ماكانت تحلم به من دول مستقلة حرة - رغم الجوع ونقص التجربة والخوف .. تفككت روسيا وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ..

ومن المؤكد أن الحرب العالمية الأولى أقامت الشيوعية ، وجاءت الحرب العالمية الثانية وهزمت النازية والفاشية ودعمت الشيوعية مرة أخرى ..

ولكن جاء جورباتشوف أراد أن يصلح الشيوعية من داخلها ففشل . وكان فشله أعظم انتصار للمنطق .. منطق العجز .. وقد أنهى

الشيوعية والنظم الحديدية التي أذابت الفوارق بين الناس بالظلم والقهر والسجن . .

وانتهت الحرب الباردة . .

وفي داخل روسيا محاولات عنيفة للثأر وإرجاع عجالات التاريخ إلى الوراء . . والعالم كله يقف مرة أخرى ضد المحاولات المتطرفة في روسيا والدول الشيوعية سابقا . .

انهارت الدولة الكبرى . . وتكسرت وانهارت وتباعدت أطرافها . .
ولفها الجوع والفوضى وأهدرت كبرياؤها في كل أرض .

والأحلاف التي كانت ضد الاتحاد السوفيتي ، دخلها الاتحاد السوفيتي . . فكان هذه الأحلاف لجنة تأديبية وكأنها (المطهر) الذي وصفه لنا الشاعر الإيطالي دانتي . . أي المطهر الذي يسبق دخول اللجنة

ولا أحد يعرف الآن من هو العدو . . العدو القديم لم يصبح عدوا . . والصديق الجديد ليس صديقا ، وإنما هو عدو تحت التمرين . .

فهل ما زلنا نبحث عن المؤلف الذي تحدث عنه الرئيس عبد الناصر .
لقد قال : إنه وزملاءه ضباط الثورة كانوا مثل ست شخصيات تبحث عن مؤلف - وهي المسرحية الهزلية العبثية التي ألفها الأديب الإيطالي العظيم بيراندello . .

ولكن الرئيس عبد الناصر وجد مؤلفا ينظم أفكاره ويرتبها ويدفع الجميع إلى السير بمقتضاها . وكان المؤلف ركيكا . . والنظرية هزيلة . .
ووقع في تطبيقها الكثير - أقصد هل الشعب يدفع الكثير جدا ثمنا للركاكة الفكرية . . والهزال الفلسفي والعلاج الذي كان أقسى من المرض فعلى الرغم من نصر أكتوبر ، لم ننهض بعد من هزيمة يونيو . .

فهل بعد كل هذا ما نزال نبحث عن المؤلف . .

بلاش المؤلف الواحد . . فلنقل إننا نبحت عن نظرية . . عن خطة عمل واضحة قوية ملزمة لكل الناس بلا استثناء . .

صورة محزنة جدا أن نرى مصر بلا نظرية . . لا يوجد حزب واحد له نظرية . . وكل الأحزاب قد خرجت من جيب الحكومة . . وأكثرها لا يزال يعيش على (جيب) الحكومة . ولا يزال يبيع في جيبيها . . ولو قفز منها صار كالسمكة التي قفزت من ماء يغلى إلى الموقد الذى تحتها !
أى لابد من نوح . . إن لم يكن فواحد مثله . . بأفكاره العملية . .
لإنقاذ ما يمكن إنقاذه . .

فمن الضحية ؟ الشباب ؟

ومن القاتل ؟ كلنا

وما الحل ؟ تشخيص دقيق وهو نصف العلاج . . ثم العلاج . . ولا علاج مؤكد لأى مرض . . ولكن بعض العلاج لبعض المرض . .
والباقى يحىء مع الغد وما بعد الغد . .

هل هذا حال مصر وحدها ؟

حال الدنيا كلها .

ولكن المهم : أن نقرر وأن نعزم وأن نحسم . لا شخص واحد ولكن كل الأشخاص . . أصحاب الرأى وأصحاب القرار . .

ويجب ألا ننسى أن الإنسان الذى كان خاضعا لكل عوامل الطبيعة والضعف الإنسانى ، قد تمكن بالعلم الحديث أن يتحرر من كل ذلك . .
ولكن تبدو عليه الآن كل صفات العبد الذى صار سيدا . أى حديث العهد بالحرية . . فهو (محدث) حرية وكبرياء . .

وسوف أعود إلى هذه القضايا كلها فى أضواء أخرى أملا فى حل -
بعض الحلول لبعض المشاكل . .

أعود مرة أخرى إلى أبرز نشاط فكري في مصر : المسرح . . والمسرح الكوميدي . . وكل المسرحيات كوميديّة .

وليست هذه ميزة في المسرح وإنما هي عيب كبير . . فالمسرح الكوميدي يسخر من كل عيوبنا وسليباتنا ونواقصنا . وهذه طبيعة المسرح الكوميدي . .

ولكن المسرح لا يعالج مرضا ، لانه لا يشخص داء . . وإنما هو فقط يلف حول العيوب ويتفنن المؤلفون في تجسيدها وإضحائها على ذ لك . .

وهناك اتفاق بين المتفرج والممثل . هذا الاتفاق يقول : لا أنا جاد في الذي أقول . . ولا أنت جاد في اعترافك بعيوبك . . ومعنى ذلك : أننا جميعا سلبيون لا نريد حلا . .

وفي بعض المسرحيات هجوم على الوزراء وبالإسم . والناس يضحكون لان الذي يقوله الممثل هو بالضبط ما يقوله المتفرج . . ويشعر المتفرج بسعادة مضاعفة . . فهو قد رأى ما أضحكه ، وهو قد سمع ما كان يقوله هو نفسه في البيت وفي المكتب . . فأفكاره - إذن - مثل أفكار المؤلفين والممثلين ! وهو لذلك يجد نفسه على المسرح : أفكاره وغضبه ويأسه . وهو بذلك يطمئن على حالته العقلية . . فكان المتفرج ذهب إلى المسرح ليتأكد من سلامة تفكيره . وقد أكد له المسرح ذلك !

ويقال إن أحد أبناء الصعيد قد فاز بلقب البكوية . . فالناس ينادونه بإسعادة البيك أو البيه . . وقرر أن يذهب إلى أقاربه في القاهرة ليعرفهم بأنه قد منحه الملك لقب بك . . ولما نزل إلى محطة القاهرة التف حوله الشيالون يقولون : شيال يا بيه . . شيال يا سعادة البيه !

وهنا قرر الرجل أن يعود إلى الصعيد فقد تأكد من أن مصر كلها عرفت أنه أصبح « بك » ألم يقل الشيال يا سعادة البيك .

وكذلك رواد المسارح الآن تأكدوا أن المسارح صورة من أفكارهم
السلبية وغضبهم العقيم . واطمأنوا بعد أن دفعوا الثمن الغالى للتذاكر
وعادوا إلى بيوتهم سعداء . . مع أنهم لا سمعوا تشخيصا ، ولا علاجا
لاى داء سياسى أو اجتماعى فى مصر !

وطال عمر المسرح السلبى الفكاهى . . طال عمره لأننا أردناه
كذلك . فهو سلبى مثلنا تماما .

وإذا حاول أحد أن يكون جادا فى التشخيص والعلاج ، فلا جمهور
له . . فالتناس لا يريدون وجع الدماغ ، ثم إنهم لا يصدقون أحدا من
الجادين من الأدباء أو الوزراء .

وهكذا حكمت الجماهير بالإعدام على روح الجدل وروح النقد والرغبة
فى الخلاص من السلبية . .

وظهرت بوادر الأمل . . ثم اختفت وتلاشت وهى فى طريقها إلى
(مقابر العظماء) . . أى إلى النسيان . أقصد : الحوار الوطنى . . الذى
معناه أن نفكر معا ونختلف ونتفق على (جدول أعمال) للغد وبعد
الغد . . على (مسيرة) شعبية . . على (صيغة فكرية) . . على برمجة
حياتنا لنهاية القرن . .

فنسأل أنفسنا ونجيب : ما هى أولويات الإصلاح ؟ أقول أنا : محور
الأمية .

وماذا بعد ذلك ؟

تكثيف التعليم الفنى وتخفيف الحشود المترصة على شبابيك
الجامعات . . فليس من حق أى مواطن أن يدخل الجامعة إلا إذا حصل
على مجموع ٩٠ ٪ فما بعدها . . لأن الدولة لا تستطيع أن تنفق على

عشرات الألوف من الطلبة الذين دلتهم حتى أفسدتهم في جميع مراحل التعليم السابقة . . ولابد أن يتجه الطلبة غير المتفوقين إلى معاهد وكليات فنية بشروط أيضا .

وهكذا نناقش جميعا في أخطر مشاكلنا وتشخيصها وتحسينها وتحجيمها ثم معالجتها - وعندنا تجارب الشعوب التي تنورت شعبيا ثم سبقتنا كثيرا جدا - كاليابان مثلا . . لابد أن نواجه الهزل والمسخرة والتفاهة والهيافة في كل وسائل الإعلام . . يجب أن نعيد للقراءة والكتاب مكانهما العظيم . .

يجب أن تكون الكتب أرخص حتى تصبح في متناول كل الناس .
فإذا كان الرغيف ضرورة حياة ، فالكتاب ضرورة حضارة . .

كيف تكون نهاية الحوار الذي يجب ألا يتوقف بين الساسة والمفكرين . . كيف نتفق على أن نختلف . . كيف نتفق على أن يكون الاختلاف جوهريا . . ثم أن نلتقي بعد ذلك ونتجه إلى الأمام بجماهيرنا وشبابنا - دون خوف من أحد !

مثلا : نحن تصورنا أو توهمنا أن حل مشاكل الشباب هو أن نعطيهم أرضا يزرعونها . لا بأس ولكن ماذا فعلنا ؟

أعطيناهم أرضا صغيرة . وأعطينا الأرض لمن لا يعرف شيئا عن زراعة الأرض . . فهناك فرق كبير بين الريفي والفلاح . . فالريفي هو الذي عاش في الأقاليم خارج القاهرة . . وهو يملك أرضا ، ولكنه لم يمسك فأسا ولا بذر حبة ولا حصد ثمرة . . أما الفلاح فهو الذي أمسك الفأس واضنى وانكسر على الأرض يزرع ويقلع ويسوق الأغنام ويحلب الأبقار ويبيع البيض والزبدة ليشتري المحراث والظلمبة .

هؤلاء الشباب ليست لهم خبرة بالزراعة والتجارة والصناعة .
نقلناهم من المدينة إلى الصحراء . وفي الصحراء وقفوا حفاة عراة أمام القوى العاتية : البنوك والكهرباء والماء . . إن وجدوا الماء انقطعت الكهرباء وإن وجدوا الكهرباء انسدت بنوك التسليف في وجوههم . .

وإن أقاموا البيت والزريبة فإنها يأكلان الأرض الضيقة التي حصلوا عليها . .

فكأننا بدلا من أن نخفف من غضب الشباب وسخطهم جعلناهم يتفرغون للغضب والسخط علينا . . أى أننا حولنا الساخطين الهواة إلى ساخطين محترفين !

فما الذى ينقصنا ؟

بصراحة ينقصنا (نوح) . . أو واحد مثل نوح . . أو طراز من الناس لهم نظرية . . لهم رسالة . . هذه النظرية هي (دليل العمل الوطنى) هي (برنامج التنوير الإصلاحي) .

يعنى عاوز ثورة ؟

بيضاء . . قلها ولا تخف . . ثورة كالتى قامت بها اليابان . . ثورة عرق . . بلا دموع ولا دماء . . وثورة اليابان كانت بسيطة جدا . هكذا : أحس الشعب اليابانى بوضوح أنه يجب أن يتعلم من غيره أى من أوروبا وأمريكا . وأنه لا بد أن يبدأ الآن . . وأنه من المستحيل إرسال الشعب اليابانى كله إلى أوروبا وأمريكا . وأما العقل يقول : يجب أن يجىء بعض الخبراء من أوروبا وأمريكا وأن يتعلم منهم بعض اليابانيين . فإذا تعلم اليابانيون فى سنة أو سنتين . عاد الخبراء إلى بلادهم وانفرد الخبراء اليابانيون بالشعب اليابانى يعلمونه . . سنة وخمس سنوات وعشر سنوات . وبعد ذلك : الثورتان العلمية والعملية . . ولا تزال اليابان حتى اليوم تمضى فى ثورتها البيضاء التى هددت بها أمريكا وأوروبا . .

ونحن ليس من آملنا أن نهدد أحدا ، وإنما فقط أن نهدم قلاع الجهل والكسل واللامبالاة . .

كيف ؟ فقط أن تكون لدينا إرادة قوية . وقرار حاسم قاطع . ولا رجعة فى ذلك . والآن وليس غدا . . وغدا وليس بعد غد . . اليابان بدأت تعليمها وتنويرها معنا يوما بيوم وتقدمتنا قرونا !

المحتويات

كلمة أولى	٥
لماذا يكرهون اليابان ؟	٢٣
كيف تكره حفيدك وأنت لا تعرفه ؟!	٣١
لاهم مجانين دائماً ولا نحن عقلاء أبداً !	٤٠
أطول مسافة التى بينى وبينك !	
فى الحيرة والقلق والخوف يولد الإنسان !	٥٣
الفضاء : مشكلة (فوق)	
الفراغ : مشكلة (تحت) !	٦٣
لولا أنه حيوان جنسى ما عشت هذه البشرية !	٨٢
من آدم وحواء إلى حرب النجوم !	٩٤
هل نعود إلى الوجودية ؟!	
يجب أن أخفف من وقع كلمة « الوجودية »	١٠٧
فى انتظار نوح !	١٢٤
حتى لا يأكلك التلفزيون !	١٣٨
شأى .. صابون وبامبرز !	١٤٧
السندوتش والكافتيريا .. وأنا مبسوط كده !	١٦٠
ولم يكن الإنسان مهما فى كل العصور !	١٧٢
محمد نجيب قال ولم يسمعه أحد !	١٨٢

ولم نقرأ ابن خلدون وعبد الرحمن بدوي ا	١٩٣
الذين رفضوا الدنيا واقتحموا الجنة	٢١٦
اتحاد الصناعات المصرية يقدم أروع صورة	٢٢٨
عندما عاشت الأبقار	
فوق الأشجار .. ولا تزال !؟	٢٤٥

رقم الإيداع ٩٤ / ١٠١١٣
I.S.B.N 977 - 09 - 0245 - 4

مطابع الشروق

القاهرة ٨٠ شارع سيبيه المصرى - ت ٤٠٢٣٣٩٩٠ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)